قصة الأدب في مصر

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

هذا الكتاب « قصة الأدب فى مصر » يصدر فى عدة أجزاء ، ويتناول وصف الحياة الأدبية فى مصر منذ الفتح الإسلامى حتى اليوم ، فى كثير من الإحاطة والتفصيل ودقة البحث ، والعناية بفهم المؤثرات العامة التى أثرت فى الأدب المصرى : شعره ونثره ، فى مختلف العصور والأجيال .

وإنى لفى غنى عن أن أنوه بجهد أدبى مثل هـذا الجهد ، أو أن أصف عمـلا علميا متميزاً مثل هذا العمل ، الذى يمثل موسوعة جامعة فى تاريخ الأدب فى مصر منذ أقدم العصور حتى اليوم ؛ وأكتفى فى هذه الكلمة بأن أدعو فى صدق وإخلاص إلى العناية بتراثنا الفكرى والعقلى والقومى عامة ، وبتراثنا الأدبى خاصة ، وأن ينشأ فى دار الكتب المصرية قسم مستقل لتراثنا الأدبى المصرى القديم والحديث ، وأن ينشأ كذلك فى شتى كليات اللغة والأدب فى مصر أقسام تعنى بدراسات الأدب المصرى وبحوثه وتراثه ، لأنه مظهر القومية المصرية عبر الأجيال والقرون .

وأتمنى أن أرى اليوم الذى تصدر فيه موسوعة ضخمة يسهم فيها كل قادر على البحث والدراسة من علماء مصر وأدبائها ، وتحيط بتاريخنا العقلى والأدبى ، وبشتى أعلام مصر القديمة والحديثة فى استيعاب ودقة وإحاطة ؛ وكم يعلى من مكانة مصر وهيئاتها الأدبية أن تعمل جاهدة على نشر آثار مصر الأدبية القديمة والحديثة ؟ فنى ذلك نشر لمفاخر مصر وتاريخها ، وبعث للنهضة الفكرية فيها ، وعمل على زيادة إيماننا : بأنفسنا ، بتاريخنا ، بمصر الخالدة الباقية على وجه الزمان ؛ مصر التى حملت مشاعل النور والحضارة منذ أصاب الإعياء أثينا وروما ، ثم حملت لواء الثقافة الإسلامية والعربية ، منذ إنشاء الأزهر فيها ؛ ثم صارت الملاذ الفكرى للعالم العربى والإسلامى عندما سقطت بغداد صريعة مضرجة بالدماء عام ٦٥٦ هـ ، وبعد ما خرت الأندلس العربيـة عام ٨٩٧ هـ صريعة أمام جيـوش الاسبان البربرية المتعصبة .

إن تاريخ مصر الفكرى والثقافى والأدبى والروحى هو تاريخ العرب جميعاً ، وهو تاريخ حافل بالمآثر وألوان الجهاد والكفاح ، من أجل مستقبل الإنسانية ، وأداء رسالة الإنسان الحر على الأرض الطاهرة ، التى غذاها النيل بمائه المتدفق ، ونفخت فيها الحياة والقوة رفات آبائنا وأجـــدادنا ، الذين علمونا معنى الحرية والقومية والمدنية ؟

المؤلف

❖❖❖❖
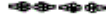
الجزء الأول

الفتح العربي لمصر

مصر هبة النيل :

مصر كما قال هيرودوت : «هدية من النيل» ، والنيل بين جنادل أسوان والبحر الأبيض المتوسط ينقسم إلى جزأين يمتاز أحدهما عن الآخر تماما . يجرى الجزء الأول منه فى صدع فى الهضبة الأفريقية والثانى فى سهل من الطين من صنعه ، فانقسمت مصر بذلك قسمين مختلفين : مصر العليا ومصر السفلى ؛ الصعيد والدلتا .

أما مصر السفلى فدلتا تكونت فى البحر الأبيض فى آلاف من السنين ، وغربى الدلتا تمتد الصحراء الافريقية وبها بالقرب من مصر سلسلة من الواحات . ويسمى هذا الغرب (ليبيا) ، ومنها غزا مصر فى مختلف العصور أقوام شتى أخرجتهم من مواطنهم السنون المجدبة .

وشرق الدلتا صحراء جرداء ولكنها لم تمنع عن مصر غارات المغيرين ، ففيها مسالك ودروب توصل لآسيا .

ويحف بالصعيد من الجانبين حافتا الهضبة ، ويختلف عرضه بينهما ؛ وجنوبى طيبة يضيق إلى ميلين ، وعند أسوان وحلفا تعترض النهر أحجار شديدة الصلابة هى الجنادل .

وليس الصعيد بمعزل عن الأرض شرقية وغربية ، فكلتا الحافتين تشقها فى عرضها وديان عدة ، ومن أشهرها وادى الحمامات ويمتد إلى البحر الأحمر من النيل عند قفط ، ويلاحظ اقتراب النيل هناك من البحر الأحمر . ويمتد فى المنطقة نفسها مسلك آخر نحو الواحة الخارجة ، وبذلك كانت هذه المنطقة ذات شأن خاص فى تاريخ مصر القديمة .

وهكذا خلقت مصر . كل ما فيها متوقف على فيضان النيل ، يترقب أهلها ارتفاعه كل عام منذ آلاف السنين .

وقد سكن مصر قبل التاريخ أقوام بدأنا نعرف الكثير عنهم من الصور المرسومة على الخزف التى وجدت فى مقابرهم . والظاهر أنهم كانوا صيادين يقتاتون

عما تناله رماحهم وتصيبه سهامهم ؛ ولم يظهر فى تلك الصور أنهم زاولوا الزراعة أو توجهت إليها أفكارهم ، وكان لهم فى النيل قوارب تسير إما بالمجاديف وإما بالقلاع . أما مساكنهم فكانت أكواخاً أقاموها على الأرض المرتفعة التى لا يعلوها الماء ، وقد وجدوا لهم أعلاما اتخذوها على قواربهم ، وقالوا إنهم كانوا قبائل لكل منها علمها وموطنها الخاص بها ؛ وسموه باسم معبودهم ، وإن أقسام مصر القديمة أصلها تلك المواطن .

ولابد من أن سكنى هذه القبائل فى واد طويل كوادى النيل أدت إلى ارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً تجارياً ، ولابد أيضاً من أن الارتباط التجارى سهل تبادل الأفكار وتعلم الناس بعضهم من بعض . والثابت أيضاً أنهم اتصلوا بالبلاد خارج مجرى النيل ؛ وقد اجتمعت لمصر كل أسباب الحضارة ، ومن ثم قامت الحضارة المصرية فى وادى النيل نفسه .

ولكن من المؤرخين من يزعم أن أهم عناصر تلك الحضارة قدجلبه من الخارج أقوام أغاروا عليها . ويدعون أنهم أسيويون ، لغتهم سامية ، دخلوا مصر من شرق الدلتا ، أو من طريق وادى الحمامات إلى النيل . ويستدلون على ذلك بدخول تراكيب سامية فى اللغة المصرية ؛ وبتغييرات شتى طرأت دفعة واحدة على عبادات المصريين وطرق دفنهم موتاهم . وينكر ذلك القول مؤرخون آخرون : فيقولون بأنهم يجدون كل عناصر الحضارة المصرية المعروفة قبل التاريخ فى العصر الذى وصفنا حالة أهله ، ويرون أن دراسة أجناس سكان الوادى قبل التاريخ فيها تفسير لقيام الحضارة التاريخية .

مصر خلال عصور التاريخ :

ولقد عاشت مصر القديمة خلال عصور التاريخ فى ظلال حضارة زاهية ، نجد آثارها فى الأهرام وفى المعابد ، وفى مختلف الآثار المصرية العديدة ، ومرت بعهود الدولة القديمة[١] والدولة الوسطى[٢] (٣٢٠٠ — ١٨٠٠ ق م) ، ثم الدولة الحديثة التى بلغت مصر فى عهدها قمة مجدها السياسى والحربى ، وبلغت منتهى ما بلغته من

---

(١) من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة .

(٢) من الأسرة الحادية عشر وما تلاها من دول شهدت مصر فيها غزو الهكسوس لها ، وحياتهم فيها ، إلى أن طردهم منها أحمس وأسس هو وخلفاؤه الدولة الحديثة فى مصر .

حضارة شهدتها مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٨٠٠ — ١١٠٧ ق م) .

ثم ما تلا ذلك من حكم الكهنة إلى أن تغلب عليها الملوك الليبيون فى الشمال (٩٤٥ — ٦١٢ ق م) ، والملوك النوبيون فى الجنوب (٧٢٢ — ٦٦١ ق م) . ثم عصر الحكم الفرسى لمصر الذى بدأ بغزو قمبيز لها عام ٥٢٥ قم ، وانتهى بقضاء الإسكندر الأكبر المقدونى عليه عام ٣٣٣ قم ، ثم دولة البطالسة التى خلف حكامها الإسكندر الأكبر فى مصر وأعادوا لها رفاهيتها ومجدها ، وإن كانوا حكاما لا يتصلون بالشعب المصرى بصلة الدم أو العقيدة ، وكان المصريون أيام البطالسة يحتفظون بتراثهم من حضاراتهم القديمة ، فلم يكن للحضارة الإغريقية سبيل إليهم ، فكانت معاهد الإسكندرية دوراً أجنبية فى أرض مصرية ، ثم الحكم الرومانى الذى خلف حكم البطالسة فى مصر على يد أكتافيوس خليفة قيصر ، إذ هزم أكتافيوس الأسطول المصرى فى واقعة أكتيوم عام ٣١ م ، واقتفى أثر أنطونيو وكليوبترة آخر ملكة على مصر من البطالسة ، وقد انتحر الإثنان قبل وقوعهما فى قبضة الغازى المنتصر ، وبذلك دخلت مصر فى حكم الرومان ، وقد ظلت الامبراطورية الرومانية الوثنية تحكم حوض البحر الأبيض المتوسط قروناً عديدة ، وفى عهد القيصر قسطنطين أسست مدينة القسطنطينية سنة ٣٣٠ م ، وقد اتخذها القيصر عاصمة لدولته ، ثم رفع عن المسيحيين العذاب الذى أنزله أسلافه بهم ، واعتنق المسيحية ، وجعلها دين الدولة الرسمى عام ٣١٢ م .

مصر ولاية رومانية :

بدأت علاقة الرومان بمصر أيام البطالسة وقت أن كانت روما تكافح قرطاجنة ، وكانت تلك العلاقات ودية ، ثم خرجت روما من الحرب البونية ظافرة ، وضعف البطالسة فدخلت مصر فى حماية الرومان ، يدفعون عنها أعداءها الآتين من ناحية الشرق ، ويسيطرون على علاقاتها الخارجية ويتدخلون فيما يقوم بين أفراد أسرة البطالسة من نزاع . كل ذلك عملا بالسياسة التى تقدم وصفها والتى كانت تفضل السيطرة على أمم الشرق على حكمهم .

وقد كان من نتائج ذلك أن ملوك مصر البطالسة لم يكن لهم بد من الاشتباك فى حرب الأحزاب فى روما .

وفى عام ٣١ م أصبحت مصر ولاية رومانية خاضعة لحكم الرومان ، وقد

استمر هذا الحكم إلى أن فتح العرب مصر فى عام ٦٤١ م .

كان هذا الحكم حكما عسكرياً محضاً ، حكم دولة غالبة أمة مغلوبة ، فلم تكن مصر فى أثنائه مركزاً للحضارة الرومانية ، كما كانت أيام البطالسة مركزاً للحضارة الإغريقية . ولم يك حكم مصر بواسطة ولاة أجانب باسم قياصرة بعيدين مما يمنع زوال الحضارة المصرية القديمة ، فلم يكن لمصر أثر فى نمو الحضارة الرومانية ، ولا هى تركت الاحتفاظ بحضارتها القديمة ، وقد اهتم بعض القياصرة بحكم البلاد حكما عادلا وبالعناية بتجارتها وغير ذلك من موارد ثروتها : فأعاد تراجان الخليج بين النيل والبحر الأحمر وأصلح دقلديانوس من مالية البلاد ، وآثر أهل الإسكندرية على غيرهم ، فأقاموا عموداً تذكارا له هو عمود السوارى المعروف ، وفى عهد هذا القيصر وأمثاله عنى الرومان بدفع المتبربرين من عرب ونوبة وسكان الصحارى شرق وادى النيل عن حدود مصر . وأقام القياصرة أيضاً بعض المبانى أو شيدوا أجزاء جديدة من معابد قديمة . ومن أشهر عمائر الرومان حصن بابليون وهو بناء قديم يقال إنه من صنع الفرس ولا تزال بعض أبراجه قائمة بمصر القديمة .

ولم تكن الأمور دائماً سائرة على هذا المنوال ، بل قاست مصر كثيراً أيام القياصرة الضعاف . فكانت تقوم عندئذ الفتن الكبيرة بين الأجناس المختلفة الساكنة فى مصر وعلى الأخص فى الاسكندرية بين اليهود والإغريق ، أو يحاول عندئذ ذوو الأطماع من القواد الرومان الاستقلال بمصر ، أو يحاول عندئذ المصريون رفع النير عن أعناقهم . وكل ذلك يؤدى إلى سفك الدماء والفوضى وفقر البلاد . وكان المتبربرون ينتهزون فرص الفوضى للاغارة على حدود البلاد ، فتمكنت مثلا مملكة تدمر الواقعة فى الصحراء بين سوريا والفرات أيام ملكتها زنوبيا(١) من تهديد

(١) هكذا يرد اسمها فى المراجع الإفرنجية ، وهى فى المصادر العربية تعرف باسم زينب ، وكان زوجها أذينة ملك تدمر ، وكان يخضع لنفوذ روما ، كما كانت تحاول فارس إخضاع تدمر لنفوذها لوقوعها على حدودها الغربية . ولما قتل الملك أذينة خلفته زينب أو زيليانوس ، وقد حاول الامبراطور إذلالها وفتح تدمر وإخضاعها لحكم روما المباشر لحارب زنوبيا وانتصر على جيشها فى معركتى : أنطاكية وحمص ، ثم دخل جيشها تدمر واحتمى بالمدينة ، وظل يقاتل ويدفع عنه الحصار ، وهربت زنوبيا من المدينة مولية شطر الفرات ولكنها أسرت واستسلمت تدمر ، وأرسلت زنوبيا هى وأولادها أسيرة إلى روما .

مصر ، ومن حكمها عامين .

وكان أهم ما حدث فى أثناء العهد الرومانى انتشار المسيحية فى مصر ولا يعلم بالضبط متى بدأ ذلك . والظاهر أن أول انتشارها كان بين اليهود المقيمين فى الاسكندرية ثم بين الإغريق ثم بين المصريين .

وقد اعتنق المصريون كلهم المسيحية ، وكانوا على استعداد لذلك : فالعبادات الوثنية القديمة كانت قد فقدت سلطانها على عقولهم ، ووجدوا فى الدين الجديد عقيدة الحياة الآخرة ، وهى من أهم عقائدهم القديمة ، وكانوا شعباً مستعبداً له فى تعليم المسيحية الاجتماعى سلوى .

وقد كان هناك اختلاف بين الكنيسة الإغريقية والكنيسة المصرية حيث كثرت فى الأولى الآراء الفلسفية وحب الجدل ، أما الثانية فتغلب عليها روح الزهد والتأمل . فكثر من المصريين من انزوى عن مساوىء العالم وشروره ، وآوى إلى الكهوف والصوامع ، وقامت فى مصر الأديرة الكثيرة ، والظاهر أن من المصريين من آثر الرهبنة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية . . وقاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية حتى أيام قسطنطين ، وكان أعوأ الاضطهاد ماوقع أيام دقلديانوس ، فقد قتل بأمره عدد كبير من المسيحيين فى مصر . ويسمى الأقباط عصره بعصر الشهداء ، وجعلوا أول حكمه (سنة ٢٨٤ م) مبدأ لتاريخهم .

ولقد ساءت الحالة فى مصر على توالى الزمن ، فصارت البلاد فى فقر مدقع لا تقوى على دفع ما فرضته الحكومة عليها من الضرائب ، واشتد النزاع بين الطوائف الدينية المختلفة ، واختل الأمن فى قراها وعلى حدودها ، وقد كره المصريون الحكم الرومانى الاستبدادى المخرب ، وعلى الرغم من فتح الفرس مدينة الإسكندرية عام ٦١٧ م ، فقد أجلاهم عنها الامبراطور هرقل ، وانسحبوا منها ، وعاد إليها الرومان سنة ٦٢٨ م .

وكان الإسلام قد أضاء بنوره الجزيرة العربية وفارس والشام ، وسرعان ما امتدت يده المضيئة إلى مصر هادية محررة ، حيث دخلت مصر تحت الحكم الإسلامى عام ٢٠ هـ — ٦٤٠ م .

الجيش الإسلامى فى مصر :

كانت مصر حين الفتح الإسلامى كما تحدثنا المصادر العربية تحت حكم المقوقس ،

ويبدو أنه هو البطريرك قيرس الذى عينه الامبراطور هرقل حاكما على مدينة الإسكندرية ، وكان قبل تعيينه فى مصر حاكما أو أسقفا فى مدينة فاز إحدى مدن القوقاس ، فلقب فى مصر « قوقيوس أو القوقاسى » ، وكان بطريرك الإسكندرية يتمتع بمركز ممتاز بالنسبة لحكام جميع المدن المصرية ، لأنه كان مكلفاً بجباية الضرائب مع أعباء وظيفته الأصلية .

وفى عام ١٨ ﻫ كما يروى السيوطى فى حسن المحاضرة(١): قدم عمر بن الخطاب الجابية فقام إليه عمرو بن العاص فخلا به فقال : يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسير إلى مصر ، وحرضه عليها ، وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف عمر على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ، ويخبره بما لها ، ويهون عليه فتحها حتى ركن إلى ذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف كلهم من عك ، وسار عمرو إلى رفح ، ومنها إلى الفرما ، حيث هزم الجيش الإسلامى جيشاً كثيفاً بعث به المقوقس ليصد العرب ، وكان مؤلفاً من خيرة كتائب الجيش الرومانى فى مصر ، ثم توالت المعارك فى بلبيس وسواها من قرى مصر ، إلى أن وصل جيش المسلمين إلى حصن بابليون الذى احتمت به الحامية الرومانية ومعها المقوقس وحاصر عمرو الحصن إلى أن فتح ببسالة الزبير وجيش عمرو ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، ثم فتحت الاسكندرية بعد نضال طويل مات هرقل فى أثنائه عام ٢٠ ﻫ ، فكسر الله بموته شوكة الروم ، ولم تفتح الإسكندرية إلا بعد أن حاصرها الجيش الإسلامى خمسة أشهر قبل موت هرقل وتسعة أشهر بعده . وبعد قليل دانت مصر كلها بالطاعة للحكم الإسلامى ، وبنى عمرو مسجده الجامع عام ٢١ﻫ ، واتخذ الأماكن التى نزل بها جيشه معسكراً عاما ، وبنى حوله مدينة الفسطاط يتوسطها المسجد الجامع . وأخذ يرفع الظلم عن كاهل المصريين ، ويعاملهم بالعدل والرحمة والإنصاف ، وينشر بينهم الإسلام وكتابه الحكيم .

وتروى المصادر الإسلامية التاريخية أنه لما وصل عمرو بن العاص إلى حصن « باب اليون » ، وأبطأ عليه فتحه — كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده ، فأمده بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف قائد عظيم ، وأرسل إليه :

---

(١) ١ : ٤٦ المرجع المذكور .

« إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، منهم أربعة يقوم كل منهم مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد . واعلم أن معك اثنى عشر ألفاً ، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » . وحاصر عمرو الحصن سبعة أشهر حتى فتحه ، ثم ذهب إلى الإسكندرية لقتال من تجمع بها من الروم ، وحاصرها أربعة عشر شهراً . ولما تأخر خـــبر فتح مصر عن أمير المؤمنين عمر ، كتب إلى قائده يقول : « أما بعد ، فقد عجبت لتباطئكم عن فتح مصر ، إنكم لتقاتلونهم منذ سنتين . وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم . إن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم يقوم مقام ألف رجل ، على ما كنت أعرف — إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم . فإن أتاك كتابى فاخطب الناس ، وحضهم على قتـال عـدوهم ، ورغبهم فى الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس . ومر الناس جميعا أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ، ووقت الإجابة . وليعج الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم » .. فلما أتى عمراً الكتاب ، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر ، ثم دعا أولئك النفر ، وقدمهم أمام الناس ، وأمر الجميع أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله تعالى ، ويسألوه النصر على عـــدوهم ، ففعلوا ، وأمدهم الله بتأييده ونصره ، وفتحت الإسكندرية فى يومهم هذا ، وكان مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة النبوية .

وأرسل عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب بشيراً بالفتح ، فقال معاوية لعمرو : « ألا تكتب معى ؟ » ، فقال عمرو : « وما أصنع بالكتاب ! ألست رجلا عربياً ، يبلغ الرسالة ، وما رأيت وحضرت ؟ » . قال معاوية بن خديج : « بعثنى عمرو بن العاص إلى عمر ابن الخطاب بشيراً بفتح الإسكندرية ، فقدمت المدينة وقت الظهيرة ، فأنخت راحلتى بباب المسجد ثم دخلته . فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فرأتنى شاحبا ، على ثياب السفر ، فأتتنى وقالت : « من أنت ؟ » ، فقلت : « أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص » . فانصرفت عنى ، ثم أقبلت تشد . أسمع حفيف إزارها على ساقها ، حتى دنت منى ، ثم قالت : « قم فأجب أمير المؤمنين » ، فتبعتها ، فلما دخلت إذ بعمر يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ،

فقال : « ما عندك ؟ قلت : « خير يا أمير المؤمنين . فتح الله الإسكندرية » . فخرج معي إلى المسجد ، وقال للمؤذن : أذن : « الصلاة جامعة » . فاجتمع الناس ، ثم قال لي : «قم فأخبر أصحابك» . فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس وقال : « يا جارية ! هل من طعام ؟ » فأتت بخبز وزيت ، فقال : « كل » . فأكلت حياء ثم قال : « كل فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك » فأكلت على حياء ، ثم قال « ياجارية هل من تمر ؟ » فأتت بتمر فى طبق ، فقال : « كل » فأكلت على حياء ، ثم قال : « ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ » قال : «قلت : أمير المؤمنين نائم » . قال : «بئس ما قلت : أو بئس ما ظننت ؛ لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ؛ ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى . فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟ » .

وقد عاش عمرو بن العاص تسعين عاما (٤٧ ق هـ — ٤٣ هـ) ، ومات بمصر ودفن بالمقطم بناحية الفج[1] .

كما مات ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص فى رواية فى مصر ودفن بداره عن أكثر من مائة عام ، فكان ميلاده قبل الهجرة بستة وثلاثين عاما ومات عام ٦٥ أو ٦٨ أو ٧٧ هـ[2] .

هجرة العرب إلى مصر :

وقد هاجر إلى مصر نحو المائة والخمسين صحابيا[3] ، ونشأت بها طبقة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث[4] وأتباع التابعين[5].

كما هاجر إليها كثير من القبائل العربية ، ومنها قبائل من بنى سليم ومن قيس نزلوا بمصر عام ١٠٩ هـ فى عهد الدولة الأموية ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد ابن رفاعة الفهمى القيسى ، ولم يكن بمصر قبل ذلك أحـــد من قيس إلا من فهم وعدوان ، وجاء ثلاثة آلاف من قيس ونزلوا فى أرض الحوف الشرقى ، ثم قدم مائة أهل بيت من فروع قيس فنزلوا ببلبيس ثم أضيف إليهم ٥٠٠ أهل بيت من

---

(١) ٩٤ جـ ١ حسن المحاضرة . (٢) ٩٠ جـ ١ المرجع .

(٣) ١ : ٧٢ حسن المحاضرة للسيوطى . (٤) ١ : ١٠٥ المرجع .

(٥) ١ : ١١٢ المرجع .

البادية فكانوا على مثل ذلك ، وبعد سنة قدم ١٥٠٠ أهل بيت من قيس . ومات مروان عام ١٣٢ هـ ، وبمصر ثلاثة آلاف بيت من قيس ، ثم توالدوا ، وقدم عليهم من قدم من البادية فأحصوا فى ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا ٥٢٠٠ ما بين صغير وكبير[1] ، وكذلك هاجر إليها قضاعة[2] والأزد[3] ـ ، وسواهم[4] .

أمراء مصر الإسلامية :

كان أول أمير على مصر هو القائد الفاتح عمرو بن العاص الذى ظل واليا على مصر حتى عام ٤٣ هـ — ٦٦٤ م ، وهو عمرو بن العاص بن وائل القرشى . كان لسناً بادى الحجة ، قائلا لم يقل بغير تفكير ، ولم يعمل بغير تدبير ، وكان شديد الحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرفع طرفه إليه ، وكان للمعضلات حلالا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته . بعث إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتنى » . فلما أتاه قال له : « إنى أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك . وأرغب لك من المال رغبة صالحة » . فقال : « يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة فى الإسلام » . فقال « ياعمرو ؟ نعم المال الصالح للمرء الصالح » . نظر إلى دولة الروم ومملكتها نظرة اخترقت حجابها المستور ، وأدرك أن قد آن وقت استباحة هذه المدن ، وخضد شوكة هذه الدولة عن مصر . فلما كانت سنة ثمانى عشرة ، وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الجابية » ، قام إليه عمرو ، وخلا به ، وقال له فيما قال : « ائذن لى أن أسير إلى مصر » . وحرضه عليها ، قال . « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ، وعوناً لهم . وهى أكثر البلاد أموالا ، وأعجزها عن القتال والحرب » . فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل به عمرو يعظم أمرها ، وينبه خاطره الشريف إلى مزارعها ومنافعها ، ومحصول أرضها ، وبرها وخيرها ، وفيضان نيلها ، وحال أهلها — حتى ركن لذلك ، وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل ، وقال

---

(١) ٦٤ - ٦٦ البيان والإعراب عما بمصر من الأعراب للمقريزى .

(٢) المرجع السابق صـ ٣٧ . (٣) خطط المقريزى ٢ : ٧٨ .

(٤) ١٦ - ٢٥ فى الأدب المصرى ـ محمد كامل حسين .

« سر وأنا مستخير الله فى مسيرك » ، فسار وافتتحها . ولم يخنه الرأى فى شىء مما قال ؛ كأنما نشأ الرجل بين أهل هذا المصر وربى فيه . وكان نظره فى ذلك — على الغيب — أثقب وأصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة — والكرة الأرضية أبسط من كف . فكم قدروا قوة خصومهم وأخطأوا ! وكم وطئوا بلادهم فضلوا حتى دفعوا فى حروب أنهكتهم ، وكانوا قد ظنوها فى أول أمرها لعباً ولهـــواً ! وقد وصف عمرو مصر لعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وصفاً بليغاً فقال : « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء . طولها شهر ؛ وعرضها عشر . يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر . يخط وسطها نهر ميمون الغـدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عج عجاجه ، وتعظمت أمواجه — لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب ، وصغار المراكب فإذا تكاملت تلك كذلك ، نكص على عقبه ، كأول ما بدأ فى شدته ، وطما فى حدته . فعنـد ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ؛ ثم يبذرون الحب ، ويرجون الثمـار من الرب . حتى إذا أشرق الزرع وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحتـه الثرى . فعند ذلك يدر حلابه ، ويغنى ذبابه . فبينما هى — يا أمير المؤمنين — درة بيضاء ، إذ هى عنبرة سوداء ، وإذ هى زبرجدة خضراء . فتعالى الله الفعال لما يشاء ! » .

وكان عمرو مع هذه الدنيا المقبلة ، والسعادة الخادمة ، والسلطنة القـاهرة النافذة — أسبق الناس إلى حق ، وأبعد الناس عن باطل : فلم يعهد عليه فى أثناء ولايته عليها نقضه لعهد ، ولا خفره لذمة ، ولا نظره لما فى أيدى الناس من الأموال والثمرات والعروض ؛ ولم يستأثر لنفسه بخير دون من يعول ويرعى . ثم أزال عن أهل مصر كثيراً من البدع ؛ وأذاقهم حلاوة الدين ، وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة ، وبإزالتها من حسنة ؛ وحسبك من مناقبه الإسلامية الغراء رضاؤه بالحق على نفسه ، وإذعانه له !

قيل : أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، عائذ بك من الظلم » . قال : « عذت بمعاذ » . فقال : « سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين » . فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ، وأن يقدم ابنه معه . فقدما ، فقال عمر :

« أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب » . فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : « اضرب ابن الأكرمين » . ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو » . فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذى ضربنى ، وقد اشتفيت منه » . فقال عمر لعمرو: « بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » . وناهيك بهذه المنقبة الإسلامية من أمير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما ، وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير شرعة يستقى منها جميع الحكام معانى الحرية ، والمساواة ، والإخاء والعدل، والإحسان.

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً : اثنان منهم ولیا الحكم مرتين، وواحد منهم ثلاث مرات . وقد حكم أحدهم البلاد نائبا عن ابن الزبير، ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان خمسة من هؤلاء من بيت بنى أمية ، ومن ولاتها عبد العزيز بن مروان ، وعبد الله بن عبد الملك ، الذى وليها عام ٨٦ هـ — ٦٨٦ م[١] . وكان آخر الأمراء عليها عبد الملك بن مروان مولى لخم الذى ولى مصر سنة ١٣٢هـ[٢] .

وفى أثناء الحكم العباسى تولى مصر أربعة وستون واليا ، أولهم : صالح بن على بن عبد الله بن عباس .

وقد نهض هؤلاء جميعا بإدارة مصر إدارة حازمة رشيدة دستورها مبادىء الإسلام الحنيف ، وشعارها الحق والعدالة والمساواة والحرية ، فزاد سكانها[٣] وانتشر فيها الرخاء . .

---

(١) وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمراً باستعمال اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ سكان مصر يتعلمون اللغة العربية وينصرفون عن القبطية .

(٢) ٢ : ٧ حسن المحاضرة .

(٣) كان سكان مصر ، كما يقدره بعض الباحثين ، يبلغ حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد بين ستة ملايين وثمانية . وقد زار ديودور الصقلى مصر بين سنتى ٦٠ و٧٥ قبل الميلاد وقدر أهلها بتسعة ملايين ، وروى المؤرخ اليهودى يوسيفوس ـ الذى عاش فى منتصف القرن الأول بعد الميلاد ـ أن سكان مصر فى عصره زهاء ٧٫٨٠٠٫٠٠٠ . وأما فى العهد الإسلامى فقد روى أن الوليد بن رفاعة ـ أحد الولاة فى القرن الثانى الهجرى ـ طوف فى أرجاء مصر تسعة أشهر ومعه الكتاب والحساب : فأحصى القرى عشرة آلاف ، لا يقل مؤدو الجزية فى كل قرية عن =

الفكر المصرى بين عهدين

الفكر المصرى فى القديم والحديث :

ذاع فى مصر قبل الفتح وبعده بقليل الأدب الإغريق والثقافة الإغريقية ، وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، وذلك لنفوذ الإغريق فى عهد البطالسة وما تلاه من عهود .

ولم يكن للأدب واللغة والثقافة الرومانية تأثير يذكر على الرغم من نفوذ الرومان السياسى والإدارى ، وقد نظم شعراء مصر شعرهم باليونانية ومنهم : أخيلوس تاتيوس من شعراء القرن الرابع الميلادى ، وسيروس الأخميمى .

ومع ذلك فقد عرف فيها الأدب السريانى واللغة السريانية ، بهجرة كثير من علماء السريان إلى مصر حيث نشروا أدبهم .

وكان رجال الدين المسيحى فى مصر يكتبون مقالاتهم باللغة القبطية التى صارت لغة الدين عند الأقباط ، وبطل استعمال اليونانية فى الكنائس ، ومع

= خمسمائة . ومعنى هذا أن البالغين من غير المسلمين كانوا زهاء خمسة ملايين ، والمسلمون كانوا أقل ، فيمكن تقدير السكان جميعا بين أربعة وعشر وثمانية عشر مليونا . والظاهر أن العصور الإسلامية الأولى كانت عصور رخاء ، وأن عدد المصريين فيها قد بلغ عشرة ملايين أو زاد . ولا ريب أن سكان مصر فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) قد نقصوا كثيرا ، إذ تحولت عنها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وزالت دولتها المستقلة ، وخضعت للدولة العثمانية . وفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) قدر جومارد ــ أحد علماء الحملة الفرنسية ــ سكان مصر بمليونين ونصف مليون . وفى عهد محمد على سنة ١٨٢١ م دل الإحصاء على أن السكان مليونان ونصف مليون أيضاً ، ولكن إحصاء سنة ١٨٤٦م جعلهم أربعة ملايين ونصفاً ، وفى آخر عهد اسماعيل كان المصريون زهاء ستة ملايين .

ذلك لم تكن هناك آداب مشهورة قد كتبت بالقبطية ، وكان بعض العرب يعرفون القبطية ويتفاهمون مع الأقباط فى مصر بها ، ومن هؤلاء القاضى خير بن نعيم ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م الذى كان يعرف القبطية[١] .

ولقد كانت مصر قبل الفتح مركزاً من مراكز التفكير فى الشرق ، والشرق هو الذى كان مصدر الإلهام للغرب فى الفلسفة فى العصور القديمة ، فالفلسفة اليونانية كانت مقتبسة من بلاد الشرق كما ذهب إلى ذلك ابن النديم[٢] وابن خلدون[٣] ، إن الأمة الفارسية القديمة عرفت الفلسفة فى فكرة نضال الخير والشر والنور والظلام التى أذاعها زرادشت فى القرن السادس قبل الميلاد ، وكذلك كان الكلدانيون القدماء أنبغ الأمم فى معرفة هيئات الأفلاك وحركات النجوم ورصدها ، وكان للهنود القدماء فلسفة معروفة ، منها رأيهم فى تناسخ الأرواح ورأيهم فى العالم وحدوثه وأنه معلول لله تعالى ، وكان بمصر فى القديم كما يقول صاعد الأندلسى علماء بضروب الفلسفة من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية وخاصة علم الطلسمات والكيمياء والمرائى المحرقة ، وفى عهد الاستعمار الرومانى القديم للشرق انتشرت الديانة المسيحية فى ربوعه ، وكانت أنطاكية من أهم مراكز المسيحية ، وذاعت كذلك الثقافة والحضارة الرومانية ، وكذلك هاجت الخلافات الدينية بين فرق المسيحية ، وانتقل شرر هذا الخلاف إلى بلدان الشرق واستعر فيها لهيبه ؛ وكان من أسباب هذا الخلاف انقسام الكنيسة المسيحية بعد انقسام امبراطورية الرومان إلى دولتين شرقية وغربية ، فقد انقسمت الكنيسة كذلك إلى كنيسة شرقية وغربية ، واختلف رجال الدين المسيحى فى فهم حقيقة المسيح : هل طبيعته لاهوتية أو ناسوتية ؟ أو أن الطبيعتين قد امتزجتا فيه ؟ وانقسموا من أجل ذلك إلى فرق عديدة ، منها : اليعاقبة الذين فروا من اضطهاد الدولة الرومانية الشرقية فهجروا اللاتينية وتكلموا السريانية والقبطية ، ومن هذه الفرق أيضاً النساطرة الذين حاربت مبادئهم الكنيسة المسيحية بقرار من مؤتمر دينى عقد عام ٤٣١ م فى مدينة أفسوس بآسيا الصغرى ، فنزل كثير منهم فى الإسكندرية واتخذوها مركزاً لنشر مذهبهم والدعوة

---

(١) ٥٨ الكندى .

(٢) الفهرست ص ٣٣٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٤ .

له . وكذلك أقام آخرون فى الرها[1] حيث جددوا فى مدرستها مذهبهم ، وأخذوا يقشرون الدعاية له ، ولما رأى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية أن مدرسة الرها أصبحت مباءة للنساطرة أمر بإغلاقها سنة ٤٣٩ م أو سنة ٤٨٩ فى رأى دى بور ، والفرقة الثالثة هى فرقة الملكانية التى وقفت وسطا بين رأى اليعاقبة ومذهب النساطرة ، فهم يميزون فى المسيح بين الطبيعتين : الإلهية والبشرية .

هذا الخلاف الدينى أدى إلى قيام المدارس فى الرها ونصيبين ، وإلى ترجمة كتب الفلسفة اليونانية للدفاع بها عن مذاهب المسيحية ، وكذلك قامت مدرسة حران التى تأثرت بالأفلاطونية الجديدة وبالمذهب الفيثاغورى الجديد ، كما قامت مدرسة جنديسابور ملتقى الثقافات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية . ومن أشهر المدارس القديمة مدرسة الإسكندرية ، والإسكندرية مدينة قديمة أسسها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٢ ق م ، واتخذها البطالسة بعده عاصمة لهم ، فبنوا فيها كثيراً من المدارس والمكتبات والآثار ، حيث صارت من أهم مراكز الحضارة الإغريقية فى الشرق ، ولما أخذ الرومان مصر عام ٣٠ ق م من أيدى البطالسة ظلت الإسكندرية مستقر الحضارة وموئل الثقافة ومنارة الفنون ، كما أصبحت مجمع الطوائف المسيحية ومذاهب الفلسفة ، وامتزجت فيها الثقافة المصرية القديمة بالفلسفة الإغريقية ، ونبغ فيها كثير من الفلاسفة والعلماء والأدباء والفنانين ، وتجمعت الحركة الفكرية فى دارى الفنون والكتب ، فاشتغل العلماء بتصحيح المؤلفات اليونانية القديمة وترجمتها ، وبالتأليف فى كل فن ؛ فظهر فيهم إقليدس الرياضى ، وأفلوطين الفيلسوف مؤسس مذهب الأفلاطونية الحديثة[2] ، ويوحنا

---

(١) مدينة فى الجزيرة أسس بها أساتذة مدرسة نصيبين — حين تسليم الروم هذه المدينة للفرس سنة ٣٦٢م — مدرسة جديدة عام ٣٧٣م سميت مدرسة الرها ، والمدينة كذلك مركز للكنيسة التى يتكلم رجالها السريانية .

(٢) أفلوطين المصرى (٢٠٥ — ٢٦٩ م) . ولد فى أسيوط وتعلم فى الإسكندرية وسافر فى حملة حربية إلى فارس كما سافر إلى روما ، وهو زعيم الأفلاطونية الحديثة التى اقتبسها من فلسفة اليونان ومزجها بصوفية الشرق حاملا على المذاهب المادية ، وقد كان أفلوطين صوفيا ذاق لذة الاتصال بالله والاستغراق فى وحدانيته ، وساد هذا المذهب بعد وفاة أفلوطين فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية حتى عهد جستنيان

اللغوى ، وسواهم . ومن مدرسة الإسكندرية شعت أضواء الثقافة على بلاد الشرق، وقد استمرت مدرسة الإسكندرية كذلك إلى أن اعتورها الهرم والشيخوخة لفساد الحكومة ، ولاضطهاد الرومانيين للفكر ، ولمنافسة مدارس عديدة لها فى الشرق ، وللظلم السياسى والاضطهاد الدينى ، وكانت تمنى مدرسة الاسكندرية من بين ما تعنى به بالفلك والسحر والطلاسم .. ولما فتحت مصر عام ٢٠هـ اتصل المسلمون بعلومها وكتبها اتصالا وثيقا ، وقد ظلت مدرسة الإسكندرية محافظة على تعاليمها فى ظلال حكم الإسلام ، وإن كان قد نالها شىء من الضعف . وفى ظلال هذه الحركات العقلية والخلافات الدينية انبثق نور الإسلام على الشرق ، وجمعه كله تحت لواء واحد وعقيدة واحدة وفكرة نبيلة تستمد قوتها من مثل الحيـاة العليا .

كانت مصر تعيش فى ظلال ماضيها المادى الوثنى فى نطاق محدود من التفكير العقلى ، فلما دانت بشريعة الإسلام اتسع أفق التفكير أمام أبنائها ، وقامت مدارس دينية وفكرية تدعو إلى التحرر والبحث والكشف عن أصول جديدة تكون أساسا للبناء العقلى المتحرر ، وكان من أثر ذلك نشأة طبقة من المجتهدين : كالليث بن سعد المتوفى عام ١٧٥هـ[1] وسواه ، وقد نمت الحركة العلمية فى الفسطاط وكثرت الحلقات فى مسجد عمرو الذى كان مركزا علميا لنشر الدين الإسلامى ، وكبرت هذه الحركة العلمية وازدهرت ، وأمّ هذا المسجد كثير من العلماء الأعلام والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الإسلامى ، وأدوا له خدمة صادقة فى ميادين الدين والشريعة واللغة والعلوم ، ومن أشهر هؤلاء : عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن لهيعة ، ثم الليث بن سعد ، وقد كان للامام محمد بن إدريس الشافعى بمسجد عمرو زاوية يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الذين دونوا مذهبه ، ونشروا علمه : كالربيع بن سليمان ، والمازنى ، والبويطى ، وغيرهم . وكان أبو تمام يسق الماء فى جامع عمرو ، وفيه كانت دراسته الأولى .

(٥٢٧ - ٥٦٥ م) الذى أمر عام ٥٢٩ م بإغلاق المدارس الفلسفية فى أثينا وباضطهاد رجالها واضطهدت معها الأفلاطونية الحديثة ، ولقد تأثر اليعاقبة بهذا المذهب فحاولوا التصوف والرهبنة ومالوا لحياة الأديرة ، ويسمى الشهرستانى الأفلاطونية الحديثة مذهب الإسكندرانيين .

(١) ١ : ١٢٠ حسن المحاضرة .

وقد انتشر مذهب الشافعي في مصر على أيدى الشافعي وتلاميذه ؛ ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكي الذى كان أول من أدخله إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامي[١] كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفي فيها على يدى القاضي إسماعيل ابن سميع الكندى[٢] الذى ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٦٤ هـ فعمل على نشر مذهب أبي حنيفة فيها ، وكرهه المصريون لذلك كرها شديدا . ويذكر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة كثيرا ممن كانوا بمصر من حفاظ الحديث ونقاده ، ومن المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفظ ، كما يذكر من كان بها من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، أما الحنابلة فكانوا قليلين فيها ، ولم يسمع السيوطى كما يقول بخبرهم إلا فى القرن السابع وما بعده[٣] ، كما يذكر من كان بها من أئمة القراءات ومن الصلحاء والزهاد والصوفية وأئمة النحو واللغة[٤] وأرباب المعقولات وعلوم الأوائل والحكماء والأطباء والمنجمين[٥] ، وقد ظل التدريس فى الجامع العتيق مدة طويلة .

خضعت مصر ـ أول ما خضعت للحكم الإسلامى ـ للخلفاء الراشدين ، ثم لدولة بنى أمية ، ثم لدولة بنى العباس ، وكان كل خليفة يختار لها من يثق به ويأتمنه على مصالح البلاد والعباد .

العرب حماة الثقافة :

فى ظلال الفتح الإسلامى استمرت مدرسة الإسكندرية تؤدى مهمتها وتحافظ على تعاليمها ، ويفيد منها العرب ، ويتصلون بعلمائها ، ويستعينون بهم . . ولم يحاول أمراء مصر وولاتها إغلاق هذه المدرسة بحال من الأحوال ؛ وإن كانت المدرسة قد أصيبت بضعف ، وأخذت مكانتها العلمية فى الانهيار ، كما سارت الآداب القبطية والإغريقية إلى الاضمحلال .

وقد حاول بعض المؤرخين أن ينسب إلى عمرو بن العاص إحراق مكتبة الإسكندرية القديمة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكن المحققين من الباحثين من عرب ومستشرقين ؛ وفى مقدمتهم بتلر نفوا ذلك نفيا قاطعا ، وكذلك ذهب إلى نفى هذه الخرافة جيبون وغوستاف لوبون ، وتاريخ العرب الفكرى والثقافى

---

(١) ١٩٠ : ١ حسن المحاضرة .

(٢) ١٩٦ : ١ المرجع . (٣) ٢٠٥ : ١ المرجع .

(٤) ٢٢٨ : ١ المرجع . (٥) ٢٣٢ : ١ المرجع .

ينفى عنهم ذلك ، فقد كانوا منذ نشأ الإسلام حماة الثقافة ورسل العلم ورواد المعرفة والمشجعين على البحث العلمى فى كل مكان حلوا فيه .

ولقد كان الاسكندرية تاريخ مجيد يتصل بالفنون والأدب والعقل البشرى من عدة نواح . ذلك أنه عندما قام البطالسة ملوكا على مصر بعد وفاة الإسكندر وجعلوا الإسكندرية قاعدة ملكهم أخذوا فى تشجيع العلم والأدب . وكان لأولهم ومؤسس دولتهم أكبر الفضل وأجمل الأثر فى ذلك . فإنه بعد أن توطدت أركان عرشه فى مصر وتفرغ لسياسة الدولة وتمكين رعاياه من اجتناء ثمار السلم بعد الحروب الطويلة التى قام بها عقب وفاة الإسكندر المقدونى ، شاء أن يجعل من الإسكندرية مدينة تطاول فى الثقافة القائمة فيها أثينا عاصمة الفلسفة والأدب والفنون . فعضد العلوم والمعارف ، وأكرم الذين كانوا يشتغلون فى ترقيتها وابتنى دور العلم وأجرى عليها الأرزاق . وتابعه خلفه فى ذلك وهو بطليموس (فيلا دلف) أى المحب لإخوته ، وهو لقب أطلق عليه تهكما لأنه كان يبغض إخوته وسائر أعضاء أسرته .

وقد شاعت العلوم والفنون فى مدينة الإسكندرية وقصدها العلماء والشعراء والفلاسفة من بلاد اليونان وأصبح للاسكندريين مذهب خاص فى الفن والفلسفة والشعر عرف بهم . وقد قام هذا المذهب على أنقاض المذاهب اليونانية ، وكان ينقصه ميزتا الإبداع والخلق اللتان كانتا لاصقتين بالتفكير اليونانى ، فاقتصر فن النحت على الزخرفة والبهرجة ، واقتصر الشعر على اللفظ وأنواع البديع ، واقتصر الأدب على أبحاث اللغة والنحو ، وأصبحت الفلسفة جدلا عقيما ، ويسمون هذا المذهب (الأفلاطونية الجديدة) . قال المؤرخ جيبون : « هم أهل فكر وعمل — يريد رجال الأفلاطونية الجديدة — ، غير أنهم زادوا الأمور تعقيداً ؛ لأنهم لم يفقهوا أمراً فى الفلسفة . فلقد أقلعوا عن درس علوم الأخلاق والطبيعة والرياضة ، وراحوا يبحثون فى التفاصيل الجدلية فيما وراء الطبيعة » .

ومهما تكن قيمة هـــذا الطور من ناحية التفكير فقد كان ظاهرة جديرة بالاهتمام من ظواهر الذكاء والعقل المصرى . ومهما تكن قيمة رجاله فلا يشكر مفكر أنه قام فيهم أعلام كبار ، كان لهم الأثر البعيد فى تطور الشعر والفلسفة وبعض أنواع العلوم : كالجغرافيا والفلك ؛ ومما ساعد على نمو العلم والفلسفة ونشر الثقافة العامة والخاصة قيام دور العلم ومعاهده ، وإنشاء المكتبات التى جمعت وحوت أنفس نتاج الفكر البشرى . ومن هذه المكاتب (مكتبة الإسكندرية) التى كان لها شأن

يذكر فى التاريخ .

ليست مكتبة الإسكندرية أقدم المكتبات المعروفة فى التاريخ القديم . فقد روى بعضهم أن الفراعنة من قبل ذلك أنشأوا دوراً للكتب ، كما أن الباحثين كشفوا بمدينة نينوى داراً للكتب كانت جامعة منظمة . فمكتبة الإسكندرية وإن لم تكن أقدم دور الكتب كانت ولا شك أعظمها ثروة وأدقها نظاما ؛ وروى بعضهم أن بطليموس الأول المسمى (ديمتريوس) هو الذى أسسها وجمع فيها مائتى ألف كتاب ؛ على أن هذه الرواية تحتاج إلى براهين تدعمها . وقال آخرون إن بطليموس الثانى « فيلادلف » ابتاع مجموعة كتب أرسطو وكانت ذات قيمة تضم ما أتيح للفيلسوف الكبير جمعه من كتب العلم والفلسفة والفنون . وقيل أيضاً إن (تيوفرست) حفظ هذه المجموعة ، ثم أهداها ابنه (نيله) إلى ملك مصر ، وأنه عند وفاة هذا الملك كان يوجد فى مكتبة (بروكيوم) ٤٠٠٫٠٠٠ كتاب وفى مكتبة (سيرابيوم) ٤٢٫٨٠٠ كتاب . وهى أرقام مبالغ فيها ، وكانت فى الإسكندرية أيامئذ مكتبتان ؛ إحداهما المعروفة بمكتبة (بروكيوم) وهى الأصل والثانية المعروفة بمكتبة (سيرابيوم) وهى الفرع ، وكانت الأولى توجد فى المتحف الذى أسس بجوار قصر الملك ، وكان هذا القصر قائماً وقتئذ فى مكان يقرب من محطة الرمل اليوم . وقد أنشئت هذه المكتبة لخدمة العلماء الذين كانوا فى المتحف ؛ ذلك لأن هذا المتحف كان أشبه بمجمع علمى يسكن داره الرحبة جماعة من العلماء والفلاسفة والأدباء الذين وقفوا حياتهم على البحث والتدقيق ؛ ولما ضاقت هذه المكتبة بما فيها من جهة ، وتعددت فيها نسخ الكتاب الواحد من جهة أخرى ، أنشأوا مكتبة ثانية كانت فرعا للأولى فى (السيرابيوم) وهو هيكل شيد لعبادة الإله المصرى (سيرابيس) ، وكان هذا الهيكل قائما فى الجنوب الغربى من المدينة على التل الذى يقوم عليه اليوم عمود السوارى .

وبعد وفاة بطليموس (فيلادلف) سلك خلفاؤه على نهجه فى العناية بجمع الكتب . وقد ذكر بعض المؤرخين أن البطالسة لم يتورعوا عن استعمال شتى الأساليب المحرمة للوصول إلى غايتهم وزيادة ثروة مكتبتهم العلمية ؛ من ذلك أن بطليموس الثالث الملقب « افرجيت » أى المحسن أمر بأن على كل من يأتى الإسكندرية من العلماء أن يقدم كتبه إلى المكتبة فيحتفظ بالأصل فيها ويعطى له نسخة منها على ورق بردى عادى . ومن ذلك أنه طلب إلى مدينة أثينا القصص التمثيلية التى ألفها

(سوفوكليس) و (أوربيدس) و (أسكيلوس) لكى ينسخها ويعيدها إليها . واستودعها خمسة عشر مثقالا من الفضة تأمينا عليها . ولما صارت هذه القصص لديه احتفظ بالأصل وأرجع إلى الأثينيين نسخا منها ، راغبا إليهم بالاحتفاظ بالمال الذين استودعهم تأمينا عليها . ورأى ملك آخر من البطالسة أن ملك (برغامة) يزاحمه فى اقتناء الكتب ونسخها ، فأصدر أمره بمنع تصدير ورق البردى إليه ، فاضطر تجار تلك المملكة إلى اختراع ورق آخر هو المعروف اليوم بورق الرق ؛ على أن البطالسة لم يكتفوا باقتناء الكتب اليونانية بل إنهم عنوا كذلك بنقل كتب اللغات الأخرى إلى اليونانية ، وأشهر هذه المترجمات نقل التوراة من اللغة العبرية إلى اليونانية بأمر بطليموس فيلادلف . وحكاية هذه الترجمة مشهورة تتلخص فى اتفاق اثنين وسبعين من العلماء فى ترجماتهم المختلفة التى قاموا بها فى وقت واحد كل بمفرده . وقد وصف (رينان) هذه القصة بأنها (حكاية حمقاء) ويرجع بعضهم نقل التوراة إلى اليونانية إلى ما بعد عهد هذا الملك . ومما زاد فى ثروة مكتبة الإسكندرية أن الفاتح الرومانى (مارك أنطونيوس) عندما انتصر على (برغامة) انتزع منها مكتبتها الكبيرة التى كانت تحوى مائتى ألف كتاب وأهداها إلى الملكة المصرية كليوبطرا صديقته ، وهكذا أصبحت مكتبة الاسكندرية من أشهر مكتبات العالم بفضل عناية البطالسة والعلماء الذين تولوا إدارتها . وقد حفظ التاريخ أسماء الثلاثة الأولين منهم ، وهم : (زينودوتوس) و (كاليماكوس) و (ابراتوثينوس) على أن هذه المكتبة الشهيرة لم تحظ دائما بمثل هذا التعهد فقد أصيبت بنكبات عديدة ؛ وأول هذه النكبات ماروى من أن (يوليوس قيصر) عندما جاء الإسكندرية فاتحا واستقر فيها بين أبهة الملك وأسر هوى كليوبطرا ، ثار به الإسكندريون مرة وحاصروه فى (بروكيوم) فخاف أن يستولى الثائرون على مراكبه البحرية فيستعملونها فى محاربته فأمر بإحراقها . ويقال إن اللهب اتصل بالمكتبة فأحرق أربعمائة ألف كتاب ، وهذه النكبة مشكوك فيها كثيرا لأن أول ماورد ذكرها كان فى كتب الخطابة ، وأما المؤرخون المعاصرون فلم يذكروها . كذلك لا نجد لها أثرا فى خطابات شيشرون وكتبه وهو الأديب الكبير المحب للتأليف والمولوع باقتناء أشهر المصنفات ، وكذلك لانجد لهذا الخبر أثرا فى مذكرات قيصر ، فلو كانت النكبة فادحة كما قيل لعرض لها فى هذه المذكرات التى كتبها وحاول أن يبرىء نفسه من تبعتها ، وقد ذكر قيصر أن الإسكندرية كانت فى شكل بنائها

وطريقته غير قابلة لسريان النار فيها وبعد ، فلعل النار لم تصب غير خزائن كتب مهملة لا قيمة لها كانت على شاطىء البحر . على أن الدمار أخذ يلحق بهذه المكتبة ويفعل فيها فعله الرائع بعد أن استتب الأمر للرومان فى مصر وخاصة فى أواخر القرن الثانى للمسيح وما بعده . فليس مستبعدا على روما أن تغتصب من هذه المكتبة أثمن كتبها ؛ كما أنه من الصعب أن تقول إن المكتبة لم تصب بأذى فى عهد اضطهادات (كركلا) الفظيعة ، وفى عام ٢٧٠هـ أمر الإمبراطور (أورليانوس) بهدم (براكيوم) فهرب علماء المتحف إلى هيكل (سيرابيوم) واعتصموا فيه ، فكان آخر موئل للعلم فى الإسكندرية ونزح بعضهم إلى القسطنطينية . وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن مكتبة (براكيوم) وهى الأصل قد هدمت فى القرن الثالث . وكان انتشار المسيحية ضربة قاضية على مكتبة الإسكندرية . ففى عام ٣٩١ استصدر البطريرك (تيوفيل) أمراً من الإمبراطور بأن يقضى على عبادة الأوثان فى الإسكندرية قضاء مبرما لتقوم النصرانية مقامها . فوجه حملة خاصة إلى (سيرابيوم) لأن هذا الهيكل كان آخر موئل لعبادة الأصنام فاستولى عليه وأحرقه وحطم صنم (سيرابيس) الذى كان منصوبا فيه . على أن مبانى الهيكل لم تهدم جميعها ، فصار عسيراً أن تصدق أنه كان بالإسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع . ويقول الأستاذ برتشيا إن ما قاله (أوروز) عام ٤١٦م من أنه رأى خزائن كتب الهيكل فارغة من الكتب يدل — مهما اختلفوا فى تفسير هذا القول — على أنه لم يكن فى الإسكندرية وقتئذ مكتبة عامة هامة . وليس معنى هذا أن الإسكندرية خلت بعد ذلك من الكتب ، لأن من المحتمل أنه كان فيها مكاتب خاصة عديدة عند بعض ذوى المكانة والثراء أو فى الأديرة أو فى مدارس اللغويين والفلاسفة ، وقد ظلت هذه المدارس عامرة زاهية إلى أواخر القرن الخامس .

فتح المسلمون الإسكندرية عام ٦٤٠م — ٢٠هـ — فى عهد عمر بن الخطاب ، فتحها عمرو ابن العاص بعد قتال ومنازلة بعد فتح مصر ، ويقول ابن العبرى بل إنه فتح مصر عنوة وفتح الإسكندرية صلحاً . والإشاعة المتداولة هى أن ابن العاص بعد فتح الإسكندرية رغب إليه (يوحنا القراماطيق) أن يعطيه كتب الفلاسفة التى بدار الكتب ، فمال عمرو إلى إجابة رغبته ثم خشى أن لا يأذن له أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فحرر له يخبره بهذا الطلب ، فكتب إليه أمير المؤمنين : «إن كانت تحتوى هذه الكتب ما فى القرآن فليس لنا حاجة بها وإلا فلا فائدة لنا فيها . وعلى كلا

الحالين ينبغى حرقها» . فأعطيت هذه الكتب لحامات الإسكندرية فاستعملت فى وقودها أشهراً متوالية .

ونجد المؤرخين الحديثين على اختلاف فى تصديق هذه الرواية ونفيها . ويزعم بعضهم أن أول من روى هـذا الحادث المؤلم أبو الفرج الملطى المعروف بابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) وهو من رجال القرن السابع للهجرة . ويشكر بعض الباحثين رواية أبى الفرج لأنه نصرانى ، وأنه أراد منها النيل من الإسلام ، وأن أبا الفرج من والد يهودى واعتنق النصرانية ، فشب ابنه على هذه الديانة ودخل الكهنوت ورقى فى مدارجه حتى صار أسقفاً ، ويقولون كذلك إن الرواية مدسوسة عليه لأن التاريخ الذى وضعه باللغة السريانية ـ وتاريخه العربى ترجمة له ، قام بها المؤلف بعد حين من كتابة تاريخه بالسريانية ـ إن هذا التاريخ خلو من ذكر حادثة حريق المكتبة ويقول محمد مسعود فى كتابه « المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الإسكندرية »: إنه يظهر أن كتاب عمر بن الخطاب لم يرسل إلى عمرو بن العاص بل أرسل إلى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه لما فتحت أرض فارس ووجدت فيها كتب كثيرة كتب هذا القائد إلى عمر بن الخطاب ليستأذن فى شأنها وتنقيلها للمسلمين ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه أن اطرحوها فى الماء فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن كان ضلالا فقد كفانا الله ، فطرحوها فى الماء والنار ،ويرد الذين يؤيدون خبر حريق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر بن الخطاب بأن أبا الفرج الملطى ليس أول من ذكر خبر حريقها وأنه تقدمه مؤرخون مسلمون ذكروا ذلك .

وأول من ذكر خبر حريق مكتبة الإسكندرية الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى « كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » أو كتاب « الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار » كما ورد فى كتب أخرى . وقد زار البغدادى مصر فى أواخر القرن السادس وتوفى عام ٦٢٩ للهجرة ، وقد ذكر فى كتابه ما شاهده فى مصر من الآثار ، وألم بالكثير من أحوالها الاجتماعية ، وهذا ما قاله فى صدد المكتبة : ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور . ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها . وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده . وأنه دار العلم ، بناها الإسكندر حين بنى مدينته . وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو

ابن العاص بإذن عمر رضي الله عنه . ويأتي بعد عبد اللطيف البغدادي القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي المتوفى عام ٦٤٢ للهجرة ، وقد ولد بمدينة قفط بصعيد مصر ، وتفقه في العلم وقام ببيت المقدس ثم جاء حلب وتولى القضاء فيها على عهد الملك الظاهر وكان صدراً محتشماً جمع من الكتب مالا يوصف ، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار . ولم يكن يحب من الدنيا سواها . وله حكايات غريبة في غرامه بالمكتبة ، ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته للناصر صاحب حلب . ومن أهم مؤلفات القفطي كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) وهو معجم تاريخي للفلاسفة والأطباء والعلماء الطبيعيين وأصحاب الرياضيات واللغة من العرب وغيرهم ، مرتب على الحروف الأبجدية ، وقد روى في ترجمة يحيى النحوي وهو يوحنا الغراماطيق الذي ذكرناه وبعض الافرنج يسميه (يوحنا فيلوبونوس) قال : وعاش يحيى النحوي إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى ، فأكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر ففتن به . وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية ، التي لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوماً ، إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به فأمر بالإفراج عنه ، فقال له عمرو : وما الذي تحتاج إليه ؟ قال : (كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها) فقال له (ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟) فقال له يحيى : (إن بطولوماوس فيلادلفس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك في مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة أترى بقي في الأرض من كتب العلم مالم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل

وعند الروم . فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل ، فلم يزل على ذلك إلى أن مات . وهذه المكتبة لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا » فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكنني أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » ، وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة إليها فتقدم باعدامها » ، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها فذكروا أنها استنفدت في ستة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب » .. فعبد اللطيف البغدادي والقفطي إذن رويا خبر حريق مكتبة الإسكندرية قبل أبي الفرج الملطي ، وقد اختصر الأول وأسهب الثاني وكانا متعاصرين ، وجاء بعدهما أبو الفرج المتوفى عام ٦٨٤ للهجرة فإذا روايته لا تختلف كثيراً عن رواية القفطي بل لعله نقلها عنه ، ولا عجب فقد عاش كلاهما في إقليم واحد . وفي رواية أبي الفرج مواضع منقولة بالحرف عن القفطي وقد ذكر في تاريخه أنه كان في عهد الفتح الإسلامي بالاسكندرية شخص « اشتهر بين الإسلاميين بيحيي المعروف عندنا بغراماطيقوس أي النحوي . وكان إسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة ساوري ثم رجع عما يعتقد في التثليث . . . . . . » إلى أن قال : « وعاش يحيي الغراماطيق إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به ، وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لايفارقه ، ثم قال له يحيي يوما « إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به » ، فقال له عمرو : « وما الذي تحتاج إليه ؟ » قال : (كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية) فقال له عمرو : « هذا لا يمكنني أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » ، فكتب إلى عمر يعرفه قول يحيي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها » . فشرع

عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب . هذه هي النصوص التاريخية الأولى التي ورد فيها ذكر حريق مكتبة الإسكندرية . والغريب في أمرها أن كل مؤرخ من هؤلاء الثلاثة يذكرها بطريقة تقريرية لا تدع شكا في ذهن القارئ » . ولكن لا نعلم عن أي المصادر أخذ عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وكلاهما من رجال القرن السادس للهجرة ؟ فهذا ما نجهله ، لأن مؤرخي الفتوحات الإسلامية وهم عديدون لم يذكروا شيئاً من هذا القبيل . أتراهما نقلاها عن إشاعة كانت متداولة في مصر أيامئذ ؟ يقول جرجي زيدان : « والغالب أن المؤرخين ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه » أو لعل لذلك سبباً آخر.

فلم يكن في عهد فتح الإسكندرية مكتبة عامة كبيرة فيها من الكتب ما يكفي مواقد حمامات المدينة ستة شهور كاملة ، أضف إلى هذا أن بعض مؤرخي الإفرنج يقرر أن (يوحنافليوبونوس) أو (يحيي النحوي) توفي قبل أن فتح العرب الإسكندرية . وهذا الرأي يضعف رواية القفطي وأبي الفرج ، ويجعل بعض المؤرخين أمثال (بتلر) الإنجليزي يعتقدون أن رواية أبي الفرج خرافة خالية تماما من أي أساس تاريخي ، على أن هذه الرواية لاتزال متداولة ، وقد يزعم البعض أنه ربما أعيد في الإسكندرية جمع المكتبة بعد أن دمرها البطريرك تيوفيل ؛ وهذا على بعده عن المعقول قد يكون جائزاً . لذلك نضطر إلى القول إن مسألة حرق مكتبة الإسكندرية على ما يتبين من بعدها عن الحقيقة واضطراب الدلائل على صحتها بل قيام الدلائل جميعها على نفيها — إن هذه المسألة لاتزال قائمة تدخل بعض الشك إلى النفوس حتى تكتشف نصوص ووثائق تدل على نفيها أو إثباتها سواء كانت هذه النصوص خاصة بإعادة تأليف المكتبة بعد حرقها في القرن الثالث للمسيح، أو خاصة بالفتح العربي واردة على لسان مؤرخي هذا الفتح الذين شهدوه أو كتبوا تاريخه بعد ذلك بقليل .

اللغة العربية وآدابها فى مصر

بعد الفتح الإسلامى

اللغة العربية لغة الشعب العربى فى مصر :

صبغ الفتح الإسلامى مصر بصبغة عربية ظاهرة ، ازدادت على مر الأيام ظهورا بكثرة هجرة العرب إليها ، وبإقبال أهل مصر على تعلم اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، وبإسلام الكثير منهم ، وإقبالهم على القرآن الكريم حفظاً ودراسة وتفهما .

ولقد كانت اللغة اليونانية فى مصر أيام البطالسة هى السائدة بين دور الدراسة والعلم ، وإن كان الشعب المصرى وخاصة فى الجنوب ينفر منها ويحاربها ، وكان الولاة الرومانيون يتخذون اللغة اليونانية لغة رسمية لهم ، ولكن اللغة المصرية حافظت على منزلتها بين طبقات الشعب ، وبذلك كان هناك فى العصر الرومانى لغتان : لغة الشعب وهى اللغة المصرية ، ولغة الفاتحين الحاكين وهى اللغة اليونانية .

وإبان الحركات الوطنية فى مصر كانت كراهية المصريين لكل ما هو أجنبى عنهم فى ازدياد ، ومن ثم منع المصريون اللغة اليونانية من الأديرة والكنائس واستبدلوها باللغة القبطية[1] .

وكانت اللغة المستعملة فى دواوين مصر هى اليونانية كما ذكرنا ، أو القبطية كما ذكر الكندى[2] وسواه ، وفى عهد والى مصر الأمير عبد الله بن عبد الملك بن مروان حولت الدواوين إلى العربية ، وكان ذلك سنة ٨٧ هـ ، وبذلك أصبحت العربية هى لغة الدواوين الرسمية فى مصر .

ومن ثم أخذ المصريون يتعلمون اللغة العربية ، وروى أن القسيس بنيامين قد تعلم اللغة العربية وأتقنها ، وشرح بها الإنجيل ، وكان العرب يخرجون من رباطهم فى الربيع ويتصلون بالمصريين فى الريف ، مما كان من أسباب انتشار اللغة

---

(١) ٢ : ٨٨ تاريخ الأمة القبطية .

(٢) ٥٨ ولاة مصر للكندى .

العربية وذيوعها ، وقد كتب القديس شنودة مؤلفاته بالقبطية ، ثم كتبها بالعربية حتى يتسنى للأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية[١] ، وبعد القرن العاشر الميلادي كانت كتب الأقباط الدينية تكتب باللغة العربية ، وإن كانت اللغة القبطية ظلت معروفة إلى عهد المقريزى . وروى أن البطريق يوسف حينما حوكم عام ٨٥٠ م خاطب الجمهور باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب وفهم العرب منه كلامه .

ومهما كان فإن العربية أصبحت هي لغة الشعب والدولة ، وانزوت اللغة القبطية فأصبحت لا تستعمل إلا على ألسنة عدد قليل من الأقباط في الأديرة والكنائس ودور العبادة ، وقد زار الخليفة المأمون مصر عام ٢١٦ هـ وطاف بقراها ، وحدث الشعب المصرى في كل مكان .

انتشار الثقافة العربية فى مصر :

وقد شجع ولاة مصر العلماء على نشر الثقافة العربية فى كل مكان من أرض مصر ، وأنشئت المساجد ، وأصبحت حلقاتها دوراً للثقافة يتصدرها العلماء المسلمون لينشروا بين الشعب مبادىء الإسلام وأحكامه وشرائعه ، وكانت الفسطاط مركزاً للثقافة العربية الإسلامية ، وخاصة فى حلقات مسجدها الجامع « مسجد عمرو بن العاص » ، ثم أسست حلوان وصارت مقر الولاية ، وقصدها الأدباء والشعراء من كل فج .

ومن علماء مصر فى هذه الفترة الحافلة من تاريخها : أبو عبيدة بن عقبة المعافرى وقد أخذ عنه علم القراءات ورش عثمان بن سعيد المصرى (١١٠ — ١٩٧ هـ) ، ونافع المتوفى عام ١٢٠ هـ وقد بعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن[٢] وعبد الله بن عمرو بن العاص (٣٦ق هـ — ٧٧ هـ) ، وعبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث (١٢٤ — ٢٠٠ هـ) ، والليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى المصرى (٩٤ — ١٧٥ هـ) وهو أحد المجتهدين الأعلام وصاحب

---

(١) ص ٣١ فى الأدب المصرى — محمد كامل حسين .

(٢) ١ : ١١٩ حسن المحاضرة .

مذهب من المذاهب المشهورة[١] ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى (٩٦ إلى نحو ١٦٠ هـ) ، وقد زار مصر الإمام الشافعى عام ١٩٥ هـ وسنه خمس وأربعون سنة وأقام بها إلى أن مات عام ٢٠٤ هـ[٢] . ومن علماء مصر كذلك البويطى أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشى وهو تلميذ الشافعى وخليفته فى حلقته وحمل إلى بغداد وسجن بها فى فتنة خلق القرآن ، ومات فيها فى السجن عام ٢٣١ هـ[٣] ، وسعيد بن كثير المصرى قاضى الديار المصرية ، روى عن مالك والليث ، وكان فقيهاً نسابة أخباريا شاعراً كثير الاطلاع (١٤٦ – ٢٢٦ هـ) ، ويونس بن عبد الأعلى الإمام الفقيه المحدث المقرىء تلميذ الشافعى وورش (١٧٠ — ٢٦٤ هـ[٤]) والطحاوى المحدث وقد انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر (٢٣٩ — ٣٢١ هـ) ، وذو النون المصرى[٥] الفقيه الزاهد وقد توفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٠ م .

ويقول ذو النون — وهو ثوبان بن إبرهيم المصرى الاخميمى المتوفى عام ٢٤٥ هـ وهو مولى نوبى — فى التصوف الإلهى :

أموت وما ماتت إليك صبابتى
ولا قضيت من صدق حبك أوطارى

مناى المنى كل المنى أنت لى منى
وأنت الغنى كل الغنى عند إقتارى

وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى
وموضع شكواى ومكنون إضمارى

تحمل قلبى فيك مالا أبثه
وإن طال سقمى فيك أو طال إضرارى

وبين ضلوعى منك لو ملك قد بدا
ولم يبد باديه لأهلى ولا جارى

وبى منك فى الأحشاء داء مخامر

---

(١) ١٢٠ ج ١ المرجع .
(٢) ١٢١ : ١ المرجع .
(٣) ١٢٣ : ١ المرجع .
(٤) ٤١٨ : ٢ ابن خلكان .
(٥) الشعرانى ١ ج ٧٧ - ٧٩ .

فقد هد مني الركن وانبث أسراري

ألست دليل الركب إن هم تحيروا

ومنقذ من أشفى على جرف هار

أثرت الهدى للمهتدين ولم يكن

من النـــور فى أيديهم عشر معشار

أنالني بعفو منك أحيـــا بقربه

وغشني بيسر منك يطرد إعساري

ومن العلماء كذلك إسحاق بن الفرات تلميذ الليث بن سعد وتوفى عام ٢٠٤ ﻫ ، وقال عنه الشافعى : مارأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس ، وكذلك اسحاق بن بكر المتوفى عام ٢١٨ ﻫ ، وكان يجلس فى حلقة الليث ويفتى بقوله .

وقد كان النزاع بين أتباع المذهب المالكى وأتباع المذهب الشافعى شديدا ، وكانت السيادة من قبل لمذهب مالك ، فلما وفد الشافعى إلى مصر انتشر مذهبه مناوئا المذهب المالكى فى السيطرة الروحية على الشعب ، وكان الجدل بين أصحاب المذهبين شديدا ، وداعيا إلى تحرر العقل المصرى من إسار التقليد والجمود ، وكان أول قاض شافعى ولى قضاء مصر أبو زرعة محمد بن عثمان الثقفى الذى تولى القضاء عام ٢٨٤ ﻫ ، وكان أول قاض حنفى تولى قضاء مصر إسماعيل بن اليسع الكندى وذلك سنة ١٦٤ ﻫ وقد كرهه المصريون كرها شديدا ، وطلب الليث بن سعد من الخليفة عزله ، ومن قضاة مصر الأحناف بكار بن قتيبة (٢١٠ — ٢٧٠ ﻫ) وقد ولد بالبصرة ومات بمصر .

ومن أشهر علماء مصر كذلك الوليد بن محمد التميمى النحوى المشهور بولاد ، وقد ولد بالبصرة وتتلمذ على الخليل ومات بمصر سنة ٢٦٣ﻫ ، ومحمد بن ولاد التميمى النحوى المتوفى سنة ٢٩٨ ﻫ عن خمسين عاما ، وأحمد بن جعفر الدينورى النحوى المتوفى عام ٢٨٩ ﻫ ، وأبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوى المتوفى ٣٣٧ ﻫ

وكان علماء مصر يرحلون إلى الحجاز والعراق والشام فى طلب العلم ، كما كان علماء العالم الإسلامى يفدون على مصر ويستمعون إلى محاضرات علمائها ، وممن قدم الى مصر ابن هشام صاحب السيرة الذى توفى بمصر عام ٢١٨ ﻫ ، وكذلك أبو العباس الناشىء الأكبر ، ومحمد بن موسى الواسطى اللغوى المفسر وقد توفى بمصر سنة ٣٢٠ﻫ ، ويرى صاحب معجم الأدباء أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئا من شعر الطرماح

ابن حكيم حتى قدم ابن جرير الطبرى مصر فسأله على بن سراج المصرى أن يملى شعر الطرماح ففعل وأخذ يمليه ويفسر غريبه(١)

ومن العلوم التى ألف فيها علماء مصر فى ذلك العصر التاريخ ، وساعد على ذلك وجود عدد من الإخباريين بمصر منهم : محمد بن اسحاق صاحب السيرة ، وعبد الملك بن هشام راويه ، ومحمد بن أبى الليث ، كما وفد عليها ابن جرير الطبرى صاحب التاريخ المشهور ، وكذلك المسعودى ، وقد نبغ فى التاريخ : ابن عبد الحكم المصرى مؤلف كتاب فتوح مصر ، وهو ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (١٦٥ - ٢٥٦هـ) ، ووالده عبد الله بن عبد الحكم (١٥٥-٢١٤هـ) كان رئيسا للمالكية بمصر ؛ ومن مؤرخى مصر الكندى وابن يونس وعمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة ٢٨٩ هـ ، وابن الداية صاحب كتاب المكافأة .

الأدب العربى فى مصر :

كما انتقل العلماء إلى مصر ، منذ بدء الفتح الإسلامى ، حتى نشأ علماء إسلاميون مصريون فى شتى ألوان الثقافة ، كذلك انتقل إليها شعراء من الجزيرة العربية ، ومن أوائلهم أبو العيال الخفاجى الذى هاجر(٢) هو وابن عمه بدر بن عامر إلى مصر فى خلافة عمر وأقاما بها ، وكان أبو العيال شاعراً فصيحاً مقدما ، أدرك الجاهلية والإسلام ، وعد من المخضرمين وعمر إلى خلافة معاوية وتوفى نحو عام ٤٦ هـ فى مصر ، وسمى أبا العيال لقوله :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا … من المال يطرح نفسه كل مطرح

ومن الشعراء الذين هاجروا إلى مصر نصيب بن رباح الشاعر الأموى المشهور حيث قدم على عبد العزيز بن مروان والى مصر ومدحه فى قصره فى حلوان ، وكذلك أيمن بن خريم الذى مدح عبد العزيز بن مروان كذلك ، وجميل بن معمر العذرى ، وكثير ، وابن قيس الرقيات ، وسواهم .

وهكذا انتقل الأدب العربى إلى مصر ، لأن الأدب ظل للعربى يلازمه أينما كان ، والعربى يصدح فى كل مكان حل فيه شعرا موزونا ، أو نثراً مسجوعا .

---

(١) ٦ : ٤٣٣ معجم الأدباء .

(٢) راجع ترجمته فى الأغانى ص ١٦٦ — ١٦٨ : ٢٠ .

النثر الأدبي في ظل الولاة المسلمين

النثر قرين الشعر ، وهو وسيلة العربي إلى البيان والبلاغة ، وأداته في الحجاج والمفاخرة ، وحسبه عند الجدال والحجاج والمنافرة والمناظرة ، ومن ثم وجدنا النثر الأدبي أول ألوان الأدب في مصر ظهورا فظهر في رسائل الولاة وبلاغاتهم ، وفي حجاج العرب ومفاخراتهم في مجالس الولاة ، وعلى ألسنة القصاص والمؤدبين والبلغاء والمؤلفين، بل كان لبعض الولاة كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل[١] ، وقد نبه شأن النثر وعرفت منزلته ، وشجع عليه الولاة والأشراف .

وأول نثر مأثور في هذا العهد البعيد هو رسالة عمرو[٢] بن العاص التي بعث بها إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف فيها أرض مصر بعد الفتح وصفاً دقيقاً ، وجاء فيها : « ورد كتاب أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، يسألني عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته ، ونكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته ، وطما في درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، ويرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ، فإذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينا مصر — يا أمير المؤمنين —

(١) ٣٦٨ : ٣ المقريزي .
(٢) ٣٢ : ١ النجوم الزاهرة .

لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخلاق لما يشاء . والذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

والرسالة بأسلوبها المسجوع وصنعتها الفنية المعقدة ، وبما تشمل عليه من خصائص بيانية ، قد تكون فى رأى العقل أقرب إلى الوضع منها إلى الحقيقة .

وبعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر برسالة[1] دافع فيها عن نفسه ونفى عنه الخيانة ، وجاء فيها : من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين ، يذكر فيه ما فشا لى ، وإنه يعرفنى قبل ذلك لا مال ، وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى بأرض السعر فيه رخيص ، وإنى أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله . وفى رزق أمير المؤمنين سعة ، والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك ، ولعمرى إن عندك من تذم معيشته ولا تذم له ، فأنى كان ذلك ؟ ولم يفتح قفلك ، ولم تشركك فى عملك.

ولا شك أن رسائل عمرو هذه كانت أول ما ظهر من صور الأدب العربى فى مصر .

وهناك رسائل أخرى كثيرة تبودلت بين الخليفة عمر وواليه عمرو بن العاص لا داعى لذكرها فى هذا المقام[2].

صور أدبية

— ١ —

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : سلام عليك فإنى أحمد إليك الله

(١) ١ : ٢٦ العقد الفريد .
(٢) راجع ٦٤ : ١ حسن المحاضرة .

الذى لا إله إلا هو ـ أما بعد : فقد عجبت من كثرة كتبي إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ ببيان الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هـذا فاحمل الخراج وإنما هو فىء المسلمين ، وعندى من تعلم قوم محصورون ، والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد: فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أعند عن الحق ، وأنكب عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم . ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم ، فنصير إلى مالا غنى بهم عنه ، والسلام .

— ٢ —

ولما ولى على رضى الله عنه الأشتر النخعى مصر كتب إليه رسالة مطولة كانت دستوراً عظيما للحكم ، وجاء من هذه الرسالة :

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى إصلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا .. وهى رسالة طويلة ، وقد قتل الأشتر قبل وصوله إلى مصر . وتعد من النثر الإسلامى ، وإن كانت لا صلة لها بالنثر فى مصر .

— ٣ —

ولما ولى المأمون عبد الله بن طاهر ولاية مصر ذهب إليها فضرب على أيدى الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكماً ؛ وكان نحو الخمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا عن الأندلس بعد وقعة الربض فى سنة ٢٠٢ هـ ، فاتجهوا إلى الإسكندرية فملكوها مدة ، فصالحهم عبد الله بن طاهر والى مصر على التخلى عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول حيث شاءوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى .

وكان عبد الله بن طاهر كما قال عنه أحمد بن يوسف موفقا فى الشدة واللين فى مواضعهما . ولا يعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوه ، ولقل ما رأينا ابن شرف لمن يأتى بيده متكلا على ما قدمت له أبوته :

قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل علينا (فى مصر) فتى حدث من الشرق ـ يعنى عبدالله بن طاهر ـ والدنيا عنه مفتونة ، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس فى بلاء ، فأصلح الدنيا ، وأمن البرىء ، وأخاف السقيم ، واستوثقت له الرعية بالطاعة . وقال المأمون لبعض جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فقالوا بما فتح الله عليهم ، وبعضهم مدحه وقرظه ، فقال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر ، دخل مصر وهى كالعروس الكاملة ، فيها خراجها ، وبها أموالها جمة ، ثم خرج عنها ، فلو شاء الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لى عليه عين ترعاه ، فكتب إلى إنه عرضت عليه أموال لو عرضت على أو بعضها لشرهت إليها نفسى ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التى قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس ، فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى فى الإسلام ، فالحمد لله الذى جعله غرس يدى ، وخريج نعمتى .

— ٤ —

ولما زار المأمون مصر ومر بقرية وطاء النخل ، أو طنامل كما تسمى الآن وهى من أعمال مركز أجا من مديرية الدقهلية ، خرجت إليه صاحبة القرية وهى امرأة قبطية ، وسألته أن يقبل قراها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الأعداء ، وبكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بجيشه ورجاله ، وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه ، وفى الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، وفى كل طبق كيس من ذهب ، فاستحسن ذلك وأمر بإعادته ، فقالت : لا والله لا أفعل ، يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا ، فقال : إن فى بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت : يا أمير المؤمنين هذا ـ وأشارت إلى الذهب ـ من هذا ـ وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ـ ثم من عدلك يا أمير المؤمنين .

فهل كانت القبطية هذه تتحدث مع الخليفة بالعربية ؟ هذا هو الظاهر من الرواية .

* * *

ومهما كان فإن النثر الأدبي لم يتضح إلا بعد عصر الولاة الإسلاميين ، ففي عهد الخلفاء الراشدين وعصر الولاة الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن كشأن عاصمة الخلافة ، وكان الشعراء والكتاب الذين يبين نبوغهم يذهبون إلى دار الخلافة أو يحملون إليها ، ولم تكن سوق الأدب قد راجت رواجا كبيراً إبان ذلك العهد ، لأن الاهتمام كان موجها إلى الدراسات الدينية الخالصة ، دون الدراسات الأدبية من النثر والشعر[١] .

---

(١) راجع صـ ١١٦ في الأدب المصري ـ محمد كامل حسين .

الشعر والشعراء فى عصر الولاة

— ١ —

انتقل الشعر العربى مع العرب الفاتحين ، وغرد الشعراء فى غياض مصر ورياضها ، وعلى شواطىء نيلها ، بالألحان العذاب ، والقصائد البليغة ، والمونق الجيد من النظم .

وقد رأينا أبا العيال الشاعر ينتقل إلى مصر فى عهد عمرو وينظم بها القصائد ويقيم فيها إلى أن أدركته الوفاة .

ولأبى المصعب البلوى قصيدة هجا بها أشراف مصر ، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وكان يستنشدها[1] ، وقد هجا فيها عرب مصر بأنهم ليس لهم شرف ولا مجد .

وقد مدح عابد بن هشام الأزدى والى مصر مسلمة بن مخلد عام ٥٣ هـ بقصيدة طويلة[2] ، وكان بعض الولاة يحب الشعر ويرويه ، أو ينظمه ، وكان عقبة ابن عامر والى مصر شاعراً[3] .

وكان عبد العزيز بن مروان الذى تولى ولاية مصر (٦٥ — ٨٦ هـ) من أكثر الولاة تشجيعاً للأدباء والشعراء ، وكثيراً ما كان الشعراء يقصدونه من الحجاز والشام والعراق ، فينالون رفده وعطاءه .

وفادة نصيب على عبد العزيز بن مروان :

كان نصيب بن رباح من مشهورى شعراء الدولة الأموية ، وتوفى عام ١٠٠ هـ وكان شاعراً فحلا فصيحاً مقدماً فى النسيب والمديح ، ولم يكن له حظ فى الهجاء وكان عفيفاً ، وكان يقال إنه لم ينسب قط إلا بامرأته ، وكان أهل المدينة يدعونه النصيب تفخيماً له ويروون شعره ، وكان كبير النفس مقدما عند الملوك يجيد مديحهم

---

(١) ١٢٤ فتوح مصر لابن عبد الحكم .

(٢) خطط المقريزى حـ ٤ صـ ٧ .

(٣) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧ .

ومراثيهم ، وفى وفادته على عبد العزيز بن مروان يقول نصيب[١] : قلت الشعر وأنا شاب فأعجبنى قولى ، فجعلت آتى مشيخة من بنى ضمرة ومشيخة [٢] من خزاعة فأنشدهم القصيدة من شعرى ثم أنسبها إلى بعض شعرائهم الماضين ، فيقولون: أحسن والله ! هكذا يكون الكلام ، وهكذا يكون الشعر ، فلما سمعت ذلك منهم علمت أنى محسن ، فأزمعوا وأزمعت الخروج إلى عبد العزيز بن مروان ، وهو يومئذ بمصر ؛ فقلت لأختى أمامة ، وكانت عاقلة جلدة : أى أخية إنى قد قلت شعراً ، وأنا أريد عبد العزيز بن مروان وأرجو أن يعتقك الله به وأمك وكل مرقوق[٣] من أهل قرابتى .

قالت إنا لله وإنا إليه راجعون ! يا ابن أم ، أتجمع عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة[٤] للناس ! قلت : فاسمعى ، فأنشدتها فسمعت ، فقالت بأبى أنت أحسنت والله ! فى هذا رجاء عظيم ، فاخرج على بركة الله .

فخرجت على قعود لى حتى قدمت المدينة فوجدت بها الفرزدق فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرجت إليه فقلت : أنشده وأستنشده وأعرض عليه شعرى ، فأنشدته فقال لى : ويلك ! أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك ! قلت نعم قال فلست فى شىء ، إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل ، فانفضخت[٥] عرقا .

فحصبنى رجل من قريش كان قريباً من الفرزدق وقد سمع إنشادى وسمع ما قال لى الفرزدق ، فأومأ إلى فقمت إليه فقال ويحك ! أهذا شعرك الذى أنشدته الفرزدق قلت نعم فقال : فقد والله أصبت ولئن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك ، فإنا لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسرنك .

فسرنى قوله ، وعلمت أنه قد صدقنى فيما قال فاعتزمت على المضى فمضيت ! .

فقدمت مصر وبها عبد العزيز بن مروان فحضرت بابه مع الناس فنحيت عن مجلس الوجوه ، فكنت وراءهم ، ورأيت رجلا جاء على بغلة حسن الشارة سهل المدخل يؤذن له إذا جاء ، فلما انصرف انصرفت معه أماشى بغلته فلما رآنى قال ألك حاجة قلت نعم ! أنا رجل من أهل الحجاز شاعر وقد مدحت الأمير وخرجت إليه

---

(١) الأغانى ص ٣٢٥ ج ١ (٢) المشيخة الشيوخ .
(٣) رق : صار فى رق (٤) الضحكة : من يضحك الناس منه .
(٥) انفضخت عرقا : تدفقت عرقا .

راجياً معروفه ، وقد ازدريت فطردت من الباب ونحيت عن الوجوه ، قال فأنشدنى فأنشدته فأعجبه شعرى ، فقال ويحك ! أهذا شعرك ؟ فإياك أن تنتحل ! فان الأمير راوية عالم بالشعر وعنده رواة فلا تفضحنى ونفسك ، فقلت والله ماهو إلا شعرى فقال : ويحك ! فقل أبياتاً تذكر فيها حوف[1] مصر وفضلها على غيرها ، والقنى بها غداً فغدوت عليه من غد فأنشدته قولى :

سرى الهم تثنينى إليك طلائعه ... بمصر وبالحوف اعترتنى روائعه
وبات وسادى ساعد قل لحمه ... عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه[2]

قال : وذكرت فيها الغيث فقلت :

وكم دون ذاك العارض البارق الذى ... له اشتقت من وجه أسيل مدامعه
تمشى به أفناء[3] بكر ومذحج ... وأفناء عمرو وهو خصب مرابعه
فكل مسيل من تهامه طيب ... دميث الربا تسقى البحار دوافعه[4]
أعنى على برق أريك وميضه ... تضىء دجنات الظلام لوامعه
إذا اكتحلت عينا محب بضوئه ... تجافت به حتى الصباح مضاجعه

فقال : أنت والله شاعر ! أحضر بالباب حتى اذكرك للأمير :

قال : فجلست على الباب ودخل ، فما ظننت أنه أمكنه أن يذكرنى حتى دعا بى ، فدخلت على عبد العزيز ، فسلمت فصعد فى بصره وصوب ، ثم قال : أنت شاعر ؟ ويلك ! قلت : نعم أيها الأمير ! قال : فأنشدنى. فأنشدته فأعجبه شعرى. وجاء الحاجب فقال : أيها الأمير هذا أيمن بن خريم الأسدى بالباب : قال : ائذن له ، فدخل فاطمأن له ، فقال له الأمير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد فنظر إلى ، فقال : والله لنعم الغادى فى أثر المخاض[5] ، هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار : فقال : فإن له شعراً وفصاحة ! فقال لى أيمن : أتقول الشعر ؟ قلت نعم ، قال : قيمته ثلاثون ديناراً ، قال : يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ؟ قال : لكونه أحمق أيها الأمير ، ما لهذا وللشعر ؟ مثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ؟ فقال

---

(١) الحوف بمصر حوفان الشرقى والغربى ، وهما متصلان .
(٢) الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف .
(٣) أفناء بكر ومذحج : أخلاط الناس . (٤) الدوافع : مسايل الماء .
(٥) المخاض الحوامل من النوق ، وهو يريد : لنعم هذا العبد يرعى الابل .

أنشده يانصيب فأنشدته .

فقال له عبد العزيز . كيف تسمع يا أيمن ، فقال هو أشعر أهل جلدته ، قال : هو والله أشعر منك ، قال : أمنى أيها الأمير ؟ قال : إى والله منك ، قال : والله أيها الأمير إنك لملول طرف ، قال : كذبت والله ما أنا كذلك ، ولو كنت كذلك ما صبرت عليك تنازعنى التحية ، وتواكلنى الطعام ، وتتكىء على وسائدى وفرشى ، وبك مابك — وكان بأيمن بياض .

قال : ائذن لى أن أخرج إلى بشر بالعراق ، واحملنى على البريد ، قال : قد أذنت لك ، وأمر به فحمل على البريد إلى بشر ، فقال فيه يمدحه ويعرض بأخيه عبد العزيز :

ركبت من المقطم فى جمادى — إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف — رأى حقا عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر — عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرا يقومهم ويحدث — لأهل الزيغ إسلاما جديدا
كأن التاج تاج بنى هرقل — جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر — إذ الألوان خالفت الخدودا

فأعطاه بشر مائة ألف درهم .

ولنصيب فى عبد العزيز بن مروان[1] :

لعبد العزيز على قومه — وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألين أبوابهم — ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين — من الأم بالإبنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلين — أندى من الليلة الماطرة
فنك العطاء ومنى الثناء — بكل محبرة سائرة

ولما مات الأمير عبد العزيز رثاه نصيب بقصائد مؤثرة .

وفادة أيمن بن خريم على عبد العزيز :

وقد اتصل أيمن بن خريم الأسدى بالأمير عبد العزيز وزاره فى حلوان ،

---

(١) ١ : ١٢٩ الأغانى — (٢) ١ : ١٢٩ المرجع .

وأقام عنده ومدحه ، فلما قدم نصيب على عبد العزيز قال عبد العزيز : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ؟ وأشار الى نصيب ، فنظر أيمن إليه وقال : لنعم الغادى فى إثر المخاض ، هذا يا أمير المؤمنين أرى ثمنه مائة دينار ، قال : فإن له شعراً وفصاحة ، فسأل أيمن نصيبا : أتقول الشعر ؟ فأجابه نصيب : نعم ، فقال : فثمنه ثلاثون ديناراً ، فقال الأمير : يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ؟ قال : لكونه أحمق أيها الأمير ، مالهذا وللشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ، فأمر عبد العزيز نصيبا أن ينشده فأنشده ، فقال عبد العزيز : كيف تسمع يا أيمن ؟ قال : شاعر أسود هو أشعر جلدته ، فقال الأمير هو والله أشعر منك ، وكرر ذلك ، فغضب أيمن وقال : والله إنك أيها الأمير لملوف طرف[1] .

شعراء آخرون يفدون على عبد العزيز :

ومن هؤلاء عبد الله بن الحجاج[2] ، وكثير عزة[3] وقد هاجر إلى مصر بعد أن هاجرت إليها محبوبته عزة مع قومها عام الجلاء ، فتبعهم كثير على راحلته ، ويروى أنه وصل مصر والناس منصرفون من جنازة عزة وقد مدح كثير عبد العزيز وأطال فيه المديح ، ولعل رحلته إلى مصر إنما كانت لنيل عطاء عبد العزيز وجدواه ، وكذلك قدم مصر جميل بن معمر العذرى الشاعر الأموى المشهور ، واتصل بعبد العزيز ومدحه فأحسن جائزته ومات بمصر سنة ٨٢ هـ . ويقول زكى مبارك فى كتابه « العشاق الثلاثة[4] » :

كان من ضروب التشابه فى الحظوظ أن يزور كثير مصر كما زارها جميل ، مع الاختلاف فى غرض الزيارة عند الشاعرين ، فقد زار جميل مصر ليستعين بعبد العزيز بن مروان على محنته فى هوى بثينة ، وكانت المصاعب تثور فى وجهه من كل جانب ، فوعده عبد العزيز بالحماية ، ومنحه بيتاً يقيم فيه ، ولكنه لم يقم إلا قليلا حتى مات . أما كثير فزار مصر لينتفع بصلات عبد العزيز بن مروان وقد أطال فيه المديح . والقصة التى فرضت أن يموت جميل بمصر وهو يهتف باسم

---

(١) راجع ٧٤ : ١ حسن المحاضرة . (٢) ١٢ ج ٢٩ الأغانى
(٣) ٢ : ١٦٩ زهره الآداب ، ١ ص ٣٢٢ حسن المحاضرة .
(٤) ص ٦٦ و ٣٦ .

بثينة أرادت أن تنقل كثيرا من مصر إلى المدينة شوقا إلى عزة ، ولم تكتف بذلك بل جلت كثيرا يصادف عزة وهي قادمة إلى مصر لتتمتع النظر بقوامه القصير النحيف! وتقول القصة إنهما تعاتبا في الطريق ثم افترقا متغاضبين ، هو إلى المدينة وهي إلى مصر ، ثم عز عليه أن يفارق بلداً فيه هواه فرجع إلى مصر ولكنه لسوء البخت وجد الناس ينصرفون من جنازة عزة ، فأتى قبرها وأناخ راحلته عنده ومكث ثم رحل وهو ينشد :

أقول ونضوى قد ثوى عند قبرها   عليك سلام الله والعين تسفح
وقد كنت أبكى من فراقك حية   فأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزح

وكذلك ظفر ثرى مصر برفاتين عزيزين : رفات عزة ورفات جميل . والعشق نفسه قصة ، فكيف تسلم أخباره من زخرف الخيال ؟ ! فإن سأل القارىء : ومتى مات كثير وأين مات ؟ فإنا نجيب بأنه مات سنة خمس ومائة بالمدينة .

وممن زار عبد العزيز بن مروان في مصر عبيد الله بن قيس الرقيات ، وله في ذكر مدينة حلوان التي بناها عبد العزيز واتخذها مقراً لولايته :

سقيا لحلوان ذى الكروم وما   صنف من تينه ومن عنبه

ومطلع هذه القصيدة :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه   وميله في الهوى وفي لعبه[1]
أهلا وسهلا بمن أتاك من الرقـ   ـة يسرى إليك في سخبه[2]
بانت بحلوان تبتغيك كما   أرسل أهل الوليد في طلبه[3]
بدلها الحب فاشتفيت كما   تشفى دماء الملوك من كلبه[4]
سقيا لحلوان ذى الكروم وما   صنف من تينه ، ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من الـ   ـبرنى ، غلب يهتز في شربه[5]

---

(١) يصحو : يفيق . الطرب : الاهتزاز فرحا . يصف فؤاده بالعشق والهيام.

(٢) الرقة : بلدة على الفرات . وأخرى غربي بغداد ، وغيرهما . السخب : جمع سخاب قلادة من قرنفل وغيره .

(٣) حلوان مصر هي المراد هنا . تبتغيك : تطلبك . الوليد : الصبي .

(٤) الكلب : داء عضة الكلب يشفى بدماء الملوك في زعمهم .

(٥) مواقير : جمع موقر : النخلة الثقيلة الحمل ، البرنى : التمر . غلب : جمع غلباء الحديقة المتكاثفة . الشرب حوض صغير حول النخلة يسع ريها .

أسود سكانه الحمام فما ... تنفك غربانه على رطبه
لتهنه مصر والعراق وما ... بالشام من بزه ومن ذهبه[١]
فيهم بهاء إذا أتيتهم ... لا نائل يغيض من حلبه[٢]
أثن على الطيب ابن ليلى إذا ... أثنيت في دينه وفي حسبه[٣]
من يصدق الوعد والقتال ويخـ ... ـشى الله في حلمه وفي غضبه[٤]
ومن تفيض الندى يداه ومن ... يلتهب الحمد عند منتهبه[٥]
أمك بيضاء من قضاعة في الـ ... ـبيت الذى يستظل في طنبه[٦]
وأنت في الجوهر المهذب من ... عبد مناف، يداك في سببه[٧]
يخلفك البيض من بنيك كما ... يخلف عود النضار في شعبه[٨]
ليسوا من الخروع الضعيف كما ... جلت صقور الصليب من حدبه[٩]
نحن على بيعة الرسول وما ... أعطى من عجمه ومن عربه[١٠]
بها نصرنا على العدو ونر ... عى الغيب في نأيه وفي قربه[١١]
نأتى إذا ما دعوت في الحلق الـ ... ـماذى أبدانه وفي جببه[١٢]

---

(١) تهنه : تسره . البز : الثياب من الكتان والقطن .

(٢) بهاء : حسن وظرف . نائل: عطاء . يغيض : ينقص. حلب: لبن محلوب

(٣) ابن ليلى : الممدوح . الحسب : الشرف .

(٤) يصدق القتال : يظهر بسالة فيه . (٥) يلتهب الحمد : يسبق إليه .

(٦) قبيلة عظيمة تنسب إلى قحطان أحيانا وإلى عدنان أخرى . الطنب: حبل يشد به سرادق البيت ، والمراد يحتمى به .

(٧) الجوهر : الطبيعة والجبلة . عبد مناف أصل بنى أمية . السبب : الحبل

(٨) النضار : الأثل أو الطويل المستقيم الغصون . الشعب : الغصون .

(٩) الخروع : نبت معروف يعظم قرب المياه . الصليب: جبل . حدبه: أعلاه جلت : نظرت — أى ليسوا مستضعفين فيستذلهم قوى . بل هم كالجبل تنظر من قته الطيور . (١٠) ما أعطى : أى العهد الذى عاهده جميع الناس عليه .

(١١) نرعى الغيب : نحفظ العهد .

(١٢) الحلق : جمع حلقة وهى للدرع . الماذى : الدرع اللينة أو السلاح كله . الجبب جمع جبة : وهى من السنان ما دخل فيه الرمح .

تهـــدى رعالا أمام أرعن لا يعرف وجه البلقاء فى لجبه[١]
فهم كريب يقود حـــير لا يعدل أهل القضاء عن خطبه[٢]
وعارض كالجبـال من مضر الـ حمراء يشق ذا العر من جربه[٣]
وابنا نزار إذا هما اجتمعا لم يتركا هاربا على هربه[٤]

ولعبيد الله الرقيات فى عبد العزيز شعر كثير .. وكان الفرزدق عازما على زيارة عبد العزيز فى مصر لولا أن جاءه نعى الأمير عام ٨٦ هـ ، وقد رثى عبد العزيز كثير من الشعراء ، منهم الشاعر ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد ، ويقول فى رثائه ورثاء ابنه الأصبغ الذى توفى قبل والده بشهرين ، من مرثيته[٥] :

فما مصر لى بعـــد عبد العزيز والإصبـغ الخـــير بالمونقة
سقى الله قبريهما والصـدى وما جاورا ديمـة مغدقـــة

وشخصية الأمير عبد العزيز بن مروان جديرة بالدراسة والبحث .

ومن الأمراء الذين شجعوا الأدب فى مصر عبد الله بن عبـد الملك بن مروان وقد ولى مصر بعد عبد العزيز سـنة ٨٦ هـ ، وفد عليه الشاعر الحزين الكنانى ومدحه بقصيدة طويلة منها[٦]:

فى كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع فى عرنينه شمم

وفى الحرب التى وقعت حول الفسطاط عام ٦٥هـ بين أنصار الزبيريين وجيوش أمية وانتهت بهزيمة الزبيريين كان الشعراء يقولون الشعر مثل : عبدالرحمن بن جحدم ، وابن أبى زمزمة ، وعبد الرحمن بن الحكم ، وزياد بن قائد اللخمى ، والمسور الخولانى ، ومرسل بن حمير ، وعيسى بن شافع ، وسواهم من الشعراء .

وفى عهد الولاة العباسيين كان الشعر العربى قد نضج فى مصر : لزيادة نصيب

---

(١) رعال جمع رعلة : القطعة من الخيل أو البقر . الأرعن : الجيش الكثيف. البلقاء : بلد الشام . والمراد : أننا نجيب دعوتك لنا بجيش ضخم يساعدك .
(٢) كريب : يطلق على جماعة من الأشراف والعلماء والمقصود واحد بعينه
(٣) العارض : الجيش . مضر الحمراء : هو مضر بن نزار أبو قبيلة عدنانية تعرف به .. العر : الجرب والمراد الزيغ .
(٤) ابنا نزار ربيعة ومضر . (٥) ص ٥٦ الكندى .
(٦) ١٤ : ٧٦ الأغانى .

مصر من الثقافة الأدبية والعربية ، ولكثرة ألوان الخلاف المتعددة فى مصر ، وتعدد العصبيات ولعناية الناس باللغة والأدب والشعر ، ومن العلماء باللغة والأدب فى هذا العهد : الليث بن سعد[١] ، والمحدث ابن الوزير التجيبي[٢] ، وعبد الحميد ابن الوليد المصرى[٣]، وسعيد بن عفير المصرى ، والشاعر الحسين بن عبدالسلام المعروف بالجمل الأكبر وكان تلميذ الشافعى وأحد رواته ، والمعلى الطائى ، وسواهم . ومن الشعراء كذلك فى هذا العهد ، يحيى الخولانى ، وأنيس بن دارم . وقد تحدث شاعر مصر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر فى شعره عن محنة خلق القرآن التى ابتلى بها العلماء فى عهده أيام خلافة المأمون والمعتصم ، وله فى ذلك قصائد طوال وكان للمعتزلة فى مصر حلقة زعيمها ابن صبيح كما يقول الكندى[٤]، وكان يدافع عن خلق القرآن . وكان من رؤوس المعتزلة فى مصر أبو عمران موسى بن رباح الفارسى المتكلم ، والمعتزلة فرقة ـ نشأت فى العراق وكان زعيمهم واصل بن عطاء الذى ولد فى المدينة عام ٨٠هـ ونشأ بالبصرة ولازم مجلس الحسن البصرى ، وتتلمذ عليه ، ولكنه خالف أستاذه الحسن متأثراً بمذاهب القدرية والخوارج والمرجئة ، ويروى أنه أتى الحسن البصرى[٥] فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج بها عن الملة، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ،فقكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجب قال واصل ابن عطاء : لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة فى المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة ، وقد سمى اتباع واصل بالواصلية ، ومذهبهم واعتزالهم يدور على قواعد : هى : نفى الصفات ، والقول بالقدر، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وخلود مرتكب الكبيرة فى النار إذ ليس فى الآخرة إلا الفريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير

---

(١) حسن المحاضرة ١ : ١٢٠ .

(٢) ١ : ١٥٩ المرجع (٣) ١ : ٢٢٤ المرجع .

(٤) ص ٤٥٢ القضاة للكندى . (٥) ١ : ٦٠ الشهرستانى .

ولكنه يخفف عنه العذاب ، ورأى واصل أن الفرق الإسلامية المتخالفة إحداها مخطئة لا بعينها .

ويقول : إن أصحاب الجمل (عائشة وطلحة والزبير وعليا) فريق منهم مخطىء لا بعينه .

وكذلك عثمان وخاذلوه فريق منهم مخطىء لا بعينه ، ولهذا لا يجوز عنده قبول شهادة على وطلحة والزبير ، وجوز أن يكون عثمان وعلى على الخطأ . وكان لواصل أتباع أخذوا عنه مذهب الاعتزال ، وقاموا بالدعاية له والذود عنه ، وتوفى واصل سنة ١٣٠ هـ فقام على زعامة المعتزلة بعده عمرو بن عبيد المتوفى عام ١٤٤ هـ.

وآراء واصل هى الأسس الأولى التى بنى عليها مذهب المعتزلة ، وتولى رياسة المعتزلة أبو الهذيل العلاف وهو شيخ المعتزلة والمقدم من رجالها والمقرر لمذهبها والمدافع عنها ، وأول من خلط الاعتزال بالفلسفة ، ولد بالبصرة سنة ١٣٥ ؛ وتلقى الاعتزال عن عثمان الطويل وغيره فشب واسع الأطلاع أديبا مناظراً ؛ وقد اتصل بالفلسفة اليونانية فقرأ فيها ونظر فى كتبها حتى نبغ فيها ووقف على مسائلها وعنى بفلسفة أرسطو فألم بها ؛ ثم أدخل فى مذهب الاعتزال بعض آرائها وعول فى المناظرة على الأدلة المنطقية والآراء الفلسفية ـ وكان له آراء خاصة يتميز بها على سائر المعتزلة وسمى أتباعه فيها بالهذيلية ، وتوفى أبو الهذيل العلاف عام ٢٣٥ هـ ومن أتباعه النظام المتوفى عام ٢٢١ هـ وأحد زعماء المعتزلة .

وفى عهد الولاة العباسيين نجـد الشعر العربى فى مصر ينمو وينضج وتتعدد أغراضه ، وتتسع فنونه ، ويستعمل فى المدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف وسوى ذلك من عديد الأغراض ، ومن الشعراء كذلك يحيى بن الفضيل ، واسحاق ابن معاذ بن مجاهد ، وللشاعر المعلى الطائى قصيدة فى رثاء جارية له مطلعها (١):

يا موت كيف سلبتنى وصفا ، قدمتها وتركتنى خلفا
هلا ذهبت بنا معا فلقد ظفرت يداك فسمتنى خلفا

وهى طويلة رائعة .

شعراء زاروا مصر فى هذا العهد :

١ ــ من هؤلاء الشعراء أبو نواس الشاعر المشهور (١٤٥ — ١٩٧ هـ)

---

(١) ٢ : ١٧٩ العقد الفريد ،

وقد مدح الخصيب أمير خراجها بقصائد مشهورة ، منها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

ويروى أن الخصيب هو الذى استزار أبا نواس وطلب مديحه ، وكان الخصيب أميراً على خراج مصر نحو عام ١٩٠ هـ ، ولكن أبا نواس عاد فغضب من الخصيب وهجاه هجاء مريرا ، وقد خرج أبو نواس من مصر بعد أن أقام فيها عاما .

٣ - وممن وفد على مصر دعبل الخزاعى[1].

٣ — وأبو تمام (١٩٠ — ١٣١ هـ) الذى تخرج فى الشعر على حلقات العلماء فى مسجد عمرو بن العاص ، ثم لما ذاعت شهرته فى الشعر ذهب إلى بغداد . وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ، أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان ، وخلد شعرهم الزمان ، وثانيهم البحترى ، وثالثهم المتنبى .

وأبو تمام عربى طائى ، ولد سنة ١٩٠ هـ بقرية جاسم شمالى حوران من أعمال دمشق ، وعلى بعد ثمانية أميال منها ، من أبوين فقيرين . وهاجر صغيراً إلى مصر فلبث فيها من عمره سنتين يشتغل بمهن حقيرة . ثم كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط وكان طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث ، مما حبب إليه العلم والأدب ؟ فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب حتى قيل ، إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقطعات والقصائد .

ولما أينعت ثمار أدبه ، واستحصف شعره ، عرف أن مصر لا تنهض بإذاعة فضله ، وتحقيق أمله ، فعاد إلى الشام ، ولبث فيها مدة يمدح رؤساءها وولاة الدولة ، فذاع شعره بالجزيرة والعراق ودعاه رؤساء الدولة أن يقدم إلى العراق ، فقدمها واتصل بالخلفاء والأمراء يمدحهم وينال جوائزهم .

ولاة شعراء :

وقد كان من بين الولاة العباسيين على مصر من نظم الشعر وأجاد ، ومن بينهم الوالى الفضل بن صالح المتوفى سنة ١٧٢هـ ، فقد كان شاعراً فصيحاً أديباً ، وعبد الله ابن طاهر المتوفى ٢٣٠ هـ وقد ولى مصر سنة ٢١١هـ .

ومن المأثور عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبدالله حين ولى مصر ، لأنه جمع

---

(١) راجع ١٨ ص ٤٨ الأغانى .

أصول السياسة والآداب والمثل العليا فى سياسة الحاكم . . . ومن الولاة الشعراء كذلك يزيد بن حاتم المهلبى الذى ولى مصر سنة ١٤٤هـ وظل واليا عليها حتى عزل عام ١٥٢هـ ، وكان يزيد محباً للأدب مشجعا للأدباء والشعراء ، وقصده ربيعة بن ثابت الرقى فمدحـه فأجزل له العطاء ، وكذلك قصده فى مصر الشاعر المهر التميمى فأجزل له العطاء .

شاعر مصرى مشهور فى المجون :

ذلك الشاعر هو مانى الموسوس ، وكان كلفا بمجالس اللهو والخمر وقد تتبع القدماء فى وصف الأطلال وبكاء الديار والوقوف عليها ، وله شعر كثير ، وقد هاجر إلى مدينة السلام وأقام فيها .

تراجم موجزة لأشهر الشعراء

١ ـ الجمل الأكبر :

هو الحسين بن عبد السلام المصرى (١٧٠ — ٢٥٨ هـ) تلقى العلم فى مصر وتتلمذ على الشافعى ، وأخذ يتكسب بالشعر ، ويمدح بها الولاة والأمراء ، ثم اتخذه ابن طولون شاعره ونديمه .

وقد أجاد فى المدح والهجاء ، واشترك فى الأحداث السياسية التى وقعت بمصر فى حياته بشعره القوى الرائع ، إلى أن أدركته المنية ، وكان شاعراً مفلقا ، مدح الخلفاء والأمراء ، وقدم دمشق وافداً على أحمـد بن المدبر وكان أحمد يقصده الشعراء ، فمن مدحه بشعر جيد أجزل صلته ، ومن مدحه بشعر ردىء وجه به مع خادم له إلى الجامع فلا يفارقه حتى يصلى مائة ركعة ثم يصرفه . فدخل عليـه الجمل وأنشده :

أردنا فى أبى حسن مديحا	كما بالمـدح تنتجع الولاة
فقالوا : أكرم الثقلين طـرا	ومن جدواه دجـلة والفرات
وقالوا : يقبل الشعراء لكن	أجل صـلات مادحه الصلاة
فقلت لهم : وما يغنى عيالى	صـلاتى ؟ إنما الشأن الزكاة
فيأمر لى بكسر الصاد منها	فتصبح لى الصلاة هى الصلات

ومن قوله فى القناعة :

إذا أظمأتك أكف اللئام	كفتك القناعة شبعاً ورياً

فكن رجلا رجله فى الثرى … وهامة همته فى الثريا
أبيا لنائل ذى ثروة … تراه بما فى يديه أبيا
فإن إراقة ماء الحيا … ة دون إراقة ماء المحيا

٢ — المعلى الطائى :

وهو شاعر مصرى كثير الشعر ، اشترك فى الأحداث السياسية فى عصره ، وكان مع براعته فى المدح والهجاء يصف الخمر .. وتنسب له الأبيات المشهورة التى منها :

وإنما أولادنا بيننا … أكبادنا تمشى على الأرض(١)

والصحيح نسبتها لحطان بن المعلى(٢) .

٣ — سعيد بن عفير (١٤٦ — ٢٢٦ هـ)(٣) ، ولد بمصر ، وتلقى فيها علومه الدينية ، ثم رحل إلى المدينة ، وعاد إلى مصر ، وكان متفوقا فى الثقافتين الدينية والعربية ، وكان عبد الله بن طاهر يجعله ثالث عجائب مصر بعد الهرمين والنيل ، وولى قضاء مصر ، ونبغ فى الحديث والفقه .

---

(١) ٣٦٤ : ١ العقد .
(٢) حماسة أبى تمام ١٠١ طبعة السعادة .
(٣) ١٢٣ : ١ حسن المحاضرة .

الأدب فى عصر الدولتين

الطولونية والأخشيدية

تمهيـــد :

١ — استقل بمصر أحمد بن طولون وكان قد ولى الحكم فيها سنة ٢٥٤ هـ ، ثم أضيفت إليه نيابة الشام والعواصم والثغور وإفريقية ، فأقام بها مدة طويلة ، وبنى جامعه المشهور ، وكان ميلاده فى بغداد عام ٢١٤ هـ ، وكان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم نوح السامانى عامل بخارى إلى المأمون . واستمر ابن طولون أميرا على مصر حتى مات بها عام ٢٧٠ هـ[1] ، وولى بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، وظل أميراً على مصر حتى قتـــل عام ٢٨٢ هـ ، وولى بعده ابنه « جيش » فأقام تسعة أشهر قتـل بعدها ، وخلفه أخوه هارون بن خمارويه الذى ظل أميراً على مصر حتى قتل عام ٢٩٢ هـ ، وولى عمه أبو المغانم شيبان ، فورد من قبل المكتفى بعد اثنى عشر يوما من ولايته محمد بن سليمان الواثق الذى سلم إليه شيبان الأمر ، واستصفى أموال آل طولون ، وانقضت الدولة الطولونية ، وامحت أيامها من تاريخ مصر السياسى .

وكان من البدهى أن يكون مقر دواوين الملك فى أيام الدولة الطولونية مدينة أحمد بن طولون ، وأصبح مسجده المشهور محط الرحال ، ومجلس العلماء ، ومستقرا للحلقات العلمية الكثيرة التى تدرس فيها علوم الدين واللغة والأدب .. وظهر فى مصر وفى حلقات مسجد أحمد بن طولون كثير من العلماء والأئمة والأدباء والشعراء ؛ ومع ذلك فقـــد ظل « مسجد عمرو » يؤدى رسالته بجانب المسجد الطولونى الكبير ، بل ظل إلى أمد قريب يعج بالحلقات والعلماء ، حتى ليروى أنه كان فيه قبل عام ٧٤٩ هـ بضع وأربعون حلقة ، لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه[2]
أسس جامع ابن طولون[2] عام ٢٦٣ هـ ، فى مدينة احمد بن طولون التى سماها

---

(١) راجع ٩ و ٣٠ جـ ٢ حسن المحاضرة .

(٢) ١٣٦ جـ ٢ حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧ .

« القطائع » ، وفرغ من بنائه عام ٢٦٦ هـ . وصلى فيه القاضي بكار إماما وخطب فيه أبو يعقوب البلخي، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الامام الشافعي[١] وظلت الحلقات العلمية فيه إلى أمد بعيد ، فكانت فيه دروس للتفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات[٢] . . وكان أعمر ما يكون في دولة بني طولون .

٢ — وفي عام ٣٢١ هـ ولى على مصر من قبل خلفاء بني العباس محمد بن طغج الأخشيدي الذي أقام الدولة الأخشيدية في مصر والشام ، ومات في ذي الحجة عام ٣٣٤ هـ ، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً ، فأقيم أستاذه كافور الأخشيدي وصيا عليه ، وحكم المملكة باسمه ، ومات أنوجور عام ٣٤٩ هـ ، فقام أخوه على مقامه حتى مات عام ٣٥٥ هـ ، فاستقرت المملكة باسم كافور ودعى له على المنابر في مصر والشام ، ومات عام ٣٥٧ هـ ، فولى المصريون بعده أبا الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيد ، فأقام شهوراً حتى فتح الفاطميون مصر ، وانتزعها جوهر الصقلي منه عام ٣٥٨ هـ .

وفي عهد الدولة الأخشيدية ظل المسجد العتيق ومسجد أحمد بن طولون يؤديان رسالتهما العلمية ، وكانت الحلقات العلمية في هذين المسجدين حافلة بالعلماء والمتعلمين ، وكانت تعقد حلقات خاصة في منازل أكابر العلماء والفقهاء . حيث كانوا يجتمعون بتلامذتهم ، يقرأون ويدرسون بعض شروح الفقه الإسلامي ، وبعض كتب العبادات والتصوف واللغة والأدب ، ومن ذلك حلقة بيت عبد الله ابن الحكم الفقيه المالكي وولديه عبدالرحمن ومحمد ، وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث ... وهذه الأسرة هي التي أكرمت وفادة الامام الشافعي في مصر . وفي القرن الرابع كان العلماء في المسجد العتيق والمسجد الطولوني عديدين وكان من أشهرهم : أبو القاسم بن قديد ، وتلميذه الكندي صاحب الكتاب المشهور في تاريخ ولاة مصر ، وقضاتها وأبو القاسم بن طباطبا الحسني الشاعر . . وكانت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة المصرية العالية، وشجع الأخشيدي ، خلفاؤه العلوم والآداب ودراسة الشريعة ، وكانت حلقة المتنبي الذي وفد إلى مصر عام ٣٤٦هـ - ٩٥٧ م من أحفل مجالس الأدب والشعر والنقد.

---

(١) ١٣٧ جـ ٢ المرجع السابق .　　(٢) ١٣٨ جـ ٢ المرجع السابق .

ولقد كانت السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور تعتكف بمسجد عمرو .

وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقات أبى المسك كافور الأخشيد ، وكان له فى كل عيد أضحى عادة هى : أن يسلم إلى أبى بكر المذكور بغلا محملا ذهباً ، وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى الجبانة وما بينهما .

قال أبو بكر المذكور : « وكان يمشى معى صاحب الشرطة ، ونقيب يعرف المنازل . وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل ، حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة ، فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة ، وأقول : « الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدى يهنئك بالعيد ، ويقول لك . اصرف هذا فى منفعتك . وأرفع إليه ما جعل له » .

« وفى آخر وقت زاد فى الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابار . وجعل له فى ذلك العيد مائة دينار ، فطفت فى تلك الليلة ، وأنفقت المال فى أربابه ، ولم يبق إلا صرة بن جابار ، فجعلتها فى كمى ، وسرت مع النقيب ، حتى أتينا منزله بظاهر القرافة ، فطرقت الباب فنزل إلينا الشيخ ، وعليه أثر السهر ، فسلمت عليه ، فلم يرد على ، وقال : « ما حاجتك ؟ » قلت : الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام . » فقال : « والى بلدنا ؟ » قلت : « نعم . » قال : « حفظه الله ! الله يعلم أنى أدعو له فى الخلوات ، وأدبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه » ، قلت : « وقد أنفذ معى نفقة ، وهى هذه الصرة ، ويسألك قبولها لتصرف فى مئونة هذا العيد المبارك . » فقال : « نحن رعيته ، ونحبه فى الله تعالى ، وما تفسد هذه المحبة بعلة . » فراجعته القول ، فتبين لى الضجر فى وجهه والقلق ، واستحييت من الله أن أقطعه عما هو عليه ، فتركته وانصرفت » .

قال : « فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب ، وهو ينتظرنى . فلما رآنى قال : « إيه يا أبا بكر . » قلت : « أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك فى هذه الليلة ، وفى هذا اليوم الشريف . » فقال : « الحمد لله الذى جعلنى لإيصال الراحة إلى عباده . » ثم أخبرته بامتناع ابن جابار فقال : « نعم هو جدير ، لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم . » ثم قال لى : « عد إليه واركب دابة من دواب النوبة ، واطرق بابه ، فإذا نزل إليك فإنه سيقول لك : « ألم تكن عندنا ؟ » فلا ترد عليه جواباً . ثم استفتح واقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، طه . ما أنزلنا

عليك القرآن لتشق ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » يابن جابار ! الأستاذ كافور يقول لك : ومن كافور العبد الأسود؟ ومن هو مولاه ؟ ومن الخلق ؟ ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة ، تلاشى الناس كلهم ههنا . أتدرى من هو معطيك ، وعلى من رددت ؟ أنت ما سألت وإنما هو أرسل لك . يابن جابار ! أنت ما تفرق بين المسبب والمسبب » .

قال أبو بكر : « فركبت وسرت ، فطرقت منزله فنزل إلى ، فقال لى مثل لفظ كافور ، فأضربت عن الجواب وقرأت طلا . ثم قلت ما قال لى كافور . فبكى وقال لى : « أين ما حملت ؟ » فأخرجت الصرة ، فأخذها ، وقال : « علمنا الأستاذ كيف التصوف . » قلت له : « أحسن الله جزاءك . » ثم عدت إليه فأخبرته بذلك ، فسر وسجد شكراً لله تعالى وقال : « الحمد لله على ذلك » .

ومن ترف الدولة فى هذا العهد ما يروى من أنه لما استقر الملك لخارويه بن أحمد ابن طولون ، عنى بتجميل مدينة القطائع . فكان مما أحدثه بستان زرع فيه أنواع الرياحين والشجر ، وأنواع الورد والزعفران ؛ وكسا النخيل نحاساً مذهباً ، وجعل تحت النحاس ميازيب من الرصاص ينبثق منها الماء بترتيب عجيب ؛ وجعل من الرياحين صوراً وكتابة ، يتعهدها البستانى بالمقراض فتبقى على أشكالها ، وبنى فى البستان برجاً من خشب الساج ، وسرح فيه أصناف القمارى والطيور الجميلة الحسنة الصوت . وجلب إلى البستان الطواويس ودجاج الحبش وغيرها من الطيور الغريبة . وبنى فى قصره مجلساً سماه بيت الذهب . موه حيطانه بالذهب واللازورد فى نقوش عجيبة . وجعل فى الجدران تماثيل من الخشب بارزة . وبنى فى القصر كذلك قبة عالية كان يجلس فيها فيشرف على المدينة ويرى الصحراء والنيل والجبل .

وبنى دار الأسود ، وجعل فيها بيوتا ، فى كل بيت أسد ولبؤة ، وبجانب كل بيت حوض من الرخام . ورتب الخدام لتعهده هذه الدار وتنظيفها . وكان بينها أسد اسمه « زريق » قد أنس بالأمير واستأنس فأطلق فى الدار لا يتعرض لأحد ؛ فإذا مدت مائدة خمارويه ربض الأسد بين يديه ، ينتظر ما يلقى إليه من طعام ؛ فإذا نام ربض عند سريره لا يغفل عنه لحظة . وكذلك اتخذ دوراً لأصناف الحيوان الأخرى : مثل الفهود ، والفيلة ، والزرافى . وكان عظم العناية بالخيل ؛ بنى لها

اصطبلات كثيرة ، وجمع فيها أصنافها . وكان يحتفل بسباق الخيل ، ويجعل أيام الحلبة أيام أعياد . وعني بالجيش المصري والأسطول ، فبلغا في عصره مبلغاً عظيما .

الحياة الثقافية في ظلال الدولتين :

كان عصر الدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ — ٢٩٢ ه) والدولة الأخشيدية (٣٢١ — ٣٥٨ ه) كما ذكرنا عصرا ازدهرت فيه العلوم والمعرفة والثقافة .

وكانت الثقافة الدينية صاحب المكانة الأولى في هذه النهضة ، فنهضت الدراسات في القصة والتفسير ، الحديث والقراءات .

محدثون وفقهاء :

ومن أشهر المحدثين والفقهاء الربيع بن سليمان (١٧٤ — ٢٧٠ ه) ، وكان إمام الشافعية في عصره ، وأبو جعفر الطحاوي (٢٣٩ — ٣٢١ ه)(١) إمام الحنفية ، وروح بن الفرج الزبيري(٢) م ٢٨٢ ه ، وأحمد بن الحارث بن مسكين(٢) م ٣١١ ه ، وهما من أئمة المالكية ، وأبو بكر بن الحداد (٢٦٥ — ٣٤٥ ه) وكان يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها ، وكان يدرس في جامع عمرو(٣).

مؤرخون مصريون :

إذا كان ابن عبد الحكيم (١٨٢ — ٢٦٨ ه) هو أول مؤرخ مصري عني بمصر وتاريخها وأخبارها فإنه قد نبغ في مصر من المؤرخين : ابن يونس عبد الرحمن ابن عبد الأعلى (٢٨١ - ٣٤٧ ه) ، والكندي محمد بن يوسف (٢٨٣ - ٣٥٠ ه) وله تاريخ في ولاة مصر وقضاتها ، وابن زولاق المصري الحسن بن ابراهيم الليثي ٣٠٦ ه ٩١٩ م — ٣٨٧ ه ٩٩٧ م ، وقد زار مصر المؤرخ المسعودي الذي جاء إلى مصر ونزل الفسطاط وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفي سنة ٣٤٦ ه .

وأشهر هؤلاء المؤرخين المصريين ابن زولاق الليثي المصري الذي ولد بالفسطاط ونشأ في مهد العلم والدرس ، في أسرة نبغ فيها أكثر من عالم ومفكر ، ودرس

---

(١) ١٤٧ : ١ حسن المحاضرة .

(٢) ١٩٠ : ١ حسن المحاضرة .

(٣) ١٢٦ : ١ حسن المحاضرة .

الفقه على أبى بكر بن الحداد أعظم أئمة عصره ، وتخصص فيه حتى نعت « بالفقيه » ، ودرس الرواية التاريخية على أبى عمر الكندى ، ثم خص كأستاذه تاريخ مصر بدرسه وبحثه . وقد نشأ ابن زولاق فى عهد الدولة الأخشيدية ، وشهد فى شبابه ما تعاقب يومئذ على مصر وحكومتها من حوادث وقلاقل ، ثم شهد بعد ذلك فى كهولته ذهاب ملك بنى الأخشيد ، وافتتاح الفاطميين لمصر ، وقيام الدولة الفاطمية ، ونشأة القاهرة عاصمة الإسلام الجديدة فى مصر ، واختار أن يكون مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الأسلامية . ولم يصلنا سوى القليل من تراث ابن زولاق ، ولكن ما انتهى إلينا من آثاره يدل على أن مجهوده التاريخى يمتاز عن مجهود أسلافه بكثير من البراعة ، واستكمال الرواية وحسن التنسيق . ولابن زولاق كتاب يسمى « أخبار سيبويه المصرى » ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، (رقم ٣٥٤ تاريخ) الذى تحدث فيه عن الأديب المصرى أبى بكر محمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندى الصيرفى المعروف بسيبويه (٢٨٤ - ٣٥٨ هـ) .

وكان « سيبويه » شخصية كبيرة ، تشغل فى مجتمع الفسطاط العلمى والأدبى منزلة سامية . غير أنه كان بلا ريب أيضاً شخصية غريبة ، وكان فى أخلاقه شذوذ وغرابة ، فأما منزلته العلمية والأدبية فيصفها ابن زولاق فى قوله : « وكانت فى سيبويه خلال تكسبه صفات المتقدمين والمتصدرين . كان يحفظ القرآن ويعلم كثيراً من معانيه وقراءآته وغريبه وإعرابه وأحكامه ، عالماً بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرواة . وقد كتب عن أحمد بن شعيب النسائى ، واسحق بن ابراهيم المنجيق ، وأبى جعفر الطحاوى وغيرهم . ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيبويه ، ويعرف صدراً من أيام الناس والنوادر والأشعار . وتفقه على قول الشافعى . وجالس أبا هاشم المقدسى الفقيه ، وجالس أبا بكر محمد بن احمد الحداد ، وتتلمذ له ، وتكلم فى الزهد وألفاظ الصالحين متصدراً فيه . وتكلم فى علم السماع . عف الفرج ، متنسكا . جمعت فيه ألفاظ الورعين والزهدين والواعظين وأخبار الصالحين وأدوات المتأدبين وفكاهة المنادمين .

« وبلغ من ذلك حتى جالس أنوجور بن الأخشيد أمير مصر ، وجالس أبا الحسين محمد المادرانى وزير مصر أيضاً ، وواكلهما ونادمهما ، وانتهى (فى) الجدل والكلام ، وأخذ علم الاعتزال عن أبى على بن محمد العاصى الواسطى وكان وجه المتكلمين بمصر » .

وليس أدل من هـــذه الصورة التي رسمها ابن زولاق على سمو المنزلة العلمية والأدبية التي كان يتبوأها سيبويه المصري في مجتمع عصره . على أن الذي عني به ابن زولاق من أخبار صديقه وزميله ، هو ما تعلق بشذوذه وغريب أطواره . وهو يضمه في صف « عقلاء المجانين » الذين يشير إليهم في فاتحة رسالته وإلى من كتب عنهم كالمدايني وابن أبي الدنيا ، ثم يقول : « وكان عندنا بمصر رجل يعرف بسيبويه ، فوق هؤلاء الذين ذكرهم المدايني وابن أبي الدنيا . لو كان بالعراق لجمع كلامه ، ونقلت ألفاظه ، ولو عرف المصريون قدره لجمعوا عنه أكثر مما حفظوه . وسئلت أن أجمع من كلامه ما أقدر عليه مما حفظته عنه وما بلغني عنه ، فخليت كتابي هذا بصفته ، وما كان بحسنه حسب ما قدرت عليه وبالله التوفيق » .

والنسخة الخطية من الكتاب الموجودة بدار الكتب المصرية بخط ابن زولاق نفسه ، ويرجع خطها إلى نحو عام ٣٧٠ هـ وهو أقدم مخطوط مصري عربي أدبي في دار الكتب المصرية ، كما أن نسخة كتاب الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب المصري المتوفى سنة ١٩٧ أقدم كتاب ديني مصري مخطوط بدار الكتب ، وهي مكتوبة في أواخر القرن الثالث الهجري ، وعليها ما يفيد أن الكتاب قرىء بمدينة إسنا سنة ٢٧٦ هـ[1] .

سيبويه المصري[1]:

يقول أحمد أمين عنه : [إنه شخصية غريبة في مصر في العهد الإخشيدي ، ولقب بسيبويه لإتقانه النحو ، عاش ما بين عامي ٢٨٤ هـ و ٣٥٨هـ أي نحو أربعة وسبعين عاما ، وله نوادر كثيرة كانت تتلقفها الألسن وتتناقلها الرواة ، وكان أكثر كلامه مسجوعا ، ومن ثم خف على الألسنة ، وسهل في الأفواه ، وكان مع هـذا أديباً ظريفاً له نظرات في الأدب جميلة ، يقول : إن أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه ، واستلس على ألسن ناطقيه ، ولم يستأذن على آذان سامعيه ، وقد هجا بعض الناس شيخا من شيوخه فقال سيبويه :

ما يضر البحر أمسى زاخـــرا   أن رمى فيــــه صبي بحجر

وسمع بيت المتنبي :

---

(١) صـ ١٦٨ : ١ حسن المحاضرة .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له من صداقته بد

فقال: هذا كلام فاسد ، لأن الصداقة ضد العداوة ولو قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود ، وبلغ المتنبي هذا النقد فذهب إلى سيبويه وسمعه منه فتبسم وانصرف ، فصاح سيبويه : انبكم ! — ومع هذا فلما سمع قول المتنبي :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الأنام تسير

صاح سيبويه : لبيك لبيك ! أنا عبد هذه الأبيات ، مما يدل على ذوق حسن ونقد صحيح وتقدير للأدب ، ولقد كان عالى النفس ، دقيق الحس ، يرى الناس كلهم دونه ، فلا يذل لعظيم ، ولا يهين لكبير ، طلبه أنوجور بن الأخشيد أمير مصر لينادمه ، فقال على شرط أن أنزل حيث تنزل ، وأركب حيث تركب ، وأجلس متكئاً . فأجابه إلى شرطه . وكان سيبويه يحدث عظيما فجاء خادم يسر حديثا إلى هذا الجليس فسمع له ، وقطع الاستماع لسيبويه . فقام سيبويه مغضباً ، فسأله إلى أين ؟ قال لا تجالس من لا يرى مجالستك رفعة ، ولا تحدثن من لا يرى حديثك متعة ، ولا تسألن من لا تأمن منعه ، ولا تأمرن من لا تأمن طوعه . ولما ماتت أم سيبويه حضر في جنازتها كل كبير في مصر إلا ابن المادرائى الوزير ، وعاد والناس حوله ، فأخذ سيبويه يطلق لسانه فى هجاء ابن الماردانى ، وما نجاه من لسانه إلا أن لقيه فى الطريق يأتى مسرعا ليدرك الجنازة .

وكان سيبويه طرفة مصر فى عصره ، علماً وأدباً وفكاهة — كان يقوم فيهم مقام العالم والواعظ والأديب ، ومقام الجريدة السيارة الناقدة اللاذعة ، وكان منظره بديعاً ، يدور فى الأسواق على حماره أو حمار غيره ، وما أكثر من كان يتق لسانه بتقديم حماره ! فبحق قال « جوهر الصقلى » لما دخل مصر وذكرت له أخباره : « لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز فى جملة الهدية » .

وبحق لما سمع به « فاتك » ممدوح المتنبي قال : ذكرونى به فلعلى استدعيه فإنه نزهة .

لغويون وأدباء :

ومن اللغويين النحويين الأدباء فى هذا العصر : ابن ولاد أحمد بن محمد بن الوليد

المتوفى عام ٢٣٢ هـ وكان شيخ مصر فى العربية[١] ، وأبو جعفر النحاس المتوفى عام ٣٣٨هـ[١]، وأحمد بن يوسف ابن الداية الكاتب صاحب كتاب المكافأة ، وهو أثر أدبى نثرى نفيس لهذا العصر ، وأحمد بن يوسف ذو ثقافة واسعة ، فى الدين والعربية والفلسفة ، وهو كاتب بليغ ، وشاعر مجيد ، ومؤلف ممتع ، وقد توفى بعد سنة ٣٣٠ هـ .

أعلام أخرى فى شتى فروع الثقافة :

ومن نبغوا فى هذا العصر كذلك من العلماء والأعلام :

١ — محمد بن نصر المروزى أحد أئمة الفقهاء ، ولد ببغداد ، ونشأ بنيسابور وأقام فى مصر مدة ، ثم رجع فاستوطن سمرقند ، وتوفى سنة ٢٩٤ هـ عن أكثر من ثمانين عاما .

٢ — النسائى[٢] أحمد بن شعيب (٢٢٥ - ٣٠٣ هـ) هاجر إلى مصر ، وأقام بها ، وكان خروجه من مصر عام ٣٠٢ هـ .

٣ — ابن حنزابة وزير كافور (٣٠٨ — ٣٩٩ هـ)[٣] .

٤ — أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى ، كان فقيها أديبا شاعرا ، وله قصيدة نظم فيها قصص الأنبياء وغيرها وتوفى عام ٣٣٥ هـ[٤] .

٥ — أبو الطاهر محمد بن عبدالله كان فصيحا فقيها شاعراً إخباريا توفى عام ٣٦٧هـ عن نحو تسعين عاما .

٦ — الحسن بن داود بن بابشاذ المصرى النحوى المشهور[٥] مات سنة ٣٣٩ هـ وسنه أقل من أربعين .

٧ — أبو بكر التجيبى المقرى من أئمة القراءات توفى عام ٣٥٧ هـ[٦]

٨ — أحمد بن عبدالله الأزدى المصرى أحد أئمة القراء بمصر توفى عام ٣١٥هـ[٦]

---

(١) ٢٢٨ : ١ حسن المحاضرة . (٢) ١٤٧ : ١ حسن المحاضرة .

(٣) ١٤٨ : ١ حسن المحاضرة ، ٢١٠ : ١ أيضاً ، معجم الأدباء الياقوت جـ ٧ ص ١٦٣ وابن خلكان ١١٠ : ١ .

(٤) ١٦٨ : ١ حسن المحاضرة . (٥) ١٩٧ : ١ المرجع .

(٦) ٢٠٨ : ١ حسن المحاضرة .

٩ — محمد بن علي الأدفوى المصرى المقرئ النحوى المفسر وكان سيد أهل عصره بمصر ، وله كتاب فى التفسير فى مائة وعشرين مجلدا سماه «الاستغناء فى علوم القرآن» ، توفى عام ٣٨٨ هـ[١] .

١٠ — أبو الحسن بن بنان الزاهد المصرى[٢] .

١١ — محمد بن أحمد بن سعيد التميمى كان من الأطباء ومات سنة ٣٧٠ هـ .

١٢ — أبو الحسن على بن أبى سعيد بن يونس بن عبد الأعلى كان منجما معتنيا بالرصد ، وله شعر جيد ، مات سنة ٣٩٩ هـ .

صور من النثر الفنى فى هذا العصر :

١ — من كتاب كتبه إبراهيم بن عبدالله النجيرمى بأمر الإخشيد محمد ابن طغج إلى أرمانوس ملك الروم وقد كان أرسل إليه رسالة يتباهى فيها بعظم ملكه ، ويصغر من شأن ملك مصر :

« وما كنت أحب أن أباهيك بشىء من أمر الدنيا ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرمه وأظهره ، ووعدنا فى عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين ، لكنك سلكت مسلكا لم يجز لنا أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير فى جوابه ، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك فى الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن فى يدك من أسرى المسلمين وعطفك عليهم ، وتجاوزك فى الإحسان إليهم جميع من تقدم من سلفك ، ومن كان محمودا فى أمره رغب فى محبته ، لأن الخير أهل لأن يحب حيث كان » .

وهذه الرسالة خالية من السجع إلا ما ندر وتطلبه الذوق .

٢ — ومن كتاب ابن عبدكان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس :

---

(١) ٢٠٩ : ١ المرجع .

(٢) ٣١٩ : ١ حسن المحاضرة .

كتب ابن عبد[١] ، كان عن أحمد بن طولون كتابا إلى ابنه العباس حين عصى عليه[٢] بالإسكندرية ، منذرا وموبخاً له على فعله .. ومنه : « من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين[٣] ، إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لطوره[٤] ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس[٥] فى فتنته ، المبخوس[٦] من حظ دنياه وآخرته .

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن عبدكان ، كان على المكاتبات والرسائل فى عهد الدولة الطولونية ، وكان مترسلا فصيحا .

(٢) كان الخليفة المعتز قد ولى بايكباك مصر ، فولى عليها بايكباك من قبله أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ . ثم استقل ابن طولون بمصر سنة ٢٥٧ هـ فى عهد الخليفة المعتمد على الله ؟ ثم أراد أن يوسع نطاق ملكه فأغار على الشام سنة ٢٦٤ هـ ؛ وفى أثناء غيابه بها عصى عليه ابنه العباس ، وجاء فى تاريخ . الكامل لابن الأثير فى هذا الصدد : « كان أحمد بن طولون قد خرج الى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر ، فلما أبعد عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانزاح الى برقة ، ففعل ذلك ، وأتى برقة فى ربيع الأول سنة ٢٦٥ هـ ، وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر ، وارسل الى ابنه ولاطفه واستعطفه ، فلم يرجع اليه ، وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد أفريقية ، فسار اليها . . . . فى خبر طويل . إلى أن قال : وسير اليه والده العساكر فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان ، فانهزم العباس ومن معه وكثر القتل فى أصحابه . وأخذ العباس أسيرا وحمل الى أبيه لحبس فى حجرة داره ؟ الى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه ، فأحضرهم أحمد عنده والعباس معهم ، فأمره أبوه أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل فلما فرغ وبخه أبوه وذمه ، ثم أمر بضربه فضرب مائة مقرعة ، ودموعه تجرى على خده رقة لولده ، ثم رده الى الحجرة واعتقله ، وذلك سنة ٢٦٨ هـ ، وتوفى ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ » .

(٣) يعنى المعتمد على الله .

(٤) عدا الأمر ، وعنه : جاوزه ، والطور : القدر .

(٥) الركس : قلب أول الشىء على آخره .

(٦) المبخوس : المنقوص .

سلام على كل منيب[١] مستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم[٢] ، وحلول الفوت والندم . وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء[٣] الجميل ، والطول[٤] الجليل ، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبى[٥] ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنها[٦] ، والنملة يكون حتفها فى جناحيها ، وستعلم — هبلتك[٧] الهوابل ! أيها الأحمق الجاهل ، الذى ثنى على الغى عطفه[٨] ، واغتر بضجاج المواكب خلفه — أى موردة هلكة بإذن الله توردت[٩] ، إذ على الله جل وعز تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا : « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعا فى إنابتك ، وتأميلا لفيئتك[١٠] ، فلما طال فى الغى انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم تر الموعظة تلين كبدك ، ولا التذكير يقيم أودك[١١] ، ولم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينا موضعا ومحلا ، بل لا نكنى بأبى العباس إلا تكرها ، وطمعاً بأن

---

(١) ناب الى الله وأناب : تاب .

(٢) الكظم : مخرج النفس .

(٣) البلاء : النعمة .

(٤) الطول : الفضل .

(٥) المجتبى : المختار .

(٦) أخذه من المثل المشهور : « كباحثة عن حتفها بظلفها » ، وأصله أن رجلا كان جائعاً بالفلاة القفر فوجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به فبحثت الشاة الأرض بأظلافها فسقطت على شفرة فذبحها بها : يضرب لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره .

(٧) هبلته أمه كفرح : ثكلته ، وامرأة هابل وهبول .

(٨) أى جانبه . (٩) تورد : ورد .

(١٠) الفيئة : الرجوع . (١١) الأود : الاعوجاج .

يهب الله منك خلفاً تقلده اسمك ، ونكنى به دونك ، وتعدك كنت نسيا[١] منسيا ، ولم تك شيئا مقضيا ، فانظر — ولا نظر بك — إلى عار نسيته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ، واعلم أن البلاء — بإذن الله — قد أظلك ، والمكروه — إن شاء الله — قد أحاط بك ، والعساكر — بحمد الله — قد أتتك ، كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب وبويل ، فإنا نقسم — ونرجو ألا نحور ونظلم — ألا تثنى عنك عنانا ، ولا تؤثر على شانك شانا ، ولا نتوقل[٢] ذروة جبل ، ولا نلج بطن واد ، إلا تبعناك — بحول الله وقوته — فيهما — وطلبناك حيث أممت[٣] منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبلت ، ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتفرى[٤] لك الليل عن صبحه ، ويسفر[٥] لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر[٦] فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكا بحبائل غرور ، متماديا فى مقابح أمور : من عقوق لا ينام طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ، وغدر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يودى[٧] قتيله ، وتقف على سوء رويتك ، وعظم جريرتك[٨] ، فى تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإذ السيف عنك مغمود وباب التوبة إليك مفتوح ، وتتلهف — والتلهف غير نافعك — إلى أن تكون أجبت إليه مسرعا وأنقدت إليه متنصحا » .

---

(١) النسى : ما نسى .

(٢) وقل فى الجبل كوعد وتوقل : صعد .

(٣) أى قصدت .

(٤) تفرى : انشق ، والمعنى ينكشف .

(٥) سفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق .

(٦) الوقر : الصمم .

(٧) ودى القتيل كوعى : أعطى ديته .

(٨) جريرة : ذنب .

الشعر فى عهد الدولتين

كثر الشعر فى هذا العهد وشجع عليه الحكام والأمراء ، وتنافس فيه الشعراء ، وفى المقريزى أنه كان هناك فهرست بأسماء شعراء الميدان لابن طولون فى اثنتى عشرة كراسة[1] ، وممن مدح أحمد بن طولون : قعدان بن عمرو ، ومنصف ابن خليفة الهذلى ، والقاسم بن يحيى ، وسعيد بن العاص الذى رثى دولة الطولونيين بقصيدة طويلة ، وله مدائح بليغة فى دولة الطولونيين ، واسماعيل بن أبى هاشم ، وسواهم ، كمحمد بن دؤاد الذى أكثر من هجاء أحمد بن طولون هجاء مريرا ، ومن الشعراء الذين رثوا الدول الزائلة الشاعر محمد بن طشويه الذى رثى دولة الطولونيين ؛ وقد نبغ بعض الشعراء فى فنون العلم والكتابة ، مثل جعفر بن محمد وصالح بن رشدين ، وغيرهما ؛ وقد تعمد بعضهم الإطالة فى القصيدة ، كأحمد ابن الربيع بن سليمان الاسوانى الذى سئل قبل موته بسنتين : كم بلغت قصيدتك إلى الآن ؟ قال : ثلاثين ومائة ألف بيت ، وقد ضمن قصيدته هذه كثيراً من الأخبار وقصص الأنبياء والطب . وكثر شعر الزهد والحكمة والأمثال فى شعر ابن طباطبا ومن شعراء اللهو والمجون : محمد بن عاصم ، وسعيد بن فاخر ، وأبى هريرة ابن أبى العصام ، والعباس بن البصرى ، وللعباس هذا شعر كثير فى الأديرة التى كانت بمصر ، وعبد الله بن محمد بن أبى الجوع . وقد هاجر الشاعر أبو الحسن محمد بن سلى الشيبانى المصرى إلى حلب وصار من شعراء سيف الدولة .

وكان الشاعر ابن طباطبا يجيد وصف الطبيعة وجمالها فى مصر ، وكذلك للشاعر صالح بن موسى شعر فى وصف البركة ؛ ولحسن بن الحسن بن زكريا قصيدة فى رثاء الإخشيد ، ولمهلهل بن يموت مرثية للاخشيد أيضاً ، وللقاضى محمد بن أحمد ابن الحداد قصائد فى الهجاء ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

قولوا لحدادنا الفقيه ‏ ‏ ‏ العالم الماهر الوجيه
وليت حكما بغير عهد ‏ ‏ ‏ وغير عقد نظرت فيه

---

(١) ١٢٤ : ٢ المقريزى .

ولما بلغت هذه القصيدة الشاعر محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصرى مدح ابن الحداد بقصيدة منها :

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيـه صبى بحجر

وهجا القاضى بن وليد الذى عزل عن القضاء سنة ٣٣٦ هـ زميله القاضى محمد ابن بدر الذى ولى قضاء مصر ثلاث مرات آخرها عام ٣٢٩ هـ بقصيدة طويلة .

المتنبي وكافـور

عاش أبو الطيب المتنبي فى ظلال سيف الدولة فى حلب من عام ٣٣٧ هـ حتى عام ٣٤٦ هـ يمدحه بروائع القصيد ، بيد أن الحوادث غيرت قلب الصديقين : أبى الطيب وسيف الدولة ، فكبرياء المتنبي ، وكثرة منافسيه ، ووشاياتهم به — لاسيما أبو فراس الأمير — ، وثورة النقد والخصومة بين أبى الطيب وابن خالويه فى مجلس الأمير ، وطموح المتنبي وعدم وصوله فى ظل سيف الدولة إلى كل ما كان ينشده من آمال كبار . كل ذلك كان له أثره فى هذا التطور الجديد ، وسكن الشاعر سكون من يتبين اتجاهات الأمور وعواقبها ، ولكنه لم يعد يجد فى الأمير صديقه الوفى ، ولا فى صداقته عزته العزيزة لديه ، وقاتل الله غربة الرجل فى وطنه :

شر البـلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

وأخذ الشاعر يلوح له بما فى نفسه وبالنتائج الدامية التى تعقب هذا الجفاء :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة .. لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجـرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف فى أهل النهى ذمم
أرى النوى تقتضينى كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركت ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وما ضمير إلا جبل عن يمين السائر فى الطريق من الشام إلى مصر ، فهو يصرح له بأنه إذا اضطر إلى الخروج من بلاطه فسيندم لأنه لابد ذاهب إلى بلاط أعدائه الإخشيديين :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلـون هم

وأخذ أبو الطيب يحمل حملاته العنيفة على خصومه ومنافسيه فلم يبق أمل فى الوئام ، فخرج أبو الطيب من حلب إلى دمشق حيث زين له أحد أتباع كافور أن يرحل إليه بمصر فيمم وجهه شطر مصر قاصدا بلاط بنى الإخشيد ، وكفت صلات الصداقة القديمة الباقية الشاعر عن أن يرى الأمير بداهية من لسانه وآبدة من شعره .

ولكن سيف الدولة لم يترك الشاعر حذارا من لسانه ومن أن يطلع أعداءه على أسرار دولته ، فأرسل إثره الجنود ليردوه فرجعوا خائبين ، وكانت هذه منة امتن بها الشاعر بعد على كافور :

فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها	بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلى كلاب قبائل	كأن لها فى الليل حملات ديلم
ولا اتبعت آثارنا عين قائف	فلم تر إلا حافراً فوق منسم
وسمنا بها البيداء حتى تغمرت	من النيل واستذرت بظل المقطم

واستظل الشاعر بظل المقطم كما يقول ، فنزل فى فناء كافور عام ٣٤٦ ، وكانت الخلافة العباسية آنئذ فى ضعف سياسى ، وولاة الأقاليم فى شبه استقلال عن الخلافة وعهد الخليفة الراضى إلى محمد بن طغج الإخشيدى فى القيام بأعباء الحكم فى مصر عام ٣٢٣ فاستقل بها استقلالا داخليا ، وأخذ يوسع حدود بلاده شمالا فى ملك الحمدانيين ، وكان كافور مولى للأمير آنس فيه الكفاءة ، وحسن التدبير ، ونضوج الثقافة ، فعهد إليه بتربية ولى عهده ثم عينه عام ٣٣٣ قائداً للجيوش التى أرسلها لصد هجمات الحمدانيين على دمشق وحمص ، ولكن الأجل أسرع بابن طغج ، إلى لقاء ربه ، فأعلن كافور ولاية ابنه العرش وأقام نفسه مقام الوصى عليه يدبر الأمور ويسوس الدولة ، ومات الملك الطفل بعد بلوغ سن الرشد بقليل ، فانفرد كافور بالأمر وظل يحكم مصر ثلاثا وعشرين عاما (٣٣٤ - ٣٥٧) ، وكان اسم أبى الطيب وشاعريته قد ذاعا فى أرجاء العالم العربى إذ ذاك ، ثم علم كافور أن الثرى قد جف بين الشاعر وسيف الدولة ففاوضه ليتوجه إلى بلاطه فتم له ما أراد ، ولقد ترك أبو الطيب لنا صورة رائعة لنفسيته العميقة الثائرة حين فارق سيف الدولة فى قصيدة يقول فيها الرواة إن أبا الطيب نظمها لما بلغه وهو فى مصر أنه نعى فى مجلس سيف الدولة ، وهى قصيدة رائعة فيها عتاب مرير وهجاء ثائر لسيف الدولة وأبياتها كلها موجهة إليه ، وتعريض به كما يقول العكبرى (٤/٢٣٦) ولعل فيها

سمات من الألم العنيف تجاه الحوادث التى حالت بين الشاعر والوفاء لصديقه الأمير ، فهو يقول فيها إنه لا يصون العرض جاره ولا يدر على مرعاه اللبن وإنه ينقم على من نال رفده ، والغريب لا يجازيه إلا مللا ، والمحب لا يجازيه إلا فتورا ، وإنه اضطر إلى هذه الهجرة تضحية براحته وطمأنينته فى سبيل كرامته وعزته ، وإن ذكريات الصداقة بين الشاعر والأمير قد أخذت تتلاشى من مخيلته ، وإنه يعيش فى طور جديد من التجربة لكافور ومطلع هذه القصيدة :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

ومنها :

يا من نعيت على بعد بمجلسه ... كل بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت وكم قد مت عندكم ... ثم انتفضت فزال القبر والكفن
رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والملل
إنى أصاحب حلمى وهو بى كرم ... ولا أصاحب حلمى وهو بى جبن
ولا أقيم على مال أذل به ... ولا ألذ بما عرضى به درن
سهرت بعد رحيلى وحشة لكم ... ثم استمر مريرى وارعوى الوسن
وإن بليت بود مثل ودكم ... فإننى بفراق مثله قمن

وسام الشاعر طموحه آلام هذه التجربة الجديدة التى عصى فى الدخول فى غمارها آراء أصدقائه ومشيريه ، كما صنع كافور فى تقريب الشاعر مخالفا رأى وزيره ابن الفرات .

وأبلج يعصى باختصاصى مشيره ... عصيت بقصديه مشيرى ولومى

ولم تكن هذه الهجرة الجديدة فى سبيل مال بل كانت فى سبيل الملك والدولة كما يقول الشاعر نفسه فى كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم ... إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذى تهب الدولات راحته ... ولا يمن على آثار موهوب

وأخذ الشاعر يدعو الأمير إلى تحقيق آماله فهو وإن كان شاعرا إلا أنه قد خلق للسياسة والملك :

فارم بى ما أردت منى فإنى ... أســـد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كان ... لسانى يرى من الشعراء

وانتظر الشاعر فى الوطن الجديد وعد كافور انتظار المستبطىء المترقب :

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا ... وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسـدين وحالة ... أقيم الشقا فيـــا مقام التنعم

وألح عليه يطالبه عاجل وعده فالعمر يضيق عن طول الانتظار :

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها ... وصيرت ثلثيها انتظارك فاعلم
ولـكن ما يمضى من العمر فائت ... فجد لى بحظ البادر المتغنم

ويتأخر عن الشاعر وعد الأمير فلا تهن آماله :

وإن تأخر عنى بعض موعده ... فما تأخـــر آمالى ولا تهن

وطال مطال كافور لأنه كان يحذر على نفسه وعرشه من أبى الطيب وكانت الوشايات تملأ صـــدره بالحقد عليه ، وكان وزيره ابن الفرات الذى ترفع أبو الطيب عن مدحه يحول بينه وبين البر بما وعد وكان وجود أبى الطيب فى بلاطه مجال الحـــديث ، ومنبع الوشايات من رجال الحاشية ورجال السياسة والأدب ، فأخذ أبو الطيب يعرض لكافور بأمانيه وآماله :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله ... فإنى أغنى منذ حـــين وتطرب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجـودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم أخذ يلح فى الطلب والتعريض :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة ... وإن كان قرباً بالبعاد يشـاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذى أملت منك حجاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ... ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وماشئت إلا أن أدل عواذلى ... على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوماً خالفونى فشرقوا ... وغربت أنى قد ظفرت وخابوا

ثم أخذ يكرر الطلب والرجاء :

إذا اكتسب الناس المعالى فى الندى ... فإنك تعطى فى نداك المعـانيـا

وغير بعيد أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين(١) واليا

وعلم أبو الطيب بالوشايات ، فطلب من كافور أن يتخذه والياً ولو على سبيل التجربة والاختبار :

فكن فى اصطناعى محسناً كمجرب يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله فإما تنفيه وإما تعده

وأعلن اليه رغبته فى السلطان لاحاجته إلى المال :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنه فى مفخر أستجده

وأنه سيحمده على ما يفعل حمداً يفوق كل حد :

يجود به من يفضح الجود جوده ويحمده من يفضح الحمد حمده

ولكنه فقد الأمل وعز عليه الرجاء :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى المطى ولا أمامى
قليل عائدى سقم فراشى كثير حاسدى صعب مرامى

وما صعوبة مرامه إلا لما يطلبه من الملك والإمارة كما يقول شارح ديوانه (٤/١٤٥ العكبرى) ، فأخذ أبو الطيب يسخر بكافور ويتهكم به سخرية الممعن فى الأغراب لحينا يمدحه بسواد لونه مع علمه أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت — كما قال الوحيدى(٢) — زاعماً أنه لون المسك :

ويمسك يكنى به ليس بالمسك ولكنه أريج الثناء

وأن بياض الجلد خير منه بياض الفؤاد :

إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء

وحينا يبالغ فى التهكم والاستخفاف :

وما طربى أنى رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

حتى قال ابن جنى لصديقه الشاعر لم تزد على أن جعلته قردا (٦٥ صبح) ، وفى هذه القصيدة بيت بلغ مبلغ الإعجاز فى التهكم والسخرية :

---

(١) الكوفة والبصرة . (٢) ٤٦ صبح

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا　　لمن بات فى نعمائه يتقلب

يريد أن كافور يحسده ظلما وعدوانا على ما يتقلب فيه من نعمة هى من يد كافور ولكنه أخفق غرضه بصياغة البيت صياغة فنية رائعة ذات معان كثيرة ، وهكذا نقرأ له فى كافور :

ولله سر فى علاك وإنما　　كلام العدا ضرب من الهذيان

وساءت علاقة أبى الطيب بكافور فوضعت عليه رقابة شديدة دقيقة استطاع المتنبى أن يفلت منها هاربا يوم عرفة عام ٣٥٠ هـ بعد أن يئس من الحياة ومن مجد الفن واتخاذه وسيلة لمجد الحكم والسلطان :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى　　المجد للسيف ليس المجد للقلم

ونظم الشاعر فى رحيله قصيدته :

عيد بأية حال عدت ياعيد　　بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

التى وسم بها وبسواها من قصائده كافورا بميسم الذلة والهوان إلى الأبد .

وأكفر ياكافور حين تلوح لى　　ففارقت مذفارقتك الشرك والكفرا

ويمم الشاعر وجهه نحو الكوفة فأقام بها حينا تردد خلاله على بغداد وسواها من مدن العراق ، تسومه نفسه الكبيرة عذاب العبقرية :

وإذا كانت النفوس كبارا　　تعبت فى مرادها الأجسام

ويطارده دهره فى سبيل العظمة وحيداً غريبا :

أهم بشىء والليالى كأنها　　تطاردنى عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان فى كل بلدة　　إذا عظم المطلوب قل المساعد

يسائله كثير من الناس فى عجب عن غاياته البعيدة التى لا تنتهى الى غاية :

يقولون ما أنت فى كل بلدة　　وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

وكان كافور داهية أديبا ، ولكنه بلى بداهية شديدة من لسان المتنبى وهجائه ، ويصفه المؤرخون بالوفاء والدهاء ، وقد ملك كافور مصر بعد أن ضعف أمر بنى الإخشيد وكان من قبل يسوس لهم الدولة ، ومات عام ٣٥٧هـ ودفن بالقاهرة ، ويقول أبو الفتح المنطيق[1] : كنا جلوساً عند كافور الاخشيدى وهو يومئذ

(١) ٨٥ العقد الفريد للملك السعيد .

صاحب مصر والشام ، وله من البسطة ونفاذ الأمر وعلو الهمة والقدر وشهرة الذكر ، ما يتجاوز الوصف والحصر ، فحضرت المائدة والطعام ، فلما أكلنا نام وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا ، وقال : امضوا إلى عقبة النجارين واسألوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك ، فإن كان حيا فأحضروه ، وإن كان قد توفى فاسألوا عن أولاده ، واكشفوا أمره . فمضينا إلى هناك . وسألنا عنه ، فوجدناه قد مات وترك بنتين : إحداهما مزوجة والأخرى عاتق [1] ؛ فعدنا إلى كافور وأخبرناه بذلك ، فسيرفى الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً ، وأعطى كل واحدة منهما ثياباً وكسوة وذهباً كثيراً ، وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً ، وأشهر أنهما من المتعلقين به ؛ لرعاية أمورهما . فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك ، وقال : أتعلمون سبب هذا ؟ قلنا : لا نعلم ، فقال : اعلموا أنى مررت يوماً بوالدهما المنجم ، وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب بحالة رثة ، فوقفت عليه ، فنظر إلى واستجلسنى ، وقال : أنت تصير إلى رجل جليل القدر ، وتبلغ معه مبلغا كبيراً ، وتنال خيراً كثيراً ، وطلب منى شيئاً فأعطيته درهمين كانا معى ، ولم يكن معى غيرهما ، فرمى بهما ، وقال : أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين ! ثم قال : وأزيدك ؛ أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه ، فاذكرنى إذا ما صرت إلى ما وعدتك به ولا تنسنى ، فبذلت له ذلك ، وقلت : نعم ! فقال : عاهدنى أنك توفى لى ، ولا يشغلك الملك عن افتقادى ، فعاهدته ، ولم يأخذ الدرهمين ثم إنى شغلت عنه بما تجدد لى من الأمور والأحوال ، وصرت إلى هذه المسألة ، ونسيت ذلك ، فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل على وقال : أين الوفاء بعهدك وإتمام وعدك ؟ لا تغدر فيغدر بك ! فاستيقظت وفعلت ما رأيتم . ثم اشتهر إحسانه إلى بنات المنجم لوفائه لوالدهما ، فتضاعف الدعاء له والثناء عليه .

على أن المتنبي إنما دس له عند كافور وزيره ابن حنزابه ، الذى حقد على المتنبي لأنه لم يمدحه بشعره ، وكان الوزير يغرى الشعراء والنقاد بالمتنبي ، ويحرضهم عليه ، وكان ممن نقد المتنبي أبو بكر محمد موسى الملقب بسيبويه المصرى ، والشاعر الأنصارى الذى نقد المتنبي فى مجلس كافور [2] ، وسواهما . وهناك طائفة من الشعراء صاحبت المتنبي وأحبته ومنهم عبدالله بن محمد بن أبى الجوع ، وصالح بن رشدين الكاتب

---

(1) هى الجارية التى لم تتزوج .   (2) ٣٧٣ : ١ اليتيمة .

ومهما كان فإن المتنبي أحب مصر وعاش فى طبيعتها الجميلة ، وأحبته مصر وكثير من شعرائها ، وهو لم يهج مصر وإنما هجا حكامها وكافورا على الخصوص

ابن طباطبا المصرى

هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا العلوى المصرى ، كان نقيب العلويين فى مصر ومن أكابر رؤسائها ، وله شعر حسن فى الزهد والغزل وغيرهما ومن شعره :

خليـــلى إنى للثريا لحاسد　　وإنى على ريب الزمان لواجد
أيبق جميعا شملها وهىَ ستة　　وأفقد من أحببته وهو واحد

ومن شعره كذلك فى وصف طول الليل :

كأن نجوم الليل سارت نهارها　　فوافت عشاء وهى أنضاء أسفار
وقد خيمت كى تستريح ركابها　　فلا فلك جار ولا كوكب سار

وكان ابن طباطبا مصنعا يحذو حذو مسلم وأبى تمام فى شعره ، وكان من أوصف الشعراء فى مصر للطبيعة[1].

ابراهيم الجيزى

هو ابراهيم بن عبد الله الجيزى اللغوى الإخبارى ، شاعر ، كان كاتب كافور وداعيته ، وكلم كافور بكلم لحن فيه ، وأخذ عليه الحاضرون ذلك فقال :

لا غرو إن لحن الداعى لسيدنا　　أو غص من دهش بالريق أو بهر
فتلك هيبتـــه حالت جلالتها　　بين الأديب وبين القول بالحصر

ابن جـــــدار المصرى

قال عنه الصولى فى كتابه « أخبار شعراء مصر » : لم يكن بمصر مثله ، وهو كثير الشعر ، حسن البلاغة ، عالم، له ديوان شعر ، ومكاتبات كثيرة[2]، واسمه أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار، وكان مختصا بالدولة الطولونية ، وقتل سنة ٢٦٨ هـ ومن شعره قوله :

يا رب لى ألف ألف ذنب　　إن تعف يا رب فاعف جما

---

(١) راجع المغرب ٤٩ - ٥١ ، وابن خلكان ١ : ٤٠ ، ومطالع البدور ١ ٣٦
(٢) ٥ : ٤١٥ معجم الأدباء .

فابرد بمفو غليــــل قلب كأن فيــــه رسيس حمى

وفى شعره صنعة كثيرة ، لا تخفى على القارىء .

منصور الفقيه

شاعر مصرى فقيه مؤلف ، اسمه منصور بن اسماعيل بن عمر التيمى المصرى ترجم له ابن خلكان(١) وياقوت(٢) ، وفى شعره جزالة وقوة ، ومن شعره قوله :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم — وما عليه إذا عابوه من ضرر

ماضر شمس الضحى والشمس طالعة — أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وقد ولد فى رأس العين بالجزيرة وقدم مصر صغيرا وأخذ فيها جميع علومه ونظم فيها جل شعره ، ومات سنة ٣٠٦ هـ .

شعراء وفدوا إلى مصر

من هؤلاء : الناشئان الأكبر والأصغر ، وقد عاش الناشىء الأكبر فى مصر يدرس العلوم ومات سنة ٢٩٣ واسمه أبو العباس عبدالله بن محمد وكان ميلاده بالأنبار ، أما الناشىء الأصغر فاسمه على بن عبدالله بن وصيف وكان بارعا فى علم الكلام ، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجالسه فى الكوفة ووفد على سيف الدولة ومدحه ، وقصد كافورا بمصر مادحا له وكان ينادم ابن حنزابة ويمدحه وتوفى سنة ٣٦٦ هـ ببغداد ومن شعره ماقاله فى معاملة الصديق :

إنى ليهجرنى الصديق تجنبا — فأريه أن لهجره أسبابا

وأخاف إن عاتبته أغريته — فأرى له ترك العتاب عتابا

واذا بليت بجاهل متعاقل — يدعو المحال من الأمور صوابا

أوليته منى السكوت ، وربما — كان السكوت عن الجواب جوابا

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر كشاجم أبو الفتح محمود بن الحسين وهو من الرملة وكانت خاضعة لحكم مصر ، وزار مصر مرارا وهو القائل :

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى — فاليوم عدت وعادت مصر لى دارا

---

(١) ٢ : ١٢٥ (٢) ١٨٥ : ٧ معجم الأدباء

وكان يلهو بمصر ، ويقضى أيامه فى الأديرة . وقد هجا كشاجم كافورا أخيرا ، وهجا القاضى عبدالله بن محمد الخصيب م ٣٤٧ هـ ، وكان يقول عن نفسه :

على أنى نبى الشعر قد جئت على فترة

ووفد على مصر كذلك الشاعر أبو الفيض سوار بن شراعة وكان صديق ابن الداية ، وهو الذى أذاع شعر ابن الداية فى العراق .

هذا ومن نماذج الشعر فى هذا العهد هذه الأبيات ، التى قالها أبو الحسن محمد ابن الوزير الحافظ وكان قد أهدى إلى الإخشيد خاتما :

وذى عنق لم يطل عليه ولم يقصر
ومتنين قد خصرا على قدر الخنصر
وقد زاد فى ضمره على الفرس المضمر
وأسفله فضة وأعلاه من جوهر
بعثت به معسرا إلى ملك موسر
ولا غرو أن يهدى الـ ـمقل إلى المكثر

الأدب فى ظلال الدولة الفاطمية

٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٨ - ١١٧١ م

تمهيـــد

ظلت شيعة على كرم الله وجهه بعد مقتله تتوارث الدعوة إلى خلافة آل البيت ، لإعادة الملك والخلافة للعلويين ، جيلا بعد جيل ، وسيدا بعد سيد ، ذاهبين إلى أن الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا أن ذلك الإمام هو المهدى المنتظر ، الذى يبيد المغتصبين ، ويحيي مجد بيت رسول الله .

وفى عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م ذهب أحد دعاة الشيعة ، واسمه أبو عبد الله الشيعى إلى بلاد البربر بشمالى إفريقية ، داعيا لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح فى دعوته ، وطرد الأمير الأغلبى الحاكم لتلك البلاد ، التابع للدولة العباسية ، وذلك عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م ، وأعلن أن الخليفة الحقيق للمسلمين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه عبيد الله ، الملقب بالمهدى ، من نسل السيدة فاطمة بنت الرسول ، ولذلك سميت سلالته بالفاطميين .

وبذلك قامت الدولة الفاطمية ، وحكم عبيد الله بلاد المغرب ، وظل ملكا عليها مدة كبيرة (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ — ٩١٠ - ٩٣٤ م) كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالى على جزيرة صقلية ، وجاهد فى سبيل نشر الدين ومحاربة البدع فى تلك البلاد ، وكان من أكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش ، ولكنها أخفقت ، وشغل عبيد الله بالأمور الداخلية باقى حياته حتى أدركه الموت .

وفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م خلفه ابنه الأكبر القائم بأمر الله وأبو القاسم محمد ، فبذل غاية همته فى توسيع نطاق ملكه ، وأرسل أسطولا أغار على شواطئ إيطاليا وفرنسا والأندلس ، وأرسل جيشا إلى مصر هزمه الإخشيد ، ووطد ملكه فى شمال إفريقية .

وخلفه « المنصور إسماعيل » سنة ٣٣٣ هـ — ٩٤٥ م ، فسار فى الملك سيرة أبيه نحو سبع سنوات .

ولما مات خلفه ابنه « المعز لدين الله أبو تميم معد » سنة ٣٤١ هـ — ٩٥٣م ، فكانت أيامه مبدأ عصر جديد فى تاريخ الفاطميين ، وكان مثقفا ثقافة عالية ، سياسيا داهية ، وطد ملكه فى بلاد المغرب ، فدانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراكش بأكلها حتى شواطىء المحيط الأطلسى . . ثم صرف همه لفتح مصر ، لحفر الآبار ، وبنى أماكن للاستراحة فى الطريق الموصل إليها ، وكانت مصر وقتئذ فى اضطراب لحقها عقب وفاة كافور ، ولم يكن فى وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصد غارات القرامطة ، وكان دعاة المعز ينشرون دعوتهم فى أنحاء كثيرة من القطر المصرى . . . ووكل المعز قيادة الجيش الفاتح إلى أكبر قواده ، وهو جوهر الصقلى الرومى الأصل ، وكان تحت إمرته مائة ألف مقاتل مزودين بالآلات الحربية ، وبالمال الكثير .

جوهر الصقلى فاتح مصر :

ولد جوهر بجزيرة صقلية نحو عام ٣٠٠ هـ ، ومع أنه رومى الأصل إلا أنه نشأ فى صقلية نشأة إسلامية خالصة ، فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ، ويرجح المؤرخون أن أباه كان مسلما(١) .

واتصل جوهر ببلاط المعز ، ويبدو أنه كان فى حاشيته العسكرية ، وقد قربه الخليفة الفاطمى ، لما توسمه فيه من الإخلاص للدين ، ولمواهبه الفذة وثقافته الواسعة ، وظل يتدرج فى سلك المناصب فى دولة المعز ، حتى اتخذه المعز كاتبا له عام ٣٤١ هـ — ٩٥٣ م ، وهى السنة التى ولى المعز فيها الخلافة ، ثم رقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ ، وولاه قيادة جيش كثيف لتوسيع ملك المعز فى شمالى إفريقية ، وقد انتصر جوهر ، وتوغل فى فتوحه حتى وصل إلى شاطىء المحيط الأطلسى .

ولما فكر المعز فى فتح مصر أسند لجوهر قيادة الجيش الفاتح ، ولما رحل جوهر من القيروان إلى مصر فى يوم السبت ١٤ ربيع الثانى عام ٣٥٨هـ — فبراير

---

(١) تاريخ جوهر الصقلى لعلى إبراهيم حسن ط ١٩٣٣

٩٦٩ م ، خرج الخليفة لتوديعه بنفسه ، وقال : والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خـــرابات ابن طولون ، ويبنى مدينة تقهر الدنيا ، وأنشـــد ابن هانىء الأندلسى المعز قصيدته :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رق الصبـــاح الملمع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فأل بالذى أنت تجمـع
فإن يك فى مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر إلى برقة ، ومنها سار حتى دخل الاسكندرية فى رجب ٣٥٨هـ ، ثم استمر فى سيره فدخل مصر وقت الزوال من يوم الثلاثاء ١٧ شعبان عام ٣٥٨هـ بناء على صلح عقد بين المصريين والفاطميين ، وجاء فى وثيقة الصلح الرسمية[1]: أنه يتعهد بـ « نشر العـدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ورفع الحزن ، والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والإحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف العشرة وافتقاد الأحـوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم الخ » .

واتصل نبأ الفتح بالمعز فسر سرورا عظيما ، ونظم ابن هانىء أمامه قصيدته :

تقول بنو العباس . هل فتحت مصر ؟ ... فقل لبنى العباس : قد قضى الأمر

وأخذ جوهر يعمل على بث الدعوة للمعز الفاطمى فى مصر خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة ، واختط مدينة القاهرة المعزية ، وبنى الأزهر الشريف ، وصار جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر مراكز للدعاية لعقائد العلويين

(١) ٦٧ — ٨٠ اتعاظ الحنفا .

الفاطميين ودعوتهم ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يدى داعى الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

خطب للمعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م ، وكان ذكر المعز فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسى حادثا خطيرا فى تاريخ مصر ، وفى يوم الجمعة ١٨ من ذى القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت وزاد فى الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين » . . . وفى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ صلى جوهر بجامع ابن طولون وأذن المؤذنون : « حى على خير العمل » . . أما الجامع الأزهر فقد كان أهم مركز للدعوة الفاطمية .

ولا ننسى أن نذكر أن جوهرا قد وضع أساس المدينة الجديدة « القاهرة المعزية » فى الليلة التى دخل فيها مدينة الفسطاط ، أى فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ — ١٧ يوليو ٩٦٩ م وأقام فيها قصر الخليفة المعز ، ووضع أساسه فى اليوم التالى . . وتشمل القاهرة المعزية على مارواه المقريزى أحياء : الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ، وكانت بولاق هى ميناء القاهرة ، وقد أصبحت بولاق بعد ذلك بمدة كبيرة مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ هـ ، عندما أمر الملك الناصر بعمارتها وبنى بها الدور على شاطىء النيل فسكنها الناس وعمروها . وقد جعل جوهر للقاهرة أربعة أبواب هى بابازويلة وباب النصر وباب الفتوح .

وبعد ذلك رحل المعز من مدينته المنصورية(١) ، ودخل القاهرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ — نصف يونيو ٩٧٣ م ، وظل ملكا على مصر حتى توفى عام ٣٦٥هـ ، وتوفى بعده جوهر بمدة كبيرة ، وذلك عام ٣٨١هـ (٢٠ : ١ ابن خلكان) .

---

(١) راجع الحديث عنها فى كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقريزى ٣٦٦ ج ١ . وهذا الاسم أطلقه اسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين على مدينة « صبرة » وتتصل بالقيروان ، وقد بناها المنصور الفاطمى فى سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية (ص ٢٥ البكرى) .

المعز الملك الفاطمى :

هو الخليفة الفاطمى الرابع ، ينتسب إلى رسول الله عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، وإلى على بن أبى طالب ابن عم الرسول .

ولد بمدينة المهدية قرب القيروان ، وهى عاصمة الفاطميين ، وذلك فى ١١ رمضان سنة ٣١٧ هـ ، وأمه أم ولد . وربى تربية عاليـــة ، وكان ولى عهد أبيه المنصور ، وولى الخلافة عام ٣٤١ هـ . . وفى عام ٣٤٨ فتحت جيوشه بقيادة جوهر مصر .

خرج المعز من المنصورية دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١ هـ : ٥ أغسطس عام ٩٧٢ . . ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان ٣٦٢ هـ : ٢٩ مايو ٩٧٣ م .

وقد دخل القاهرة عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م ، وتوفى فى ١٤ ربيع الثانى ٣٦٥ هـ - ٢٠ ديسمبر ٩٧٥ م ، بعد أن وسع دولته ، وصبغها بصبغة عالية من الحضارة والرقى والنهضة ، وكانت القاهرة بعد إنشائها عاصمة ملكه الضخم .

كان نقش خاتم المعز يحمل شعاردولته وهو : « لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام معد ، لتوحيد الإله العظيم دعا الإمام أبو تميم » .

وقد وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين : أحدهما مصرى والآخر مغربى .. وكان عهده على قصره من أزهى عصور مصر وأزهرها ، وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة إذ ذاك تسمى : « المدينة » ، وكانت فى الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بها من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفى لاستعراض ١٠٠٠٠ جندى ، وكان ثروة الأسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق مايتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها ما يعادل ٢٠٠٠٠٠٠ ديناراً ، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير كثيرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضى مطعم .

وقد بذل « المعز » غاية وسعه فى استجلاب محبة الناس واحترامهم له ، بعدله ، وحسن إدارته ، التفاته إلى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له إرساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء فى المدينة بعد الغروب ، اجتناباً لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألغى

نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التي كانت تلحق بالبلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين .

وكان للمعز عدة أبناء ، ومن بناته رشيدة بنت المعز ، وعبدة بنت المعز[١] .

وقد خلف المعز ابنه العزيز بالله أبا منصور نزار[٢] ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ : ٩٧٥ — ٩٩٦ م ، وكان يعقوب بن كلس أكبر وزرائه .

وبعده تولى حكم مصر الحاكم بأمر الله أبو علي منصور ٣٨٦ - ٤١١ هـ : ٩٩٦ — ١٠٢١ م ، وقد مات مقتولا .

وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على ٤١١ - ٤٢٧ هـ : ١٠٢١ — ١٠٣٦ م .

وتولى بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ : ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م . . وظل الفاطميون يتوارثون حكم مصر[٣] ، حتى انتهى ملكهم منها عام ٥٦٧ هـ .

تشييد الأزهر :

الأزهر بيت العلم العتيق ، ومثابة الثقافة الإسلامية ، حمل لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الإسلامي قروناً متصلة ، وحفظ التراث الإسلامي ديناً ولغة من عاديات الزمن ، ونشره على الآفاق ، ولم يبخل به على أي طالب علم قصده من مشارق الأرض أو مغاربها . وقد ظل الأزهر طوال ألف سنة — وما يزال حتى اليوم — كعبة العلم والدين ، ومعقد آمال المسلمين ، وقد تخرج فيه أفواج وأفواج من جلة العلماء وانتشروا في بقاع الأرض ، وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التي تزودوا بها في الأزهر ، فأضاءوا الأرض علماً ونوراً وتقى .

---

(١) ١١٤ ج ٥ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان .

(٢) ولد في المهدية عام ٣٤٤ هـ .

(٣) وهم : المستعلي بالله (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ) ، والآمر بأحكام الله المنصور (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) ، ثم الآمر بأحكام الله عبدالمجيد (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ، ثم الظافر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) ، ثم الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد (٥٥٥ — ٥٦٦ هـ) .

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » ، وشرع في بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأولى[١] سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ - ٢٢ يونيو ٩٧٢ م ، وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية ، ومنبراً للدعوة التي حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وقد كتب بدائرة القبة التي في الرواق الأول وهي على يمين المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة : « مما أمر ببنائه عبدالله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي ، وذلك في سنة ستين وثلثمائة » .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر ، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور فخمة ، تسمى بالقصور الزهراء ، أو لأنه يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع فخامة ورواء ، أو للتفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا .

وضع يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ الحجر الأساسي له ، وظل العمال والمهندسون يعملون في بنائه عامين تقريبا حتى جاءت أول جمعة رمضان سنة ٣٦١ هـ ، فجمعت فيه ، باحتفال رسمي هائل ، تجلت فيه أبهة الملك وسؤدده وعظمته ، التي اشتهر بها الفاطميون أكثر من سواهم . ويصف المقريزي لنا هذا الاحتفال وصفا شائقا يفيض روعة وجلالا .

وبعد أن استقر سلطان المعز ، وتم بناء المعقل الذي أقامه للدعوة ، أفرغ جهده في إحكام دولته وتنظيمها ، ووفق في ذلك أكثر توفيق وقطع المعز الفاطمي كل علاقة بينه وبين الخليفة العباسي ، وقضى على كل صلة روحية له في مصر ، فقصر التدريس في الأزهر على المذهب الفاطمي في الفقه ، وتعاليم الفقه ، وتعاليم الشيعة في الدين والفلسفة والتوحيد ، واستجلب لهذه الدراسة أكابر العلماء وفطاحل الفقهاء في عصره ، وكان عددهم ثلاثين عالما ، أجزل لهم العطاء وبنى لهم منازل فخمة ألحقت بالأزهر فيما بعد ، وصارت من أروقته ، وشرعوا يدرسون

---

(٤) يذكر بعض المؤرخين أنه شرع في بنائه في يوم السبت الرابع من شهر رمضان عام ٣٥٩ هـ (٢٧٣ ج ٢ المقريزي ، ٣٦٤ ج ٣ القلقشندي) .

ويتفقهون فى مذاهب الفاطميين وتعاليمهم ويهدمون بذلك المذاهب الأخرى التى كانت شائعة فى بغداد مقر الخلافة وسائر البلاد الاسلامية ، وكانت هذه النخبة الممتازة من الأساتذة وعلى رأسها كبير العلماء « أبو يعقوب قاضى الخندق » سببا من الأسباب التى جعلت الأزهر يصبح قبلة كل طالب من أقاصى الأرض بعد أن ذاع صيته فى الآفاق . وذكر المقريزى أن أول مادرس فى الأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة ، فإنه فى صفر سنة ٣٦٥ هـ جلس قاضى مصر « أبو الحسن على بن النعمان بن محمد بن حيون » وأملى مختصر أبيه فى الفقه على مذهب أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار ، وكان جمعاً عظيما أثبتت فيه أسماء الحاضرين . . فكأن الأزهر على ذلك ظل معطلا منذ افتتاحه أربع سنوات من التدريس حتى جاء صفر سنة ٣٦٥ هـ وافتتحت الدراسة فيه باجتماع عظيم حضره كثيرون ، وقيدوا أسماءهم .

واستوزر (المعز) وابنه (العزيز) من بعده الوزير يعقوب بن كلس(١) ، وهو يهودى الأصل ثم أسلم ، ولعل الخليفة تخيره لما اشتهر عن اليهود من الحذق فى الدعاية وإتقانها ، وقد نشط الوزير فألف كتابا فى الفقه ، يتضمن ما سمعه من الخليفة المعز وابنه من بعده . وهذا الكتاب مبوب على أبواب الفقه الفاطمى ، وكان يقرؤه على الناس ، وكان يجلس بنفسه يوم الجمعة يقرأ على الناس فى مجلس خاص به مصنفاته ، كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل .

وهكذا اتخذ الأزهر أول ما أنشىء مسجدا لعبادة الله والدعاية للفاطميين ودولتهم ، ثم عقدت فى جنباته حلقات الدروس العامة ، فكان الأساتذة من فقهاء الشيعة يجلسون لإلقاء دروسهم على كل من يحضرها فى الفقه واللغة والأدب والمنطق والطبيعيات والرياضيات .

وأول كتاب قرئ فى الأزهر على ماذكرناه هو « الاقتصار » فى فقه آل البيت

---

(١) كان يعقوب يهوديا ، ولد فى بغداد ورحل إلى مصر عام ٣٣٤ هـ واتصل بكافور ، وأسلم فى شعبان عام ٣٥٦ هـ ثم سار إلى المغرب واتصل بالمعز ، وكان رائدا لجيشه فى فتح مصر وظل وفيا لدولة المعز إلى أن ولى الوزارة بعده (٣٩١ — ٣٩٧ ج ٣ ابن خلكان) .

لأبي حنيفة النعمان بن أبي عبدالله بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله ، وكان مالكي المذهب ثم انتحل المذهب الاسماعيلي فأخلص له ، وكان من دعائم الدعوة الفاطمية . وكتابه « الدعائم » من أصول المذهب الاسماعيلي ، ونهج على منهاجه الوزير يعقوب بن كلس في كتابه « مصنف الوزير » وله كتاب اسمه « مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الأطهار[1] » ، ومن كتبه أيضا : « الينبوع » « والمجالس والمسايرات . وتوفى النعمان هذا في شهر جمادى الآخرة عام ٣٦٣ هـ ، وصلى عليه المعز لدين الله .

وكان يتولى دراسة كتاب « الاقتصار » في الأزهر ابن النعمان واسمه أبو الحسن على بن النعمان[2] . . وكتبه الأخرى كان بعضها يقرأ في الأزهر ، والبعض الآخر يقرأ في حلقات خاصة للذين يريدون التخصص في فقه الشيعة والدعوة الفاطمية .

وظل الجامع الأزهر مثابة لحلقات الدروس يلقيها بنو النعمان حتى سنة ٣٦٩ هـ، إذ بدأت حلقات الأزهر تتحول إلى دراسة جامعية منظمة مستقرة ، فقد بدأ يعقوب ابن كلس وزير المعز لدين الله يقرأ بانتظام فيه كتابه المعروف بالرسالة الوزيرية في الفقه الشيعي ، وكان يجلس بنفسه لقراءته في الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع لسماعه سائر الفقهاء والقضاه والأدباء وأكابر القصر ورجالات الدولة والدعوة ،

---

(١) منه نسخة خطية في الفاتيكان رقم ٥ — ١١٠٤ .

(٢) كان على شيعيا غاليا ، وشاعرا مجودا (٤٨ جـ ٣ شذرات الذهب) وتوفى أبو الحسن هذا عام ٣٧٤ هـ — فولى القضاء بعده أخوه أبو عبدالله محمد وتوفى عام ٣٨٩ (٥٥ جـ ٤ ابن خلدون) .

ولأبي الحسن على بن النعمان شعر في اليتيمة (٣٨٤ و ٣٨٥ جـ ١) . . وكذلك لأخيه القاضي أبي عبدالله محمد بن النعمان شعر (٣٨٥ و ٣٨٦ جـ ١ اليتيمة) .

وكان أبو الحسن على بن النعمان أول من لقب بقاضي القضاة في مصر (٩١ جـ ٢ حسن المحاضرة) .

وكان على بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثاني خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، إلى أن قلد القضاء بالديار المصرية ، والشـــام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع مملكته .

وكانت تمتاز حلقات ابن كلس بتحررها من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الأهداف العلمية ، وبذلك كانت أول مجالس جامعية عقدت بالجامع الأزهر .

وفى عام ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها ، وكان رئيسهم ومنظم حلقاتهم هو الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية وأنشأ لهم دار للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم فى يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضاً رزقا من ماله الخاص(١).

وفى عام ٣٨٠ هـ رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ، وبذلك صار الأزهر معهدا جامعيا للعلم والتعليم والدراسة ، وكان هؤلاء الأساتذة الذى رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله أول الأساتذة المدرسين الذين عينوا بالجامع الأزهر الشريف ، ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته الجامعية العلمية الصحيحة . . وفى الحق أن هذا يدل على أن ابن كلس كان وزيرا عظيما وعالما جليلا وأديباً كبيراً .

وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء(٢)، وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك فى أعمالها . ويغدق العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن فى التأليف والكتابة فوضع كتابا فى القراءات ، وكتابا فى الفقه ، وكتابا فى آداب رسول الله ، وكتابا فى علم الأبدان والصحة ، ومختصراً فى فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله . وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلهم ، وكانت موائده دائماً منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلات والإحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب مفخرة فى جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة فى يده :

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمت رأيت فى كل شىء ذلك الألما

(١) صبح الأعشى عن المسبحى ٣٦٧ ج ٣ ، وخطط المقريزى ص ٤٩ ج ٤ .

(٢) ٤٧ تاريخ الأزهر لعنان .

تأمل الملك وانظر فرط علته   من أجله رواسأل القرطاس والقلما

ومرض ابن كلس فى شوال سنة ٣٨٠ هـ ، فجزع عليه العزيز أيما جزع ، ولبث يعوده ويرعاه ، حتى توفى فى الخامس من ذى الحجة ، فحزن عليه حزناً شديداً ، وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره فى موكب صامت محزن ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكى بدمع غزير ، واحتجب فى داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته ، والحزن يشمل الخاصة والقصر كله . وأفاض الشعراء فى رثاء الوزير الراحل ومديحه ، فوصلهم العزيز جميعاً ، وعلى الجملة فقد سما ابن كلس فى ظل الدولة الفاطمية إلى أرفع مكانة . . ومهما كان فإن تلك الخطوة الأولى فى ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ، كان لها أثر كبير فى تطور الغاية التى علقتها الخلافة الفاطمية بادىء ذى بدء على إنشاء الجامع الأزهر ، فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبراً لدعوتها(١) .

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالباً . ولم يشجع هؤلاء بما رأينا فحسب ، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع ، فيحدثنا المقريزى أن العزيز بالله «خلع عليهم فى يوم عيد فطر وحملهم على بغلات» . ولم يكن الأزهر فى ذلك العهد مقصوراً على الرجال فحسب ، بل كان للمرأة نصيب فكن يفردن فيه بمجلس خاص(٢) .

وهكذا آلت تلك الحركة العلمية الميمونة إلى الأزهر ، وازدهرت فيه وترعرعت حتى تخرج فيه أئمة فضلاء ، وشيوخ أجلاء ، خدموا الإسلام والمسلمين بالتأليف تارة ، وبالتدريس أخرى ، حتى أصبح مفخرة العالم الإسلامى عامة ، ومصر خاصة .

ولقد عالجت هذه الجامعة الكبرى علوم الدين ، فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها ، واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهذبت طرقها ، وأصلحت شأنها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، مضطلعة بمهمتها ، حتى نبه ذكرها وذاع

---

(١) راجع فى هذا البحث وما يتعلق به : خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج٤ ص ٤٩ ، ١٥٦و١٥٨، ١٥٧ ، ج٣ ص ٧ — ١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص ٢٣ .

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦ .

صيتها ، وأمها الطلاب من كل فج ، ليغترفوا من منهلها ، ويستضيئوا بنورها ، وانحدر إليها العلماء من كل صوب ، ليسهموا في النفع بها ، ونشر آثارها ، فازدهرت فيها أنواع العلوم والفنون ، وأمدت العالم الإسلامي بما هو في حاجة إليه .

ولقد كان الأزهر الشريف منذ نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين : يتعهدونه بالعناية والرعاية ، ويغدقون على من به من العلماء والطلبة العطايا والهبات ، ويذهبون إليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حاله ، مما كان له الأثر البالغ في حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للعلم .

وكان المسجد منذ نشأته يسمى جامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة ، وقد تكون تسميته بالجامع الأزهر قد تأخرت قليلا عن التسمية الأولى ، ويرجح عنان[1] أن اسم « الجامع الأزهر » أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية في عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمي اسم الجامع الأزهر ، واستمر مسجد القاهرة الجامع يعرف باسم جامع القاهرة[2] أو الجامع الأزهر ، حتى عصر المقريزي في أوائل القرن التاسع ، ثم تقلص الاسم القديم ـ جامع القاهرة ـ شيئاً فشيئاً وغلب عليه اسم الجامع الأزهر ، أو جامع الأزهر حتى عصرنا .

إنشاء المكتبات :

هذا وقد عنيت الدولة الفاطمية عناية خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمي مكتبة جامعة يفيض المؤرخون كما يقول عنان في وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ، وكان بها ما يزيد على مائتي ألف مجلد في سائر العلوم والفنون ، في الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب والطب والكيمياء والفلك وغيرها . وقال ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر : « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن

---

(١) ٢٠ تاريخ الجامع الأزهر لعنان .

(٢) ورد في أخبار العزيز بالله أنه أقام طعاما في جامع القاهرة ـ وهو الأزهر الشريف ـ لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان .

فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر » [١] .

وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد كبير من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة [٢] وكانت فى الواقع خلفاً لمكتبة الاسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الأزهر مكتبة خاصة به ، وكانت المساجد الجامعة تزود فى هذه العصور بمجموعات من الكتب ولا سيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الأزهر كان له من خزائن الكتب نصيب حسن ، إذ كانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة .

إنشاء دار الحكمة :

وفى عصر الحاكم [٣] استمر الأزهر يؤدى مهمته العلمية ، وإن كان الأزهر فوجئ بإقامة الخليفة جامعة جديدة سماها « دار الحكمة » أو دار العلم الشهيرة فى سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م .

ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التى أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ، ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فإنهـــا لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها فى الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحوالها ، وضعف نفوذها العلمى ، هذا بينما كان الأزهر يسير فى سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطى بطيئة ، ولكن محققة ، ويسير فى نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقـة التى كادت فى البداية أن تقضى على صبغته الجامعية الصحيحة . وكانت دار الحكمة يدرس فيها علوم الدين والأدب والفلسفة والطب والنجوم والرياضة .

وقد وقف الحاكم وقفية على الأزهر ودار الحكمة وغيرهما من المساجد ، ومنها: جامع الحاكم ، وجامع المقس ، وجامع راشدة ، لإقامة الشعائر الدينية فيها ،

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣-٢٥٥ . ولعله لم يفق المكتبة الفاطمية فى ضخامتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التى بلغت ذروتها فى عهد الحكم المستنصر بالله . وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستمائة ألف مجلد .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٣٣٤ .

(٣) ولد بالقاهرة عام ٣٧٥ هـ وتولى الخلافة عام ٣٨٦ هـ وقتل عام ٤١١ هـ .

وصيانة مبانيها ، ولبثت دار الحكمة تنافس الأزهر قرنا من الزمان ثم أغلقت وكان من أساتذتها الرحالة الفارسي ناصري خسرو .

أعلام الثقافة فى العصر الفاطمى :

من علماء المغاربة الذين حضروا إلى مصر : النعمان بن محمد الذى تولى القضاء فى مصر هو وأولاده وأسرته عهداً طويلا فى ظلال الحكم الفاطمى ، وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبالدعوة والتأليف فى المذهب الشيعى ، وتتخذ من الأزهر مكانا مختاراً لنشاطها العلمى ، وكذلك ابن كلس الذى أشرف على تنظيم الأزهر تنظيما جامعيا علميا عاليا .

ومن أشهر العلماء الذين شهدوا عصر المعز والعزيز : ابن زولاق المصرى المؤرخ[1] (٣٠٦ — ٣٨٧ هـ) ، وعبد الغنى المصرى (٣٣٢ — ٤٠٩ هـ) وكان حافظ مصر فى عصره [2] ، والحسن بن الهيثم المصرى الفيلسوف[3] واشتهر بعد عصر العزيز وتوفى عام ٤٣٠ هـ ، وابن يونس المصرى المنجم المتوفى عام ٣٩٩ هـ[4] ، والحوفى النحوى المتـــوفى عام ٤٣٠ هـ[5] ، والأدفوى تلميذ النحاس وتوفى عام ٣٨٨ هـ .

ومن الأدباء والشعراء فى هذا العهد أبو الرقعمق المتوفى عام ٣٩٩ هـ الشاعر[6] وابن وكيع الشاعر المتوفى ٣٩٣ هـ[7] ، والتهامى الشاعر المتوفى عام ٤١٦ هـ[8] والمسبحى المصرى الكاتب (٣٦٦ — ٤٢٠ هـ)[9] ، وأبو القاسم [10] عبد الغفار شاعر دولة العزيز والحاكم وقتله الحاكم عام ٣٩٥ هـ .. ولا شك أن هؤلاء الأدباء والشعراء كانوا يحفلون بإلقاء ثمرات قرائحهم على تلاميذهم فى حلقات الأزهر

---

(١) ٢٣٨ جـ ١ ابن خلكان ، ٢٢٥ — ٢٣٠ جـ ٧ معجم الأدباء . . وله كتاب فى سيرة المعز وآخر فى سيرة العزيز . (٢) ٥٢٧ جـ ١ ابن خلكان .

(٣) ١١٤ و ١١٥ أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى .

(٤) ٨٥ و ٨٦ جـ ٢ ابن خلكان . (٥) ٦ جـ ٢ المرجع نفسه .

(٦) ٧ و ٧١ جـ ٢ المرجع نفسه ، ٣١٠ — ٣٣٤ جـ ١ من اليتيمة .

(٧) ٢٤٣ و ٢٤٤ جـ ٢ المرجع نفسه ، ٣٥٦ — ٣٨٤ جـ ١ اليتيمة .

(٨) ٥٣ — ٥٥ جـ ٢ المرجع نفسه (٩) ٣٤٢ — ٣٤٣ جـ ٢ المرجع نفسه .

(١٠) ٢٩٦ جـ ٣ المرجع نفسه .

العلمية الحافلة[١] .

ومن أعلام الفكر والأدب فى هذا العصر المسبحى الكاتب والمؤرخ الشهير ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ ، وتوفى سنة ٤٢٠هـ . وكان من أقطاب الأمراء والعلماء ، تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وأخذ بقسط من مختلف علوم عصره ، ومن المعقول أن يكون المسبحى وهو من أولياء الدولة الفاطمية وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين : دار الحكمة والأزهر . وشغف المسبحى بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » وهو أثر ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والعجائب ، وذكر نيلها وإقليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ، ولم يصلنا هذا الأثر الذى يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يدى المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته . وكتب المسبحى كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم نتلق شيئاً منها[٢] .

ومنهم أبو عبد الله القضاعى الفقيه المحدث والمؤرخ ، وهو محمد بن سلامة بن جعفر : ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ . وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا قيصرة قسطنطينية سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ ، منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث وكتاب « مناقب الإمام الشافعى » و « أنباء الأنبياء » و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره[٣] .

---

(١) ويروى أن النساء كن يحضرن فى الجامع الأزهر (٢٢٦ ج ٢ الخطط للمقريزى) . (٢) راجع فى ترجمة المسبحى : ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ . (٣) راجع فى ترجمة القضاعى : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ . والسبكى فى طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ .

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى . وهو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد ، وكان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل مدة طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتبا كثيرة فى النحو والأدب ، منها كتاب «إعراب القرآن» ، وكانت وفاته فى سنة ٤٣٠ هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ هـ .

ومنهم القيروانى المتوفى سنة ٤٠٩هـ . وابن برى م ٤٩٩هـ ، والشاطبى م ٥٩٠هـ والقزاز .

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو وألف فيهما عدة كتب ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الإنشاء فى عهد المستنصر بالله وتوفى سنة ٤٦٩ هـ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى تلميذ القضاعى . كان أيضا من أئمة اللغة والنحو وتوفى سنة ٥٢٠هـ .

وابن القطاع النحوى المتوفى عام ٥١٥هـ .

جوانب من الحياة الفكرية فى هذا العصر

كان العصر الفاطمى أحفل عصور مصر القديمة بالعلماء والفكرين والأدباء والشعراء ، وسنذكر بعض هؤلاء ممن لم يسبق ذكرهم فى إيجاز شديد :

من الأطباء فى هذا العصر أبو الحسن على بن رضوان وكان طبيبا عالما بالعلوم الحكمية ومايتعلق بها وتوفى عام ٤٥٣ هـ ، وترك نحوا من مائة كتاب ؛ وكذلك شرف الدين عبدالله بن على وكان شيخ الطب ومات عام ٥٩٢ هـ .

ومن الفلاسفة أمية بن أبى الصلت الأندلسى[١] زار مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن نفاه الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٩ هـ ، وله « الرسالة المصرية » وصف فيها مصر جغرافيا ، وعرض لبعض المدن المصرية ، وتحدث عن النيل ومتابعه وزيادته ونقصانه ، وكان مولده عام ٤٦٠ هـ ، وتوفى عام ٥٢٨ هـ .. ومن الفلاسفة كذلك الرشيد بن الزبير الأسوانى وكان مع ذلك شاعرا توفى سنة ٥٦٣ هـ ؛ والقطب المصرى أبو إسحاق إبراهيم بن على وله كتب كثيرة فى الطب والحكمة قتل عام ٦١٨ هـ .

ومن الأعلام فى الفقه المالكى القاضى عبدالوهاب بن على بن نصر ، مات بمصر سنة ٤٢٢ هـ[٢] . وكان الحسن بن الخطير من فقهاء الحنفية مات سنة ٥٩٨ هـ ، ونبغ فى القراءات محمد بن سراقة الشاطبى (٥٩٢ — ٦٦٢) ودفن بسفح المقطم وقد تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة .

ومن الأعلام فى الحديث عبدالغنى بن سعيد الأزدى (٣٣٢ — ٤٠٩ هـ) ، وأبو نصر السجزى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، والمحدث أبو إسحاق ابراهيم بن سعيد النعمانى (٣٩١ — ٤٨٢ هـ) ، والساقى أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهانى وكان أوحد زمانه فى الحديث (٤٧٠ — ٥٧٦ هـ) . وعبدالغنى بن عبدالواحد الحنبلى الحافظ

---

(١) ٢٨٠ : ٦ نفح الطيب .

(٢) ١٢٦ : ١ حسن المحاضرة

(٥٤١ — ٦٠٠ هـ) ، والمنذرى أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوى (٥٨١ — ٦٥٦هـ) ، وابن العماد (٦٠٧ — ٦٧٣ هـ) .

ومن النحويين كما سبق ابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ ، وابن القطاع (٤٣٣ — ٥١٥ هـ) ، وهو على بن جعفر بن محمد عبدالله بن الحسين بن أحمد بن محمد ابن زيادة الله بن محمد بن الأغلب السعدى بن ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجة بن عبدالله بن عباد من سعد بن مالك من زيد مناة بن تميم بن مر من مضر المعروف بابن القطاع الصقلى ؛ وكان امام وقته بمصر فى علوم العربية وفنون الأدب . ومن كتبه : تاريخ صقلية — الأفعال — أبنية الأسماء — الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة ، دفن بقرب ضريح الامام الشافعى(١) .

الحسن بن الهيثم :

والحسن بن الهيثم من أظهر شخصيات هذا العصر ، وهو مؤسس علم الضوء الذى يعد من العلوم التى اشتغل ببحثها القدماء من مصريين ويونانيين ؛ وذلك لاتصاله بالفلك ، وقد كان « إقليدس » — العالم اليونانى المشهور — يرى أن السبب فى رؤية الأجسام هو : انبعاث أشعة من العين تسقط على الجسم المبصر ، والأجسام التى لاتقع عليها هذه الأشعة لاتبصرها العين . وهذا الرأى الخاطىء لم يبطله إلا العالم ابن الهيثم ، الذى يعد بحق مؤسس علم الضوء ؛ إذ أن أبحاث القدماء فيه لم تكن وافية ، والموضوعات التى عالجوها لم يتعمقوا كثيراً فى دراستها . أما بحوث الحسن فقد تعددت نواحيها ، وتعمق فى دراستها تعمقاً كبيراً شهد به علماء الإفرنجة ، فترجموا له كتابه عن البصريات أو الضوء المسمى « بالمناظر » . وقد فقد أصل هذا الكتاب العربى ، ولم تبق إلا ترجمته اللاتينية التى قام بها أحد علماء الغرب فى أوربا سنة سبعين ومائتين ألف . ونشرت هذه الترجمة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية . وللحسن كتب أخرى غير كتاب « المناظر » ، فقد ذكر القفطى فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن للحسن نيفاً وستين كتاباً عددها وذكر أسماءها : منها ما يبحث فى علم الضوء ، ومنها ما يبحث فى علم الفلك . ومنها ما يبحث فى الرياضيات ، وفيها المباحث

---

(١) ٣٣١و٣٣٢ بغية الوعاة السيوطى .

المبتكرة التي لم يسبقه إليها أحد ، ومباحث كانت مطروقة من قبل ، فصححها وتوسع فيها ، وكثير من كتب الحسن في دور الكتب بأوربا .

ويقص لنا القفطي قصة حياة هذا الرجل فيقول : « الحسن بن الحسن بن الهيثم أبو علي المهندس البصري نزيل مصر ، صاحب التصانيف والتواليف المذكورة في علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن ، متقناً فيه ، عالماً بغوامضه ومعانيه ، مشاركاً في علوم الأوائل . أخذ الناس عنه ، واستفادوا منه . وبلغ الحاكم بأمر الله الفاطمي صاحب مصر من العلويين — وكان يميل إلى الحكمة — خبره وما هو عليه من الإتقان لهذا الشأن ، فتاقت نفسه إلى رؤيته ، ثم نقل له عنه أنه قال : « لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الإقليم المصري . » فازداد إليه الحاكم شوقاً ، وسير إليه سراً جملة من مال ورغبه في الحضور ، فسافر قاصداً مصر . ولما وصلها خرج الحاكم للقائه ، والتقيا عند قرية على باب القاهرة المعزية ، تعرف بالخندق ، وأمر بإنزاله وإكرامه ، وأقام ريثما استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل . فسار ومعه نفر من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم ، ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له . ولما سار إلى الإقليم ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهي على غاية من إحكام الصناعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ، ومثالات هندسية ، وتصوير معجز ، تحقق أن الذي يقصده ليس ممكناً ، فإن من تقدمه لم يعزب عنهم علم ما علمه ، ولو أمكن لفعلوا . فانكسرت همته ، وضعفت عزيمته ، ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلي مدينة أسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره ، واختبره من جانبيه ، فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ فيما وعد به ، وعاد خجلا منخذلا ، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه . » « وولاه الحاكم بعض الدواوين . فتولاه رهبة لا رغبة ، وتحقق الغلط في الولاية ، فإن الحاكم كان مستهتراً سفاكاً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأخذ يفكر في أمر يتخلص به ، فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخبل ، فاعتمد ذلك وشاع ، فأحيط على موجوداته بيد الحاكم ونوابه ، وجعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك في موضع من منزله . ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم عام اثنى

عشر وأربعمائة من الهجرة (١٠٢١ م) ، وبعد ذلك بيسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، وخرج من داره ، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا متصنعا ، وأعيد إليه ماله ، واشتغل بالتصنيف والإفادة : « وللحسن بحوث فى الانعكاسات والانكسار ، وهو الذى بين أن كثافة الهواء فى الطبقات السفلى أكبر منها فى الطبقات العليا ، وأن الهواء لا يمتد من غير نهاية ، وأنه ينتهى عند ارتفاع معين . وبين سبب انكسار الضوء فى هذه الطبقات : مما ينشأ عنه أن النجم أو الكوكب الذى يرقبه العين يظهر فى موضع أقرب إلى السمت من موضعه الحقيقى ، وعلل كثيراً من الظواهر الفلكية . وأبطل نظرية إقليدس فى سبب رؤية الأجسام وعكسها ؛ فقرر أن الشعاع الضوئى يخرج من الشيء المبصر ويقع على العين . وشرح الحسن كيفية حدوث الرؤية ، وبين فى ذلك تركيب العين وما يؤديه كل جزء من أجزائها من الأعمال ، ودل على ما كان له من باع طويل ، ودراية بتشريح العين وأجزائها ، وقد مات بالقاهرة عام ثلاثين وأربعمائة هجرية (١٠٣٨ م) ، وكان قد ولد بالبصرة عام خمسة وخمسين وثلاثمائة هجرية (٩٦٥ م) . وبذلك عاش نيفا وسبعين عاماً ، قضاها فى خدمة العلوم فى عصر كان العرب والمسلمون فيه قادة النهضة العلمية ، ومن تصانيفهم أخذ أهل الغرب وتقدموا . ، وبدأت النهضة فى بلادهم .

علماء وأدباء :

ومن العلماء فى هذا العصر الطرطوشى صاحب سراج الملوك وتوفى سنة ٥٢٠ هـ بالاسكندرية ، وأصله من الأندلس وكان شاعراً ، قرأ الأدب على ابن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ(١) ، والحافظ أبو الخطاب الأندلسى المحدث (٥٤٧ - ٦٣٣ هـ) ودفن بسفح المقطم ، ويحيى بن سعدون القرطبى من الأئمة المتأخرين فى القراءات والنحو واللغة والحديث (٤٨٦ - ٥٦٧ هـ) ، وقد تتلمذ على أئمة اللغة والحديث فى القاهرة وسواها من العواصم .

ومن الشعراء القاضى الرشيد بن الزبير ، وابن قلاقس الاسكندرى (٥٣٢-٥٦٧هـ) ، ومن الكتاب أبو المنصور بن نسطورس النصرانى حيث كتب للعزيز والحاكم وأبو القاضى النهركى كتب للحاكم ولابنه .

---

(١) ٢٢٢ - ٢٣٢ : ٦ نفح الطيب نشر فريد رفاعى .

ومن الكتاب كذلك ابن خيران أبو محمد أحمد بن على ، ولى ديوان الإنشاء بعد أبيه فى عهد الظاهر نحو عام ٤١٦ هـ وتوفى نحو عام ٤٣١ هـ ، ثم محمد بن أحمد بن محمد العميدى وكتب للمستنصر فى صفر سنة ٤٢٢ هـ وكان نحوياً لغوياً وتوفى سنة ٤٢٣ هـ ، ثم تولى الكتابة بعده على ديوان الإنشاء أبو الفرج الذهلى وأبو الطاهر النهركى ، ثم ولى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى سنة ٤٤٣ هـ .

ومنهم أبو على الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء وقد قتل سنة ٤٨٢ هـ ، ثم ولى ديوان الإنشاء بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٤٥٢ هـ ، ثم ولى الديوان الشيخ على بن منجب بن سليمان الصيرفى (٤٦٣ - ٥٤٢ هـ) ، ثم أبو الفتح بن قادوس المتوفى سنة ٥٥١ هـ ، ومن الكتاب الشعراء أبو على حسن بن زيد الأنصارى ، وعمارة اليمنى .

وآخر من ولى ديوان الإنشاء فى مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال المتوفى سنة ٥٦٦ .

ومن الأدباء أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى الطبيب الشاعر وتوفى فى القاهرة .

النثر الأدبي في العصر الفاطمي

صور من النثر :

١ — من الكتابة السلطانية فصل لابن الصيرفي (١) من كتاب بشارة بالسلامة في ركوب الخليفة الفاطمي إلى مصلى العيد : وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا ، وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها ، وأوجب فيه — رغبة ورهبة — مسارعة النفوس المتخالفة إلى الطاعة وابتدارها ، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر ، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة ، وعدت الإخلاص في خدمته من أوفق الحرمات وأقوى الأذمة (٢) ، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه ، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه ، وقصد المصلى في كتائب لجبة (٣) ومواكب للتعظيم مستوجبة ، وعزة تتبين في الشمائل والصفحات ، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات ، قد غدت عددها محكمة ، وخيولها مطهمة (٤) ، وذوابلها (٥) إذا ظمئت (٦) كانت مقومة ، وإذا رويت (٧) عادت محطمة . تتقلد صفائح متى انتضيت أنصفت

---

(١) هو أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي ، كان من شيوخ الكتاب في دواوين الدولة الفاطمية ، وله عدة مؤلفات منها قانون ديوان الرسائل طبع بمصر . وينقـــل عنه صاحب صبح الأعشى كثيرا من الكتب الديوانية . مات سنة ٥٤٢ هـ .

(٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحق والحرمة .

(٣) الكتيبة : الجيش ، ولجبة : كثيرة الجلبة والأصوات لكثرة عددها .

(٤) المطهم : التام البارع الجمال من كل شيء .

(٥) الذوابل : الرماح الذابلة القنا ، أي الجافة القصب .

(٦) ظمئت هنا : جفت وصلبت .

(٧) وإذا رويت : أي من دماء الأعداء عادت بعد الحرب محطمة لكثرة ما طعن بها .

من الجائر الحائف ، ومتى اقتضبت[١] عملا كان اقتضابها مبيضا للصحائف ، وفى ظلها معاقل للائذين ، وبحدها مصارع للمنابذين ، وهى للدماء هوارق ، وللهامات فوالق ، ولمستغلق البلاد مفاتح ، ولمستفتحها مغالق . ولما انتهى الى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء ، وأداها أفضل تأدية ، واستنزل رحمة لم تزل بصلاته متمادية ، وانتهى إلى المنبر فرقيه ، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه ، ووعظ أبلغ وعظ ، وأبان عما للعامل فى نصحه فى الدنيا والآخرة من [illegible] وحظ ، وعطف على الأضاحى المعدة له ، فنحرها جاريا فى الطاعات على فعلها المتمادى ، وأضحت تتوقع التكميل بإنجاز وعيده فى الأعادى ، فالله يقضى بتصديقه ، ويمن بتخيله وتحقيقه . وعاد إلى قصوره المكرمة مشكورا سعيه ، مضمونا نفعه ، مرضيا فعله ، مشمولا عبيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك ، فاعلم هذا واعمل به ، وكتب فى اليوم المذكور .

٢ — ولابن قادوس[٢] من فصل له من منشور ، مما كان ينشر على الناس بوفاء النيل فى الدولة الفاطمية :

« النعم وإن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر تنشر فى الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك فى النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة : النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجرز[٣] فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس[٤] ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة

---

(١) فى اقتضبت تورية من الاقتضاب بمعنى الاقتطاع ، أو بمعنى الخروج من غرض إلى آخر فى الشعر أو الكتابة .

(٢) هو القاضى كافى الكفاة محمود بن أسعد قادوس من رؤساء كتاب الإنشاء فى الدولة الفاطمية .

(٣) الأرض الجرز : التى أكل نباتها ، ولم يصبها مطر ، فلم تنبت ثانية ، أو هى الأرض التى لا تنبت .

(٤) البسابس : القفار الخالية .

بالجواهر واللجين والعقيان . فسبحان من جعله سببا لإنشار الموات ، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات » .

وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك ، وخلع على القاضي فلان أبي الرداد في يوم كذا وكذا ، وطاف بالخلع والتشريفات ، والمواهب المضاعفات ، بالقاهرة المحروسة ومصر على جاري عادته ، وقديم سيرته ، ونودى على الماء بوفائه ستة عشر ذراعا وإصبعا من سبعة عشر ذراعا ، واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق ، وواصلوا بالشكر مواصلة لا تستوقفهم عنها العوائق ، وبدا من مسرات الأمم وابتهاجهم مايضمن لهم من الله المزيد ، ويتيلهم المنال السعيد ، ويقضى لهم بالمآل الحيد . وموصل هذا الأمر إليك فلان ، فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازه ، وإجمال تلقيه وأفضاله إلى ماجرت به عادة مثله من رجاء وتنويه واحتفاء ، وإكرام واعتناء ، ليعود شاكرا ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

٣ — ومن السجلات التي أنشأها الموفق بن الخلال(١) ، صاحب ديوان الإنشاء ماكتب به عن العاضد بالوزارة لشاور السعدي بعد أن غلبه ضرغام عليها ، ثم كانت له الكرة عليه ، وقد أورده صاحب صبح الأعشى(٢) نقتبس منه مايلي :

إن أمير المؤمنين لما اختصه الله به من المنصب الشريف ، وسما به إليه من المحل الشامخ المنيف ، وفوضه إليه من تدبير خلقه ، وأفرده من اتباع أمره والقيام بحقه ، وناط به من المحاماة عن الملة الحنيفية ، والاجتهاد في أن يشمل أهلها بالحالة السنية ، والعيشة الهنية ، وإعانته في إظهار شعارها ، وتأييده في إظهار علوها على الملك واقتدارها ـ يبذل جهوده في الاستعانة بمن تقوم به حجته عند الله بالاعتماد عليه ، ويتوثق لنفسه في اختيار من يقوم برضا الله في إسناد الأمور إليه ، ويحرص على التفويض لمن يكفي في التدبير ، ويحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير ، تقربا إلى الله بالعمل فيما ولاه بما يرضيه ،

---

(١) هو أبو يوسف بن محمد الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر أيام الفاطميين (راجع ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ٥٣٩) .

(٢) ج ١٠ ص ٣١٠ .

وازدلافا باتباع أمره فى كل ماينفذه ويمضيه ، وقد كان أمير المؤمنين تصفح أولياء دولته ، وعظماء مملكته ، وأكابر شيعته ، وأنصار دعوته ، فوجدك أيها السيد الأجل أكملهم فضلا ، وأقلهم مثلا ، وأتمهم فى التدبير والسياسة إنصافا وعدلا ، وأحقهم بأن تكون لكل رياسة وسياسة أهلا ، ففوض إليك من أمور وزارته ، وعول عليك فى تدبير مملكته ، وجمع لك النظر فيما وراء سرير خلافته ، فجرت الأمور بمقاصدك السعيدة على إيثار أمير المؤمنين وإرادته ، واستمر أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته ، وشملت الميامن والسعود أتم اشتمال على تفصيله وجمله ، وانحسمت الأدواء ، وذلت بسطوتك الاعداء ، وزالت فى أيامك المظالم والاعتداء ، وحسنت بأفعالك الأمور ، وظهر بك الصلاح ، وكان قبل وزارتك قليل الظهور ، فانبسطت الآمال واتسقت الأعمال ، وأقمع الضلال ، وأمنت الأهوال ، وخلصت من الرأى السقيم ، وحظيت بالملك المعقم ، وغدا جندها ورعاياها ببركة رأيك فى النعيم المقيم[1] .

٤ — ومن كتاب للامام العزيز بالله نزار الفاطمى إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطى بالشام فى سنة ٣٦٧ هـ .

« فبعد ماطمع قادة الحين الغالب ، والقدر الجالب ، وماأراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله ، ورحل من بيسان رحيل من استعجلته البلية ، واستدعته الرزية ، فحل بموضع يعرف بكفر سلام ، كافرا بحدود الإسلام متجرئا على الله ، محاربا لنجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها متلددا فى حيرته ، مترددا فى سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه ولؤمه ، إلى أن رحل فنزل بكفر سابا البريد ، فأنبأه اسمها بما حل به من السبى المبيد ، والخزى الشديد » .

وهذا النص يمثل بعض التمثيل حال النثر فى هذا الزمن ، فالسجع فيه ملتزم ، والبديع فيه قليل ، والأسلوب سهل منسجم .

٥ — وكتب فى الدعوة إلى وليمة الكاتب على بن خلف[2] :

---

(١) ٣٢٨/٨ صبح الأعشى .

(٢) من كتاب الإنشاء فى الدولة الفاطمية ، وله فى مصطلح الإنشاء كتاب « مواد البيان » ، وكثيرا ما ينقل عنه صاحب صبح الأعشى .

« ورقمى – أطال الله بقاء سيدى – ومجلسى بمن حله من خدمه ، وتركه من صنائع كرمه ، فلك مزين بأنجمه . فإن رأى أن يطلع فيه بدراً بطلوعه ، وينقل قدمه إليهم ، ويكمل تقصهم بتمامه ، ويضيف ذلك إلى تليد إنعـــامه – فعل ، إن شاء الله تعالى » .

أسباب رواج الأدب والعلم فى العصر الفاطمى:

كان الخلفاء عرباً يهتزون للبـلاغة ، وكان الوزراء والقواد والولاة يقدرون الشعر والشعراء ويجيزونهم الجوائز السنية ، وكانت كذلك ثروة الدولة الواسعة سببا من أسباب رواج الأدب والعناية بأهله ، وقد تم نظام الضرائب الذى وضعه الوزير يعقوب بن كلس فى المحرم عام ٣٦٣هـ ، فأدى إلى رفع مستوى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وإلى زيادة الخراج .

وقد وصف الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، الذى زار مصر ما بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هـ ، فى كتابه « سفر نامه » أو « زاد المسافر » ، ثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه البلاد من يسر ورخاء ، فقال : « إن القاهرة إلى ذلك الوقت كانت تظهر بمظهر القوة ، حتى فاقت غيرها من مدن العالم الإسلامى فى العظمة والعمران . فكانت دورها محكمة البناء ، مبنية بالحجر ، يفصل بعضها عن بعض حدائق غناء ، وأسواقهـــا وحوانيتها ملأى بالطرف النفيسة ، والأهالى يرتعون فى رغد من العيش ، وصار الأمن مستتباً ، لا يخشى أحد سلباً أو تعدياً ، حتى كان التجار لا يحفلون بإغلاق حوانيتهم فى الليل . وكانت الفنادق والحوانيت والحمامات ملكا للخليفة ، ويوجد فى القصر الفاطمى ٣٠,٠٠٠ جارية ، و ١٢ بهواً ، و ١٠ أبواب . وموضع القصر وسط مدينة القاهرة » . وأطنب فى وصف الصـــناعة المصرية فى العصر الفاطمى ، وأوضح أنه لم يجد فى أثناء زيارته للبلاد المصرية ما يحاكيها ولا يدانيها فى جميع الأقطار التى شاهدها فى أسفاره .

ولم تـكن عظمة الفاطميين مقصورة على ما كان يحيط بالخليفة من أبهة وفخامة ، وعلى الثروات الطائلة التى استحوذ عليها الخلفـاء الفاطميون ووزراؤهم ، وعلى نهضة مصر الصناعية فى عهدهم ، بل إن عظمتهم تجلت فى مظاهر احتفالاتهم بالأعياد والمواسم . فقد كان الشعب المصرى يحتفل بأعياده ومواسمه فى العصر الفاطمى : بمظاهر الابتهاج فتقام المآدب ، وتنظم الملاهى ، ويعم الناس الفرح والسرور . وفى هذه

الأعياد والمواسم كانت تضاء الشوارع والحوانيت ، ويحمل الفقراء الفوانيس ، مقابل إعطاء كل منهم درهما . كذلك كانت المساجد تضاء بالمشاعل ، وخاصة فى ليالى الوقود الأربع . وفى كل ليلة منها كان يعقد بالجامع الأزهر مجلس حافل بالقضاة والعلماء برياسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم سائر ألوان الطعام والحلوى .

وفى تلك الأعياد والمواسم ، كان الفاطميون يعنون بتنظيم الولائم والأسمطة الرسمية ، وكان الخلفاء يقيمونها فى قاعة الذهب . وظلت الأسمطة لا تنقطع من قاعة الذهب فى شهر رمضان ، وفى عيدى الفطر والأضحى . وكانت مقادير الأطعمة التى تقدم فى هذه الولائم من الوفرة بحيث كانت تعم سائر طبقات الشعب . وفى المواسم الدينية كانت توزع جامات الحلوى ، وطباق الزلابية ، وماء الورد على رجالات الدولة ، وكان يصنع فى عيد مولد النبى عليه السلام عشرون قنطاراً من الحلوى ، توضع على ثلثمائة صينية ، وتوزع فى الجامع الأزهر . أما الاحتفال بوفاء النيل ، فكان يقام سماط عظيم فى سرادق رحب على شاطىء النيل ، يجلس فيه كل من اشترك فى الموكب .

وفى هذه الأعياد والمواسم ، كان الخلفاء الفاطميون يجودون على كبار موظفى الدولة بالخلع ، فكانت تقدم الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخى الخليفة ، وذلك فى مواسم أول رمضان ، والاحتفال بجبر الخليج ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة من رمضان . كذلك كان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة حللا من الحرير الخالص بعضها مزركش بالذهب ، وهى اليوم أشبه بكسوة التشريفات . وفى عيد الفطر كانت توزع النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الضيوف والموظفين على اختلافهم . هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين فى غرة المحرم من النقود الذهبية التى كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم ، وتسمى نقود الغرة ، وهؤلاء الموظفون كانوا يعتبرونها بركة من الخليفة ، وتشبه هذه المرتبات الإعانات التى تمنحها المصارف والشركات لموظفيها فى الأعياد .

وكان الخليفة إذا خرج فى الموكب فى تلك الأعياد والمواسم ، خرج معه أحد الموظفين يحمل كيساً من الحرير ، فيه خمسمائة دينار ، لتوزع فى الطريق الذى يجتازه الخليفة على الرجال والنساء ، والقراء الذين يقرؤون القرآن على جانبى الطريق ، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود فى أكياس خاصة ، فى كل منها درهمان أو ثلاثة .

ويمكن القول بأنه لم توجد دولة من الدول التي حكمت مصر ، أغدقت على رمضان ما أغدقته الدولة الفاطمية . ولا عجب في أن تبالغ الدولة الفاطمية في الكرم في ذلك الشهر ، فقد كان شهراً مباركا عليها ، كريماً بها ، إذ لم يستهل رمضان سنة ٣٥٨ هـ حتى كان الله قد فتح على الفاطميين مصر ذات الخير المستفيض بعد أن كانت جيوشهم قد تحطمت على حافة صحرائها مراراً . في مدى خمسين سنة قبل ذلك التاريخ . وفي رمضان سنة ٣٦٢ هـ أصبحت مصر مركزاً للدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، عندما انتقل إليها في ذلك الشهر رابع خلفائهم في المغرب ، وأولهم في مصر ، المعز لدين الله الفاطمي ، واستقر في القاهرة في قصره الشرق في السابع من ذلك الشهر .

وفي عهد الفاطميين أنشئت المكتبات ودور العلم والجامعات . وقد فاقت مكتبة القصر في القاهرة غيرها من مكتبات العالم الإسلامي ، وتقع في القصر الشرق الكبير ، وتحوى ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، وقيل أن عدد كتبها بلغ ٦٠٠,٠٠٠ مجلد ، وقال آخرون : إن هذا العدد بلغ مليونين . ومهما يكن من أمر هذا العدد فإن المتفق عليه أنها كانت تحتوى على مصنفات في الفقه ، وفي اللغة العربية ، والحديث ، والتاريخ ، والسير ، والفلك ، والدين ، والكيمياء . عدا المصاحف التي احتوتها ، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة ، وابن البواب ، وغيرهما من مشاهير الخطاطين في ذلك العصر ، وكان فيها أيضاً ١٠٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى ، منها نسخة بخط الطبرى نفسه . وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل ، ثم يسير إلى دكة مرتفعة ، فيجلس عليها ، فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم ، وبغيرها من المجلدات مما يوصى بشرائه ، لمصادقة الخليفة على هذا الشراء .

وهناك مكتبة أخرى عرفت باسم «مكتبة دار العلم» وكانت ملحقة بدار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، والتحق بها عدد من القراء والفقهاء .

وكان الخليفة الفاطمي يسكن في قصر فخم ، هائل البنيان ، رائع المنظر ، بديع الأثاث ، جدرانه وسقوفه حافلة بألوان الزخارف الغنية ، وعلى نوافذه وأبوابه ستور من الحرير ، أو الديباج منسوجة بالذهب ، وأرضه مصنوعة من الرخام ومغطاة بالبسط والسجاجيد القيمة النادرة المثال ، وله أسوار عالية ، يحرسها خمسمائة من الفرسان ومثلها من المشاة ، ويعمل فيه ألوف الخدم والجوارى الحسان .

ويكفى للدلالة على عظمة الخليفة الفاطمى نظرة إليه وهو فى ملابسه التى تبهر الأنظار ، وجلاله الذى تخشع له الأبصار ، وحوله حاشية من الأمراء ، وكبار رجال البلاط فى ملابس مزركشة من الحرير والديباج موشاة بالذهب الخالص . ينتقل الخليفة فى هذا الموكب الحافل إلى حيث ينعقد مجلس الملك فى « قاعة الذهب » وهى من أروع مارسم مهندس ، ومن أبدع ما نحت فنان ، مؤثثة أثاثاً غنيا ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية ، وكلها من رسم واحد ، ولون واحد ، وأرضها مفروشة بأنفس ما صنع الصانع من بسط . وكانت العظمة الملكية تتضح بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة ، بأمر من رئيس القصر المعروف باسم « زمام القصر » ، فيظهر شخص الخليفة ، محاطاً بهالة من نور ومجد ، وحوله جماعة من القراء يأخذون فى ترتيل آيات الذكر الحكيم فى نغم عجيب ، ثم يأتى حامل الدواة فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، والحجاب والأمناء ، يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد جلسوا فى أمكنتهم المخصصة لهم . وعندئذ يقدم أحد الأمناء الأشخاص الذين يرى تقديمهم إلى الخليفة .

وقد بلغ عرش الخليفة الفاطمى من الأبهة والفخامة حداً يفوق الوصف ، حتى قيل إن مقدار الذهب الذى استعمل فى عمله زاد على ١١٠٠٠٠ مثقال ، ورصع الستر بآلاف القطع من الجواهر المختلفة الألوان ، وكان موضوعا قبالة العرش ، وحلى بما زنته ٣٠٠٠٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص .

وقد تمتع الخلفاء الفاطميون بثراء واسع . فقد كانوا يجلسون إلى موائد عليها الأطباق والأوانى والصحاف والصوانى والسكاكين ، وكلها مصنوعة من الذهب الخالص . ولا يمل المتأمل من النظر إلى تحفهم الكثيرة النادرة . وكان أهم ما يسترعى النظر فى عصر الخليفة المستنصر الفاطمى تلك الثروة الطائلة التى كان يملكها الخليفة حتى سنة ٤٦٠ هـ ، والتى يضيق النطاق عن حصرها ، والتى تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر قبل ظهور الشدة العظمى . وأمدنا ابن ميسر فى كتابه « تاريخ مصر » ببيان عن كنوز المستنصر ، استمده من مجلد ضخم يقع فى نحو العشرين كراسة ، اطلع عليه بنفسه . ويشتمل ذلك البيان على ذكر تلك الكنوز من طرف وأثاث ، وملابس ، وذهب وغير ذلك . ومن هذه

النفائس ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسرواني ، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب ، وكلها مما بعث به البساسيري أحد قواد العباسيين حين عزم على إقامة الخطبة في بغداد للخليفة المستنصر سنة ٤٥٠ هـ ، ومن ثروة المستنصر وممتلكاته التي لا تقوم بمال سيفه الخاص ، وسيف الخليفة المعز لدين الله ، وسيف النبي عليه السلام ، وسيف الحسين بن علي ، وسيف جعفر الصادق ، وسبحته من الأحجار الكريمة قومت بثمانين ألف دينـــار ، وأعداد لا تحصى من السروج والأسلحة والرماح والخواتم والأكواب والمجامر . واشتملت ثروته أيضاً على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ، وعلى ألف ستر مزركش بالذهب ، تمثل الممالك المختلفة بملوكها ، وأسمائهم ، وموجز لحياة كل منهم ، وعلى عدد من المصورات الثمينة المتقنة الرسم . كل ذلك عدا ثلاثين مليونا دينارا من الذهب ، والفسطاط (المضرب) الذي خلفه له الظاهر الفاطمي ، وكان منسوجاً من خيوط الذهب ، ومقاماً على أعمدة من الفضة ، وبلغت قيمته ١٤٠,٠٠٠ دينار .

كذلك تمتعت الأميرات بغنى وافر ، فاستحوذن على جانب كبير من الثروة . يتبين ذلك مما تركته كل من الأميرتين رشيدة وعبدة ابنتي الخليفة المعز . فقد تركت الأولى من مخلفاتها ما قيمته ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات ، وخلفت الثانية كثيراً من خزائن الحلي ، من بينها إردب من الزمرد ، وعدد كبير من الجواهر ، والأحجار الكريمة ، والأواني البلورية النفيسة ، وأنفقت السيدة تغريد زوجة المعز الفاطمي أموالا جمة في سنة ٣٦٦ هـ على تشييد مسجدها بالقرافة ، وتولى زخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة ، وكان قصراً بهيجاً يسر الناظرين ، به قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس ؛ وتركت ست الملك بنت العـــزيز وأخت الحاكم ثروة ضخمة ، من بينها ثمانمائة جارية وثمان جرات ملأى بالمسك والأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثـــاقيل ، وكانت مخصصاتها السنوية خمسين ألف دينار .

ولم تكن عظمة وزراء الفاطميين تقل عن عظمة ساداتهم الخلفاء ، أو أفراد البيت المالك . فقد كانوا يتمتعون بكل مظاهر الأبهة والفخامة . يحدثنا التاريخ أن

الوزير اليازورى استصنع مضرباً حوى مجموعة رسوم فنية ، أنفق عليها ثلاثين ألف دينار ، وعمل على إعداده مائة وخمسون فناناً حتى أتموه فى تسع سنوات ، ونقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم . كذلك فاقت ثروة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ثروة أسلافه من الوزراء ، فقد خلف ثروة طائلة ، نذكر من بينها أربعة آلاف قطعة من البسط والستور ، وسبعة آلاف سرج تقدر بملايين الدنانير ، وأنواعاً مختلفة من الحرير المذهب ، وأربع حجرات ملأى بالوسائد والمنسوجات ، وثلاثة عشر ألف ملعقة من الذهب والفضة ، وستة ملايين ونصف مليون من الدنانير ، وخمسة وسبعين ثوباً من الديباج ، وآلافاً من التحف النادرة ، منها خمسة آلاف ترجمة من الذهب . وكان فى كل بيت من بيوته عشرة مسامير من الذهب ، اتخذت كشاجب لتوضع عليها الثياب ، كل مسمار وزنه ١٠٠ مثقال ، عليها العمائم مختلفة الألوان .

وهكذا نجد مظاهر الحضارة المتعددة فى العصر الفاطمى ، والأعياد المختلفة ، والطبيعة السافرة ، ونوادى العلم والأدب ، وإنشاء المكتبات والجامعات ، وفى مقدمتها الأزهر ، كل هذا كان من الأسباب التى أعانت على رواج الأدب ونهضته ، وكانت الدولة الفاطمية تتجه إليها أنظار كل علوى فى بقاع الأرض ، فهذا الشريف الرضى (٣٥٩ — ٤٠٦ هـ) يقول :

ما مقامى على الهوان وعندى ... مقول صارم وأنف حمى

أحمل الضيم فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفـــة العلوى

من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى

لف عرق بعرقه سيد النا ... س جميعا محمـــد وعلى

وقد أكسبت الطبيعة المصرية الأدباء والشعراء حلاوة فى التعبير ، وعذوبة فى التصوير ، ويقول شاعر :

أسكان مصر جاور النيـل أرضكم ... فأكسبتم تلك الحلاوة فى الشـــعر

وكان لتلك الأرض سحر وما بقى ... سوى أثر يبدو على النظم والنثر

صور النثر الأدبى :

على أن الخطابة لم تكن مزدهرة فى هـــذا ، العصر وذلك لأن الدعوة السرية أضعفت من شأنها ، وكذلك الاستبداد السياسى ، وقد حرص الخطباء على زيادة

ألقاب التعظيم وعلى مزج الخطابة بالدعوة الفاطمية . وعلى قوة الأسلوب وجزالته والتزام السجع فيه .

أما الكتابة فقد عني بها الخلفاء والوزراء عناية شديدة ، وكان من أبرز ألوانها هذه الكتب الرسمية التي تقرأ بعضها في « صبح الأعشى » ورسائل أدبية مطولة من مثل رسالة ابن القارح داعي الدعاة في عصر الحاكم الذي بعث بها إلى أبي العلاء في معرة النعمان ، وكان رد المعري عليها هو رسالته الخالدة « رسالة الغفران » .

على أن ما بقي لنا من النثر الفاطمي ولو كان قليلا ، كبعض الكتب الرسمية التي ذكرت في صبح الأعشى ، يدل على تقدم النثر الفني ، وميله إلى الزينة : من سجع وبديع واقتباس ، مما هو ظل لحياة الترف في قصور الخلفاء ، كما يدل على تأثر بسعة الثقافة التي عظمت في هذا العصر » .

وكان لديوان الإنشاء المصري في العصر الفاطمي أثر في رقي النثر ، وقد نشأ هذا الديوان في عهد الدولة الطولونية وكان أول من وليه أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبدكان ، ولرجاله آثار أدبية جليلة ، وكان ديوان الإنشاء أشبه بمدرسة يتخرج منها الكتاب .

ويذكر صاحب « صبح الأعشى » ما يتعلق بديوان الإنشاء في الدولة الفاطمية من وظائف ، وهي ثلاث .

١ — صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات . وكان لا يتولاها إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ويقال لمعتدهم كاتب الدست الشريف ، وإليه تسلم المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة ويستشيره الخليفة في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه .

٢ — التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم . وهي رتبة جليلة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات ، يكون صاحبها جليساً للخليفة في أكثر أيام الأسبوع في خلوته ، يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين ، ويقرأ عليه ملح السير ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ويقوي يده في تجويد الخط وغير ذلك .

٣ — التوقيع بالقلم الجليل ؛ لتنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق . فإذا

رفعت المظالم حملت إلى صاحب القلم الدقيق ، فيوقع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من الوزير نفسه ، ثم يحمل إلى الموقع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق ، ثم تحمل فى خريطة(١) إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تخرج فى خريطتها إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه(٢) .

ولصاحب الديوان صفات يجب أن يتحلى بها ، من العلم والأخلاق والتجربة السياسية ، وأن يكون من أعلام الأدب وأمراء البيان الملمين بكثير من العلوم ، وهو الذى يطلع على ما يكتبه كتاب الديوان فى شئون الدولة ، ويتلقى المكاتبات الواردة ويقرؤها للسلطان ، ويجيب عنها ويختار من يرسله السلطان إلى الخارج فى أمور المملكة ، وله الإشراف على كتاب الدست وكتاب الدرج ولكل من هؤلاء عمله الخاص فى قراءة الأحوال والقصص على السلطان وكتابة الولايات ونحوها .

ويشرح القلقشندى فى الجزء الأول من صبح الأعشى كل ذلك بإسهاب(٣) . هذا والذى شاع من أنواع الرسائل فى هذا العصر هو الرسائل الديوانية التى كانت تصدر عن الدولة فى شئونها ، والرسائل الإخوانية التى يكتبها الأدباء فى مقاصدهم الخاصة طوعاً لميولهم وتلبية لوجداناتهم ولبواعثهم النفسية ، أما النوع الاجتماعى المتصل بوجوه الإصلاح والإرشاد ، فلم تتجه إليه الأذهان فى ذلك العصر .

ومؤلف مسالك الأبصار يعنى عناية عظيمة بمصر من جميع جوانبها ، ومنها جانب النثر والشعر ، ولذا أمدنا المؤلف بقائمة لأسماء الشعراء من المصريين ، بلغ مجموعهم نحوا من خمسين ، وأولهم تميم بن المعز(٤) .

---

(١) الخريطة: شبه كيس من جلد أو خرق

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٣) ص ٦١ ، ٢٣٠ .

(٤) ١٣٢٧ الحركة الفكرية فى العصرين : الأيوبى والمملوكى الأول عبد اللطيف حمزة ـ طبعة أولى ـ دار الفكر العربى .

آثار أدبية من العصر الفاطمى وما بعده :

كانت مصر طوال العصور الأدبية تهتم بالقصص ، وكان يتولى القصص فى المساجد العامة قصاص رسميون ، من بينهم سليمان بن عتر التجيبى ،المتوفى بعد سنة ٣٨ هـ ، ثم تعاقب القصاص من بعده على اختلاف ألوانهم .

وفى القرن الرابع الهجرى ازدادت العناية بالحكايات والقصص فى مصر ، وكان القصاص الشعبيون والحكوميون فى العصر الفاطمى يحتشدون لوضع الأخبار ، ويتنافسون فى جمع القصص والروايات من كل مصدر ، ومن هؤلاء أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، فقد جمع نحو ألف حكاية غريبة مما وضع من أحوال العرب والعجم ، ونقل ذلك عن المسامرين فى عصره ، وعن الكتب المصنفة والأسمار والأساطير ، ولكنه لم يتم كتابه القصصى ، ويظن أن ماجمعه الجهشيارى أصل « ألف ليلة وليلة » .

ومن القصص والملاحم الشعبية المنسوبة للعصر الفاطمى قصة « عنترة » التى وضعها يوسف بن إسماعيل فى العصر الفاطمى فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى، وهى تدور حول حرب « داحس والغبراء » التى ثارت بين قبيلتى عبس وذبيان فى الجاهلية . وبعد العصر الفاطمى استمرت العناية بالقصص ، وخاصة فى عهود الحروب الصليبية التى وضع ببواعثها قصة « سيف بن ذى يزن » و « الأميرة ذات الهمة» و «فيروزشاه» وسواها .

وبين القرنين الرابع والعاشر من الهجرة كان الرواة يتناقلون القصص والروايات ويجمعونها ويكتبونها ، يستمدونها من الأصول الفارسية والهندية حينا ، ومن الأصول العربية أحيانا أخرى ، ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى أن أصل كتاب « ألف ليلة وليلة » هو كتاب فارسى اسمه « هزار أفسانة[1] » أى ألف خرافة ، وذكر ذلك المسعودى م ٣٤٦ هـ فى كتابه « مروج الذهب » حين عرض لأخبار شداد بن عاد ومدينته « إرم » ، وكذلك ابن النديم م ٣٨٥ هـ فى كتابه « الفهرست » .

---

(١) أفسانة بالفارسية معناها خرافة .

وذهب نولدكة إلى أن فى كتاب « ألف ليلة وليلة » أصولا فارسية مأخوذة من كتاب « هزار أفسانة » ، وأصولا هندية ، وأخرى عربية تدور حول قصص وضعت فى بغداد ، وقصص أخرى وضعت فى مصر وأضيفت إلى الكتاب ، والنسخة المتداولة اليوم من الكتاب مأخوذة من النص المصرى الذى جمعه قاص مصرى نحو عام ١٧٨٠ م[1] ، ويرجح بعض الباحثين أن التاريخ الذى جمع منه الكتاب واتخذ شكله النهائى ما بين عامى ٩٢٣ و ٩٣٣ هـ (١٥١٧ و ١٥٢٦ م)[2] . والكتاب ٢٦٤ قصة قسمها جامع الكتاب على ألف ليلة .

أهمية الفسطاط فى تاريخنا الأدبى :

بنى عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفسطاط » وجعلها مقراً لإمارته . وبقيت كذلك إلى العصر العباسى ، فبنى « أبو عون » قائد جيش العباسيين المقتفين أثر مروان (آخر خلفاء الأمويين الهارب إلى مصر) « مدينة العسكر » شمالى الفسطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها أكثر ولاة بنى العباس إلى زمن « ابن طولون » وكانت القبطية هى المستعملة فى الدواوين إلى أن حلت محلها العربية عام ٨٧ هـ — ٧٠٦ م ، فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان .

ويقول « المقريزى » فى وصف موضع الفسطاط ما يأتى :

« اعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع والمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقيم فيه ماشاء ، ثم يعود إلى دار الإمارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مطلا على النيل ، وتصل السفن فى النيل إلى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد ...... وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهى الجهة الشمالية

---

(١) ص ١١ من الكتاب الشهرى للهلال عدد أغسطس ١٩٥٥ — وفى ص ١٢ من الكتاب أن المجموعة الأصلية التى وصلت للقاص المصرى كانت مائتى قصة ، وأضاف إليها نحو خمس وستين قصة .

(٢) ٢٧ فى أصول الأدب للزيات طبعة ١٩٤٦ .

أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى . . . . »

وكان قاضى الفسطاط ينيب عنه قضاة البلدان الأخرى . أو يعينهم الوالى رأساً . وكان مجلس القاضى إما فى المسجد الجامع غالباً ، وإما فى داره ، وقلما يجلس فى دار الإمارة . ولم يكن يشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة . وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم المناصب وأكثرها عملا ، وكان من أعماله الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات ونصب الأوصياء ، وأحياناً تضاف إليه الشرطة والمظالم وبيت المال ، ولذلك كان القضاة يختارون من أغزر الناس علماً وأكثرهم فضلا . ومن أعظم من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضى « غوث » بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ولى قضاء مصر مراراً ، ولم يمنع عن الوصول إليه متظلم قط . ومنهم أيضاً « المفضل » خلفه ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب المبنى عليها الحكم بأكلها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله وخطورة مسئوليته ، ولم يقبله « أبو خزيمة » إلا بعد أن نادى الحاكم بالجلاد .

لقد كانت الفسطاط بعد إنشائها عام ٢١ هـ - ٦٤١ م عاصمة مصر الأدبية ، كما كانت عاصمة مصر السياسية منذ الفتح الإسلامى — وقد ظلت مجمع العلماء والأدباء والشعراء ، ومقصد المفكرين من كل مكان فى العالم الإسلامى حتى بعد إنشاء القاهرة عام ٣٥٨ هـ ، وكان مسجد الفسطاط (مسجد عمرو) منذ الفتح منتدى لأهل الفضل والأدب ، وظل كذلك حتى بعد إنشاء الأزهر عام ٣٥٩ هـ .

وظل الفسطاط بعد ذلك عصوراً مدينة تحتفظ بمكانتها الأدبية ، ولبثت حلقاتها ولياليها الأدبية شهيرة بين أدباء المشرق والمغرب . وإن كان الجامع الأزهر أخذ بعد إنشائه ينافس المسجد الجامع فى حلقاته ومجالسه الأدبية منذ عهد الخليفة العزيز بالله ، إذ استأذن وزيره الشهير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨ هـ أن ينظم بالأزهر على نفقته بعض مجالس القراءة والفقه . وفى خاتمة القرن الرابع ، فى عهد الحاكم بأمر الله ، أنشئت دار الحكمة بالقاهرة ونظمت مجالسها ، فكانت مثوى

للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية بجانب الأزهر ، ما جعل الفسطاط تفقد أهميتها السياسية والرسمية ، ولكنها احتفظت عصوراً أخرى بأهميتها الاجتماعية والأدبية وفى فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الأدبى . وهذا ما يشيد به بعض أدباء المشرق والأندلس والوافدين على مصر فى عصور مختلفة . ومن هؤلاء أمية ابن عبد العزيز أبى الصلت الأندلسى م ٥٢٩ هـ الذى وفد على مصر فى أوائل القرن السادس الهجرى فى عهد الأفضـــل شاهنشاه . ودرس الحركة الفكرية والأدبية فى مصر يومئذ ، وكتب عنها رسالة لم يصلنا سوى صفحات قليلة منها ، تحدث فيها ابن أبى الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها ، ومجالسهم واجتماعاتهم ، وعن الفسطاط مكانتها إذ كانت لا تزال مركزاً هاماً للحركة العلمية والأدبية ، ولا ننس أن نذكر أنه فى عهد الدولة الفاطمية أحرقت مدينة الفسطاط عام ٥٦٤هـ ، وكانت الدولة الفاطمية تنتمى إلى عبيد الله المهدى[1] وقد ولد بالكوفة عام ٢٦٠هـ ، وقام دعاته بنشر الدعوة لحكم آل البيت ولإمامة عبيد الله المهدى فى اليمن والشام ومصر والمغرب ، وكان داعيته فى المغرب — شمال إفريقية — أبو عبد الله الشيعى ، الذى نجح فى دعوته نجاحاً منقطع النظير ، وتمكن من قيام الدولة الفاطمية على أنقاض ملك بنى الأغلب ، وصارت عاصمة الدولة هى القيروان ، ثم بنيت المهدية وصارت العاصمة ، وقد مات عبيد الله عام ٣٢٢ هـ ، فخلفه ابنه القائم نزار (٣٢٢ – ٣٤٤هـ) ومات عن أربع وخمسين عاما ، فخلفه ابنه المنصور إسماعيل العبيدى (٣٣٤ إلى ٣٤١ هـ) ومات عن تسع وثلاثين عاما ، فخلفه المعز (٣٤٥ — ٣٦٥ هـ) ، وكان ميلاد المعز عام ٣١٩هـ ، قد سارت جيوشه من القيروان يوم الجمعة ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ ، منتهزاً قائده جوهر فرصة اختلال أمور مصر بموت كافور الإخشيدى فى ٢٠ جمادى الأولى عام ٣٥٧ هـ ، ودخلت جيوش المعز مصر فى ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ ، وكانت عاصمة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص إلى أن فتحها جوهر هى مدينة الفسطاط[2] ، وكانت من أعمر الأمصار الإسلامية وأغناها وأكثرها

---

(١) اسمه سعيد بن أحمد بن حسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح ، وهو ينتمى إلى العلويين من ذرية فاطمة ، وفى عام ٤٠٢ كتب فى بغداد حجة بإنكار نسبة عبيد الله المهدى إلى العلويين ، ووقع عليها أعلام الشيعة وكثير من أئمة العلماء .

(٢) هى مصر القديمة الآن .

رخاء ، وقد وصفها القاضي محمد بن سلامة القضاعي المتوفى عام ٤٥٤ فقال : كان فيها من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد ، ومن الحمامات ألف ومائة وسبعون حماما ، ومن الشوارع المسلوكة ثمانية آلاف شارع ، وكانت أسواقها عامرة بكل شيء من أنفس البضائع الى أكمل الكماليات ؛ ولما احتاجت قطر الندى إلى ألف تكة (من التي تساوى الواحدة منها عشرة دنانير ذهبا) جاء رسلها إلى سوق الفسطاط بعشرة آلاف دينار فوجدوا ماطلبوه ميسورا بأسرع وقت ، وكانت الفسطاط عامرة بالمنازل الشاهقة ، وكانت فيها دار عبدالعزيز بن مروان ، وفي داخل هذه الدار خمسة مساجد واسعة وحمامان وعدة أفران ؛ أما بضاعة العلم في الفسطاط فكانت أغلى البضائع وأنفسها وأكثرها رواجا ، وفضلا عن الأسواق التي كانت للكتب ، فقد كانت صناعة النسخ واسعة النطاق يعيش منها آلاف من المشتغلين بالعلم ، لأن المكتبة كانت زينة المنزل في كل أسرة مثقفة ، وحلقات العلم تعقد في المساجد التي بلغ عددها ستة وثلاثين ألف مسجد ، وكان جامع عمرو الذي يسمى تاج الجوامع مباءة التحديث والتدريس من عهد الصحابة إلى زمن الأئمة : الليث بن سعد ومحمد بن إدريس الشافعي وسواهما(١) .

ولما وصل المعز في أوائل رمضان عام ٣٦٢ هـ خرج أعيان الفسطاط وأشرافها وعلماؤها لاستقباله في الجيزة ، واستعدت الفسطاط لاستقباله ، وسار موكبه من الجيزة ، ثم جاز النيل إلى الشاطىء الشرق ، وأبى أن يدخل الفسطاط وجعلها وراء ظهره وأمر موكبه بالاتجاه إلى عاصمته التي سميت « المنصورية » ، ثم صدر أمر المعز في ذلك الحين بأن تسمى القاهرة المعزية ؛ وقد جمع المعز أشراف الفسطاط من العلويين ، وفي مقدمتهم أبو جعفر مسلم بن عبيدالله الحسيني ، وأبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسيني الرسي ، وأحد أبناء الشريف أبي محمد عبدالله بن احمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ، وسل أمامهم نصف سيفه وقال هذا نسبي ، ثم

---

(١) استمرت الحلقات العلمية كل يوم بلا انقطاع في جامع عمرو وكانت لا تقل عن بضع وأربعين حلقة في عام ٧٤٩ هـ ـ حسن المحاضرة للسيوطي ٢ : ١٣٦ .

نثر عليهم ذهبا كثيرا وقال : هذا حسبي . . وقد حكم بعد المعز ابنه العزيز (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) ثم الحاكم (٣٨٦ – ٤١١ هـ) ، ثم الظاهر (٤١١ – ٤٢٧ هـ) ، ثم المستنصر[١] (٤٣٧ – ٤٨٧ هـ) ثم المستعلى (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ) ، ثم الآمر (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) ، ثم الحافظ (٥٢٤ – ٥٤٣ هـ) ، ثم الظافر اسماعيل ابن الحافظ (٥٤٣ – ٥٤٩ هـ) ثم ابنه الفائز عيسى (٥٤٩ – ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد (٥٥٥ – ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء الفاطميين .

وفى زمن العاضد أحرق الفاطميون الفسطاط ، وذلك عام ٥٦٤ هـ ، وكان وزراء العاضد هم شاور وضرغام والعادل بن رزيك ، وقد تغلب شاور على الحكم ثم غلبه ضرغام فاستعان شاور على منافسه بملك الشام السلطان نور الدين محمود ابن زنكى ، فساعده بجيش قوى هزم جيش الفاطميين بقيادة ضرغام فى بلبيس ، وفى المقس[٢] كذلك ، وعسكر الجيش الفاتح بباب اللوق وقتل ضرغام فى جمادى الآخرة عام ٥٥٩ هـ وتولى شاور الوزارة للعاضد الفاطمى ، وفى سبيل أن يخرج شاور جيش نور الدين محمود[٣] من مصر استعان بالصليبيين فى فلسطين عام ٥٥٩ هـ ، وحارب جيش نور الدين فى مصر فى وقائع احترق فيها وجه الخليج خارج القاهرة بأسره وقطعة من حارة زويلة كما حاربه فى بلبيس مستعينا بعدد من جيوش الصليبيين تقدم حتى بلبيس ، وقد خرج أسد الدين وجيشه من مصر عام ٥٥٩ هـ ، ثم عاد إليها بجيش قوى عام ٥٦٢ هـ وأقام بالجيزة محاذيا للفسطاط وقاتل الجيش الفاطمى ومن جاء لنجدة الفاطميين من الصليبيين فهزم الفاطميون وأعوانهم هزيمة ساحقة ثم فتح أسد الدين الإسكندرية والصعيد ، وحول الإسكندرية وقعت حروب بين شاور وأعوانه وبين جيش أسد الدين عاد بعدها أسد الدين إلى دمشق فى ١٨ ذى القعدة عام ٥٦٢ هـ وكان مركز المقاومة ضد

---

(١) فى مدة حكمه قام المعز بن باديس أمير المغرب بإزالة ذكر الفاطميين من فوق المنابر فى القيروان وغيرها – وفى عام ٤٤٤ هـ كتب محضر من ديوان الخليفة العباس القائم بأمر الله بإنكار نسب العبيديين .

(٢) مكانها ميدان باب الحديد اليوم .

(٣) كان برياسة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى ، وكان صلاح الدين أحد القواد فيه .

الفاطميين فى الفسطاط ، فأمروا بإحراق مدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ بحجة أنهم مضطرون إلى إحراقها خوفا من استيلاء الصليبيين عليها ، ولذلك أمروا أهل الفسطاط بالخروج السريع من بيوتهم ، واستمر الحريق أربعة وخمسين يوما بلياليها ، حيث محيت من الوجود هذه المدينة الإسلامية بما فيها من ذكريات وأمجاد إسلامية ومكتبات ومدارس وسواها .

ومع ذلك فقد أخذ الناس فى عهد الدولة الأيوبية يعمرون الفسطاط ويسكنونها ويقيمون فيها وينظمون الحلقات الأدبية فى مسجدها الجامع ، ولكن لم يمكن أن تصل إلى حالتها التى كانت عليها من قبل .

وقد وفد ابن سعيد الأندلسى إلى مصر بعد ذلك بنحو قرن ، نحو سنة ٦٣٧ هـ - ١٢٤٠ م ، ولبث بها أعواما طويلة يدرس شئونها وأحوالها ، وكتب عن الفسطاط التى مازالت آنذاك تحتفظ بأهميتها الأدبية ومازالت مأوى للأدباء ومركزا لأبهاء الأدب ، ويفرد ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » فصلا كبيراً للفسطاط عنوانه : « كتاب الاغتباط فى حلى الفسطاط »[1] تحدث فيه عن المدينة ، وزياراته لها واجتماعاته بأدبائها ، ولاسيما شاعرها الكبير جمال الدين أبى الحسن الجزار ، أشهر شعراء مصر فى هذا العصر ، وما لقيه من كرم وفادته وشهده من رائع أدبه ، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ ، على ما يظهر شابا فى عنفوان شاعريته إلى أن توفى بعد ذلك بنحو أربعين سنة فى ٦٧٩ هـ ، وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الشهيرة المسماة « بالعقود الدرية فى الأمراء المصرية » وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر بيبرس[2] ، وكانت الفسطاط قد استردت كثيرا من بهائها السالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الجديدة التى أنشأها الملك الصالح فى جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط

---

(١) هذا الكتاب فى مجموعة الكتب التى يضمها كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد الأندلسى . ومنه أربع مجلدات مخطوطة بدار الكتب هى الوحيدة منه . وليست متصلة ولا متناسقة لأنها جزء من الكتاب الأصلى فقط (رقم ٢٧١٢ تاريخ) . وقد نشر المستشرق تا كلفت منه قسما هو « كتاب العيون الدعج فى حلى بنى طغج » .

(٢) نشرت هذه الأرجوزة برمتها فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١) .

سنة ٦٣٨ ﻫ واتخاذها قاعدة للسلطنة ، وانتقال البلاط والحاشية اليها ، وسكن كثير من الأمراء والكبراء بالفسطاط فى الضفة المقابلة لنهر النيل ، وهو مايشير اليه ابن سعيد فى قوله ، « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية جزيرة الروضة ، وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر » .

ويشير ابن سعيد فى كتابه السالف الذكر إلى ليالى الفسطاط واجتماعاتها ، وأشهرها ما كان يعقد فى القرافة مما يلى المقطم فى قبة الإمام الشافعى التى كانت قد أنشئت على قبره ، وكان المسجد الجامع قد عفت أهميته شيئا فشيئا مذ قام الجامع الأزهر وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة ، ولكنا نراه مازال حتى القرن السابع مثوى للأدب واجتماعاته . وبرغم عفائه وقدمه ونسيان أمره ، كانت تعقد فى عرصاته حلقات للقراءة والدرس ، وهذا ما يشير اليه ابن سعيد أيضا خلال وصفه للمسجد الجامع فى منتصف القرن السابع ، غير أن هذه الحلقات لم تكن من الأهمية والرونق والانتظام مثلما كانت عليه فى القرون الأولى ، يوم كان المسجد الجامع مجتمع الأمراء وأقطاب التفكير والأدب ، وكانت يومئذ أقرب الى الصيغة المدرسية ، ومع ذلك فقد بقى للمسجد الجامع ذكرياته الأدبية المجيدة . ويقول ابن فضل العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى حديثه عن المسجد الجامع : « حكى على بن ظافر الأزدى . قال : روى لى أن الاعز أبا الفتوح بن قلاقس وابن المنجم اجتمعا فى منار الجامع فى ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون ، وبرز فى صفحة بحر النيل كالنون ، ومعهما جماعة من غواة الأدب الذين ينسلون اليه من كل حدب . فحين رأوا الشمس فوق النيل غاربة ، وإلى مستقرها جارية ذاهبة ، وقد شمرت للمغرب الذيل ، واصفرت خوفا من هجمة الليل ، والهلال فى حمرة الشفق ، كحاجب الشائب أو زورق الورق . فاقترحوا عليهما أن يصنعا فى ذلك الوقت النزيه ، على البديه ، فصنع ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... وانظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت وأبقت شعاعا منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء فى الغرق

والهلال ، فهل وافى لينقذها ... فى إثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

وصنع ابن المنجم :

يارب سامية فى الجو فت بها | أمد طرف فى أرض من الأفق
حيث العشية فى التمثيل معركة | إذا رآها جبان مات للفرق
شمس نهارية للغرب زاهية | بالنيل مصفرة من مجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالسنان بدا | من سورة الطعن ملق فى دم الشفق

وحكى على بن ظافر أيضاً ، قال : أخبرنى ابن المنجم الصواف بما معناه : قال: صعدت إلى سطح الجامع بمصر فى آخر رمضان مع جماعة فصادفت به الأديب الأعز أبا الفتوح بن قلاقس ونشو الملك على بن مفرج بن المنجم وشجاعا المغربى فى جماعة من الأدباء . فانضممت إليهم ، فلما غابت الشمس وفاتت ، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم أن يعملا فى صفة الحال ، فكان ما صنعه نشو الملك:

وعشى كأنما الأفق فيـــه | لازدورد مرصـــع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمـ | ـس ولاح الهـــلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينـ | ـاراً فأعطى الرهين نصف سوار

وكان الذى صنعه ابن قلاقس :

لاتظن الظلام قد أخذ الشمـ | ـس وأعطى النهار هذا الهلالا
إنما الشرق أقرض الغرب ديـ | ـناراً فأعطاه رهنه خلخالا

والشاعر المصرى الإسكندرى الأشهر ابن قلاقس كان من شعراء النصف الأخير من القرن السادس الهجرى (٥٣٢ - ٦٠٧) وكذلك ابن المنجم من شعراء هذا العصر . فقد كان المسجد الجامع ، حتى أوائل القرن السابع منتدى لأكابر الأدباء والشعراء ، وكانت الفسطاط لاتزال شهيرة بلياليها وحلقاتها الأدبية ، حتى بعد ذلك بنحو نصف قرن على نحو مايشير إليه ابن سعيد الأندلسى .

ومنذ أواخر القرن السابع الهجرى بدأت الفسطاط تفقد أهميتها الاجتماعية والأدبية شيئاً فشيئا ، وأخذ المسجد الجامع يغمره النسيان والعفاء ، وقلما نظفر غير القرن الثامن بما ينبىء عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الأدبية ، بل نرى الفسطاط فى هذا العصر تنتهى إلى ناحية متواضعة لمدينة القاهرة ، ونرى القاهرة تغمر بعظمتها وبهائها وأهميتها العلمية والأدبية عاصمة الإسلام الأولى فى مصر ، ونراها مثوى كل حركة فكرية أو أدبية . ونرى الجامع الأزهر كعبة العلماء والأدباء لافى مصر وحدها بل فى العالم الاسلامى كله .

الشعر فى عهد الدولة الفاطمية

بدأ الشعر فى هذا العصر ينضج ويستحكم ويكثر ناظموه المجيدون ، ويرجع سبب ذلك إلى نضوج مصر العقلى والثقافى والأدبى بعد مرور نحو ثلاثة قرون ونصف على الفتح الإسلامى ، وإلى عظمة الدولة وقيامها على الدين ، وعلى حب آل البيت ، وإلى بيئة مصر الشاعرة ، وإلى كثرة الأعياد والموالد ومظاهر الملك والدين وإلى نضوج ذوقهم ، وخصب شاعريتهم حتى كان من الفاطميين شعراء كتميم ، وقد قرب الفاطميون إليهم الشعراء وأغدقوا عليهم إغداقا شديداً ، فرأينا المعز يقرب إليه ابن هانئ الشاعر الأندلسى، وكان يتمنى أن يكون فى حاشيته فى مصر، ولكن المنية عاجلته وهو فى طريقه إليها فقال المعز فيه : كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك ، وكذلك قرب يعقوب بن كلس الوزير إليه الشاعر أبا حامد الانطاكى المعروف بأبى الرقعمق ، وكان أكثر شعره وقفا على مدح الخلفاء الفاطميين : المعز والعزيز والحاكم ، ومدح جوهر وابن كلس(١).

وقد أفرد العماد الأصفهانى فى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » جزءا خاصاً لشعراء مصر بلغ عددهم نحو المائة شاعر .

ومما يدل على عناية الخلفاء بالشعر واحتفالهم بالشعراء ، ما حكاه المقريزى عند كلامه على المنظرة التى كانت تطل على بركة الحبش التى شيدها الخليفة الآمر قال: « فى هذه المنظرة طاقات وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى

---

(١) قال فيه صاحب اليتيمة : « هو نادرة الزمان ، وجملة الإحسان ، وممن تصرف بالشعر الجزل ، فى أنواع الجد والهزل » . . . ومات عام ٣٩٩ هجرية . ومن شعره .

لياليَ النيل لا أنساك ما هتفت ... ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لى سلفت ... قطعتهن وعين الدهر ترعانى
مع سادة نجب غر غطارفة ... فى ذروة المجد من ذهل بن شيبان

وكان أحد المداح المجيدين (٧٠ و ٧١ ج ١ ابن خلكان) .

جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح ، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب ، فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده » . . وقد كان للشعراء بجانب هذه الصلات والجوائز فى هذه الدولة مرتبات ، وكان الشعراء يتقدمون بالمدائح فى كل موسم أو عيد ؛ وما كان أكثر أعيادهم ومواسمهم ، فينالون من مواهب الخلفاء القدر الكثير ،

حكى المقريزى عند الكلام على فتح الخليج ، بعد أن وصف الاحتفال باليوم وصفاً دقيقا ، أنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحب الباب لحضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم .

فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الإنشاد ، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب ، فى بعض السنين تقدم شاعر يقال له ابن جبر ، وأنشد قصيدة مطلعها :

فتح الخليج فسال منه الماء	وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه	كف الإمام فعرفها الإعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله « فسال منه الماء » ، وقالوا أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة ابن جرير وأنشد :

مازال هذا السد ينظر فتحه	إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه	وسطا عليه كل حامل معول

فانتقدوا عليه فى البيت الثانى ، وقالوا (أهلك وجه الامام بسطوات المعاول عليه) ، مع أنه قصد فتح السد بالمعاول ، ولكنه لشؤم طالعه خلط بين الضمائر .
ثم تقدم شاعر يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وقال قصيدة منها :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد	للنيل أم لك يابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معاً فى موطن	وافيتما فيه لأصدق موعد

فأمر له على الفور بخمسين ديناراً وخلع عليه وزيد فى جاريه .
ومن مجالس الأدب فى مصر ما يروى من أنه فى أواخر الدولة الفاطمية

بمصر ، اجتمع بمجلس احد الأمراء جماعة من الأدباء والفقهاء ، وجرى حديث الشعر ، ومن يرتجله ارتجالا ، ويرسله على البديهة إرســـالا ، ورووا من ذلك أخباراً . وكان القاضي المهذب أبو الحسن على جالسا ينصت إليهم ، ولا يخوض معهم ، فأقبل عليه الأمير وسأله ماعنده ، وكان معروفاً عن القاضي أن لهفى ارتجال الشعر سجية مطبوعة ، وملكة مذكورة فأجاب : « كنت في مبدأ عمرى أملى الشعر إملاء — كالمحفوظ — على من يكتبه ؛ وربما سبقته بالإملاء ولا أتوقف » . فعجب الأمير من قوله عجباً بدا منه الاستبعاد لما يقوله ، فتحركت حمية الشيخ وأنفته لنفسه ، وقال : « إن كان ذلك مضى فقد أبقى الله منه بقية . اقترحوا شعراً أنشدكم على مثاله في وزنه ورويه وموضوعه » . قال الأمير فأنشدته :

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها ... لقاء عدو أو وعيـــد أمير
فلن يمنعوا عينى من دائم البـكا ... ولن يظهروا ما قد أجن ضميرى

فأنشد القاضي مبادراً كأنه يحفظه :

صبرت على جـور الزمان وصرفه ... وإن كنت يوم البين غير صبـور
وإن الذى يبغى اعتلاقاً بودها ... لمستمسك منها بحبل غرور
أرى الناس قد فكوا العناة تحرجا ... فهل لك يوماً في فـكاك أســـير ؟
ولم أر فيمن أستعين به سوى ... عذول . فمن لى فيــكم بعذير ؟
وما كنت من يصبح الحب قادراً ... عليه ولـكن ذاك فعل قـــدير

قال الأمير : « فزاد عجبي لقوة ذكائه ، وسرعة بديهتـــه ، وأظهرت فرط استحساني لما أتى به » . فقال : « أنشدنى غير هذا لئلا تقول إنه محفوظ لى » . فامتنعت تحرجا ، فأبى إلا أن أنشد ، فأنشدته :

وما فارقت ليلى عن تعـــال ... ولـكن شـــقوة بلغت مداهـا

فانطلق قائلا :

وكل منى النفوس إلى انقطاع ... إذا بلغت — لعمرك — منتهاهـا
أناديهـا وليس تجيب قـولى ... كأنى قد دعوت به سواهـا
سألقى دونهـــا نبل الأعادى ... وأرى منهم من قد رماهـا
وأصـــبر للتجنى كل يوم ... وما أنا بالصبور على قلاهـا
سلاهـا — حين مال القلب عنهـا ... ولم يعلق سواها — هل سلاهـا ؟

غدا الإعراض حــظ مؤملها ... وأمسى اليأس غاية من رجاها
أود ومهجتى فى راحتيها ، ... مدى الأيام ، لو جعلت فداها

قال الأمير : « وحين انتهى إلى هذا ورأيت شدة تجمعه ، وفرط تحفزه ، وما يعانيه فى إحضار ذهنه — قطعته إشفاقاً عليه » .

ومن شعراء مصر الأوائل أبو محمد الحســن بن على بن وكيع المتوفى عام ٣٩٣ هـ ، وهو شاعر بارع وعالم جامع ، قد برع فى إبانه على أهل زمانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام ، وتستعبد الأفهام(١) . وقد عرف ابن وكيع بابتكار معانيه وحسن تصرفه ، وقد اشتهر هو وتميم بن المعز بالتخميس ، ومنهم محمد بن القاسم ، وكان شاعر الحاكم ومن شعره :

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها ... لكنها رقصت من عدله طربا

ومنهم كذلك الصالح بن رزيك وكان وزيرا للفــائز والعاضد وتوفى عام ٥٥٦ هـ ، وله فى كتاب « الروضتين لأبى شامة » قصائد جيدة النسخ ، ويقول العماد فيه : « نفق فى زمانه النظم والنثر ، وقرب إليه الفضلاء ، واتخذهم جلساء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة ، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ، وما يظن أحد أن ذلك شعره لجودته وإحكام معانيه وحكمته ، فيقال إن المهذب بن الزبير كان ينظم له ، والجليس بن الحباب كان يعينه ، وله ديوان كبير وإحسان كثير » .

وكان الصالح واليا بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر فلما قتل الظافر إسماعيل الخليفة الفاطمى أرسل أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به فدخل القاهرة وتولى الوزارة فى أيام الخليفة الفائز واشتغل بالأمور السياسية وتدبير أحوال الدولة ، وكان فاضلا سمحاً فى العطاء سهلا فى اللقاء محباً لأهل الفضائل . ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته وزادت حرمته وتزوج العاضد ابنته ، وكان العاضد تحت قبضته فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة فى قتله . وهو الذى بنى الجامع الذى على باب زويلة بظاهر القاهرة . وخرجت الخلع لولده العادل ثانى يوم وفاته ولقب العادل الناصر ، وكان الصالح قد دفن

---

(١) ١/٣١٧ يتيمة الدهر للثعالبى ، وراجع ترجمته فى ابن خلكان ٢٤٣ — ٦/٢٤٥ .

بالقاهرة ثم نقله ولده العادل سنة ٥٥٧ هـ فى تابوت وركب خلفه العاضد إلى قبره الذى بالقرافة الكبرى .

وقد أورد له صاحب كتاب الروضتين(١) قصائد أرسلها إلى أسامة بن منقذ(٢) يحرض فيها نور الدين على قتال المشركين ثم ، أورد نقلا عن العماد الأصبهانى فى الخريدة :

« الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر فى زمان الفائز وأول زمان العاضد ، ملك مصر واستولى على أمر صاحب القصر ونفق فى زمانه النظم والنثر وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء . وأفاض على الدانى والقاصى العطاء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ، وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته وإحكام معانى حكمته ، فيقال إن المهذب بن الزبير كان ينظم له والجليس بن الحباب كان يعينه .

ولما جلس فى دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

أنظر إلى ذى الدار كم ... قد حل ساحتها وزير
ولكم تبختر آمنا ... وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما ... بقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا إليه من الفناء غداً نصير

وعجيب من العماد أن يجحد الصالح شعره لا لشىء إلا أنه جيد محكم ، وهل مقام الوزارة وعلو المكانة ينافى القدرة الشعرية والسبق فى ميدان البيان ؟ .

ومن شعراء هذه الفترة المهذب بن الزبير ، قال فى الروضتين :

« لم يكن فى زمانه أشعر منه ، وله شعر كثير ، فما جاء فى إحدى قصائده فى مدح الصالح بن رزيك :

---

(١) جـ ١ صـ ١٠٥ .

(٢) كان من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر (بالقرب من حماه) وعلمائهم وشجعانهم . سكن دمشق ، ثم انتقل إلى مصر فبقى بها أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد إلى الشام وأقام حتى ملك صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائباً ... كالأسد حين تصول فى خفان
لبسوا الدروع ولم تخل من قبلهم ... أن البحار تحل فى غدران

وله قصيدة كتب بها إلى الداعى باليمن يستعطفه ، لما قبض على أخيه الرشيد فأطلقه :

يا ربع أين ترى الأحبة يمموا ... هل أنجدوا أم بعدنا أو أتهموا؟
نزلوا من العين السواد وإن نأوا ... ومن الفؤاد مكان ما أنا أكتم
رحلوا وفى القلب المعنى بعدهم ... وجد على مر الزمان مخيم
وتعوضت بالأنس روحى وحشة ... لا أوحش الله المنازل منكم
لا تبعثوا لى فى النسيم تحية ... إنى أغار من النسيم عليكم
إنى امرؤ قد بعت حظى راضياً ... من هذه الدنيا بحظى منكم
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا ... منكم وزهدت إلا فيكم

وقد توفى سنة ٥٦١ هـ .

ومنهم الجليس بن الحباب ، قال فيه العماد : « جليس صاحب مصر ، فضله مشهور ، وشعره مأثور ، وكان أوحد عصره فى مصر نظما ونثرا وترسلا وشعراً » ، مات سنة ٥٦١ هـ .

ومنهم عمارة اليمنى وكان شاعراً كبيراً سياسياً ، كانت حياته مزيجاً من النعيم والشقاء ، ونهايته المحزنة جديرة بأن تثير العطف والإشفاق . ولد سنة ٥١٥ هـ وكان عربياً فقيهاً أديباً ، وله كتاب ذكر فيه أحواله وأخباره باليمن ثم بمصر ، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه فيها مذهب الإمام الشافعى . قال : « ولى فى الفرائض مصنف يقرأ باليمن وفى سنة ٥٣٩ هـ ، زارنى والدى وخمسة من إخوانى بزبيد ، فأنشدته شيئاً من شعرى فاستحسنه ، ثم قال . تعلم والله إن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس ، واستحلفنى ألا أهجو مسلما ببيت شعر ، فحلفت له على ذلك » .

وحج مع أم فاتك ملك زبيد ، وحصل له وجاهة عندها فأثرى وكثر ماله . ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن . ثم حج سنة ٥٤٩ هـ فطلب منه والى الحرمين السفارة عنه إلى الدولة المصرية . قال : « فقدمتها سنة ٥٥٠ هـ ، والخليفة يومئذ الفائز ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما حضرت للسلام

عليها في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم　　　حمداً يقوم بما أولت به النعم

وفي هذه القصيدة يقول :

فهل درى البيت أني بعد زورته　　　ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها　　　بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللامامة أنوار مقدسة　　　تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا　　　على الخفيين من حكم ومن حكم

وفيها يقول :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا　　　فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما　　　وزيره الصالح الفراج للغمم

قال عمارة : « وكان الصالح يستعيدها مراراً ، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب ، ثم أفيضت على خلع من ثياب الخلافة مذهبة ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معي إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي » .

ولما انثالت عليه الصلات ، وطاب له بمصر المقام قال :

ليالي بالفسطاط من شاطئ مصر　　　سقى عهدك الماضي عهاد من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما　　　مضى من سواها لا يعد من العمر
أفادتني الأقدار فيها مواليا　　　صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على ألا ترد إرادتي　　　ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وكان من أظهر أخلاق عمارة الوفاء ، فلما قتل الصالح بن رزيك وجلس شاور في دار الذهب ، وقام الشعراء والخطباء ينالون من بني رزيك أبى عمارة أن يمسهم بهجاء . فكان مما قاله :

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت　　　والحمد والذم فيها غير منصرم

إلى أن قال :

ولم يكونوا عدواً ذل جانبه　　　وإنما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى ... تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولو فتحت فمي يوماً بذمهم ... لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي

فشكره شاور وأبناؤه على الوفاء لبنى رزيك .

ولما زالت دولة الفاطميين ، وكان لهم مخلصاً ولفضلهم ذاكراً ، امتلأ قلب عمارة حزناً عليهم ، وحسرة على ماضي أيامهم ، ولكنه اضطر إلى مدح صلاح الدين ، فمن مدائحه فيه قوله :

صحت به مصر وكانت قبله ... تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره ... والدهر ولاد لكل عجيب
رد الإله به قضية يوسف ... نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى ... مصر على التدريج والترتيب

وهو كما ترى شعر ضعيف لم يخرج من القلب .

ومازالت ذكرى الفاطميين تعاوده ، والأسف عليهم يهاجه ، حتى نظم قصيدته المشهورة في رثاء دولتهم ، وهي تشرح كثيراً من أحوال الفاطميين وعاداتهم وأيامهم ، وتعد من أجود الشعر في رثاء الدول .

قال المقريزي : « وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله وتمحلت له الذنوب» وأول هذه القصيدة :

رميت يادهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

ومنها :

لهفي ولهف بني الآمال قاطبة ... على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل

وفيها يندد بالفظائع التي أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة ... في نسل آل أمير المؤمنين علي؟
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبي والنفل

ومنها في ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ... ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم ... يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم ... فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما ... يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية ... مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ ... أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم ... حتى عممتم به الأقصى من الملل
وللجوامع من أحباسكم نعم ... لمن تصدر فى علم وفى عمل

واتهم فى أول الدولة الأيوبية بالتآمر على الدولة ، فقتل عام ١٥٦٩ هـ .

ومن الشعراء كذلك محمد بن القاسم شاعر الحاكم ومن شعره :

مازلزلت مصر من سوء يراد بها ... لكنها رقصت من عدله طربا

والشعر المصرى الفاطمى خلال هذا العصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) أقسام ثلاثة : قسم تظم فى مدح الخلفاء والوزراء ومن شعرائه المهذب ابن الزبير ، والمهذب الموصلى ، وعمارة اليمنى ، وشعر تعليمى فى الدعوة من مثل شعر المؤيد الشيرازى داعى الدعاة ، وشعر يمثل بيئة مصر الشاعرة كما فى شعر تميم وشعر العقيلى أبى الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى وكان من الأشراف ، وكان ينظم الشعر لنفسه فى الحب والطبيعة والوصف ، وكان يجيد التشبيه فهو خليفة ذى الرمة وابن المعتز ، كما سلك مسلك أبى نواس فى الخمر وتوليد المعانى منها .

نماذج من الشعر الفاطمى

قال تميم ابن المعز[1] يصف فوارة فى بستان :

وقاذفة بالماء فى وسط بركة ... قد التحفت ظلا من الأيك سجسجا[2]
اذا انبثقت بالماء سلته منصلا ... وعاد عليها ذلك النصل هودجا[3]
تحاول إدراك النجوم بقذفها ... كأن لها قلبا على الجو محرجا

وقال أيضاً فى الفخر :

ألقى الكمى فلا أخاف لقاءه ... ويقل إقدامى شبا الحدثان[4]
وأكر فى صدر الخميس معانقا ... للموت حين يفر كل جبان[5]
ويزيدنى كل الخطوب تعظما ... وتسلط الأيام عز مكان
وعلت أخلاق الزمان فلم أضق ... ذرعا بأيامى وغدر زمانى
وكما يمل الدهر من إعطائه ... فكذا ملالته من الحرمان
وكما يمر لمعشر بسعادة ... فكذا يكر لمعشر بهوان
فاذا رماك بشدة فاصبر لها ... فلسوف يأتى بعدها بليان[6]
وسل الليالى عن نفاذ عزيمتى ... وسل الحوادث عن ثبات جنانى

---

(١) هو أبو على الأمير تميم بن معد المعز لدين الله الفاطمى بانى القاهرة ، لم يكن ولى عهد أبيه لأن العهد كان لأخيه نزار ، وله شعر رقيق وكان فى الفاطميين كابن المعتز فى بنى العباس توفى سنة ٣٧٤ هـ .

(٢) السجسج : الذى لا حر فيه ولا برد .

(٣) المنصل : السيف كالنصل . الهودج : محل له قبة كانت النساء تركب فيه .

(٤) الكمى : الشجاع المقاتل . والشبا : جمع شباة : وهى : الحد .

(٤) الخميس : الجيش

(٥) الليان : اللين والرخاء .

(٦) الضريبة المضروب .

تخبرك عنى أننى لم ألقها ... بين العزائم واهن الأركان
أصبحت لا أشتاق إلا للندى ... أيضا ولا أهوى سوى الإحسان
وإذا السيوف قطعن كل ضريبة ... قطع السيوف القاطعات لسانى[١]

وينسب له فى الغزل :

شبهتها بالبدر فاستضحكت ... وقابلت قولى بالنكر
وسفهت قولى ، وقالت : متى ... سمجت؟ حتى صرت كالبدر!
والبدر لا يرنو بعين كما ... أرنوا ولا يبسم عن ثغر
ولا يميط المرط عن ناهد ... ولا يشد العقد فى نحر[٢]
من قاس بالبدر صفاتى فلا ... زال أسيراً فى يدى هجرى!

وقال أبو الحسن التهامى[٣] يرثى ابنا له مات صغيراً :

حكم المنية فى البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبراً ... حتى يرى خبراً عن الأخبار
طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار
فإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبنى الرجاء على شفير هار[٤]

فالعيش نوم والمنيـــة يقظة ... والمرء بينهما خيال سار
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت ... منقـادة بأزمة المقـــدار[٥]

---

(١) الضريبة : المضروب .
(٢) المرط : كساء من صوف ونحوه يتخذ إزاراً .
(٣) هو أبو الحسن على بن محمد التهامى . أصله من بلاد العرب من تهامة . جاب الأقطار وطوف البلاد ومدح الرؤساء فى الشام وباديتها ، وأقام بينهم ، وبعثوه جاسوسا إلى القاهرة على الفاطميين ، فقبضوا عليه وسجنوه ثم قتلوه سنة ٤١٦ هـ . وكان مليح الشعر بدويه ، وذاعت مرثيته هذه وكانت سبب اشتهاره .
(٤) الشفير : حافة الشىء وطرفه . وهار : منهار ، أى فإنما تبنى الرجاء على حافة كثيب منهار ، فلا يستقر بناء ، أى لا يتحقق رجاء .
(٥) المقدار : مايقدره الله من شأن .

فاقضوا مآربكم عجالا إنما ... أعماركم سفر من الأسفار
وتركضوا خيل الشباب ، وحاذروا ... أن تسترد فإنهن عوار(١)
فالدهر يخدع بالمنى ، ويغص إن ... هنى ، ويهدم ما بنى ببوار(٢)
ليس الزمان وإن حرصت مسالما ... خلق الزمان عداوة الأحرار
يا كوكبا ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأسحار(٣)
وهلال أيام مضى لم يستدر ... بدراً ، ولم يمهل لوقت سرار(٤)
عجل الخسوف عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مظنة الإبدار
واستل من أترابه ولداته ... كالمقلة استلت من الأشفار(٥)
فكأن قلبي قبره ، وكأنه ... في طيه سر من الأسرار
إن يحتقر صغرا فرب مفخم ... يبدو ضئيل الشخص للنظار
إن الكواكب في علو محلها ... لترى صغاراً وهي غير صغار
ولد المعزى بعضه ، فإذا انقضى ... بعض الفتى فالكل في الآثار
أبكيه ، ثم أقول معتذراً له : ... وفقت حين تركت الأم دار
جاورت أعدائي ، وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري
أشكو بعادك لي ، وأنت بموضع ... لولا الردى لسمعت فيه سراري(٦)

---

(١) وتركضوا خيل الشباب : أي اعملوا فيه وانعموا قبل أن يسترد فإنه عارية .

(٢) أغصه : أذاقه الغصة ، وهي الهم والحزن .

(٣) الكواكب التي تظهر على الشرق في السحر : كالزهرة في قسم من فصول السنة وكعطارد كذلك ، قصيرة مدة الظهور ، لأن الشمس تطلع عقب طلوعها فينسخها ضوؤها .

(٤) استدارة البدر : في وسط الشهر ، وسراره : أي خفاؤه جملة ، وذلك يكون آخر ليلة من الشهر ، وهي التي يظهر بعدها الهلال الجديد .

(٥) الأتراب واللدات : من يولدون في زمن واحد .

(٦) السرار : المساراة ؛ أي الكلام بهمس . والمعنى أنه لولا الموت لسمع ولده صوته وهو يتكلم خافتا ، فهو في قبره قريب منه ، ولكن الموت يجعل هذه المسافة القريبة شقة شاسعة ومكانا نائيا .

والشرق نحو الغرب أقرب شقة   من بعد تلك الخمسة الأشبار[١]
هيهات قد علقتك أشراك الردى   واعتاق عمـــرك عائق الأعمـار
ولقد جريت كما جريت لغاية   فبلغتها وأبوك فى المضمار
فاذا نطقت فأنت أول منطق   وإذا سكتَّ فأنت فى إضمارى
أخفى من البرحاء ناراً مثلما   يخفى من النار الزناد الوارى[٢]
وأخفض الزفرات ، وهى صواعد   وأكفكف العبرات ، وهى جوار
وشهاب زند الحزن إن طاوعته   وار ، وإن عاصيته متوار[٣]
وأكف نيران الأسى ، ولربما   غلب التصبر ، فارتمت بشرار
ثوب الرياء يشف عما تحته   فاذا التحفت به فإنك عار[٤]

وقال على بن النعمان[٥] فى صديق :

صديق لى له أدب   صداقة مثله نسب
رعى لى فوق ما يرعى   وأوجب فوق ما يجب
فلو نقدت خلائقه   لبهرج عندها الذهب

وقال أبو الحسن على بن عبدالرحمن[٦] فى الهجاء :

وذى حرص تراه يلم وفرا   لوارثه ، ويدفع عن حماه[٧]
ككلب الصيد : يمسك وهو طاو   فريسته ليأكلها سواه[٨]

---

(١) الخمسة الأشبار : مسافة بعد اللحد عن ظاهر الأرض .
(٢) البرحاء : الحزن المبرح . والوارى : المتقد بالنار .
(٣) الزند : العود الأعلى الذى يقتدح به النار وورى الزند : خرجت ناره .
(٤) عارض ابن نباتة هذه القصيدة بقصيدة له فى رثاء ابنه ، مطلعها :
الله جارك إن دمعى جارى   ياموحش الأوطان والأوطار
(٥) هو القاضى أبو الحسن على بن النعمان ، قاضى العزيز الفاطمى ، توفى سنة ٣٧٤ هـ .
(٦) هو الشهير بابن يونس المنجم المصرى من فلكيي المصريين زمن الفاطميين ، توفى سنة ٣٩٩ هـ .
(٧) الوفر : المال الكثير .   (٨) طاو : جوعان .

وقال الحسن بن الزبير الأسوانى[١] فى الشوق إلى الشام :

بالله ياريح الشـمال إذا اشتملت الروح بردا[٢]
وحملت من نشر الخزا مى فاغتدى للند ندا[٣]
ونسجت ما بين الغصو ن ، إذا اعتنقن ، هوى وودا
وهززت عند الصبح من أجيادها للزهر عقدا
فـلأت صفحة وجهه حتى اكتسى آسا وورداً
فكأنما ألفت فيـ ـه منهما صدغا وخدا :
مرى على بردى ؛ عسا ه يزيد فى مسراك بردا[٤]
نهر كنصل السيف تكـ ـسو متنه الأزهار غمدا
صقلته أنفاس النسـ ـيم بمرهن ، فليس يصدا[٥]
أحبابنا ما بالكم فينا من الأعداء أعدى !
وحياة حبكم ، بتر بة وصلكم ما خنت عهدا[٦]

وقال عمارة اليمنى[٧] فى وصف دار :

---

(١) هو القاضى المهذب الحسن بن الزبير من كبار الأدباء والشعراء فى دولة الفواطم المصريين ، توفى سنة ٥٦١ ﻫ .
(٢) الروح : النسيم .
(٣) الخزامى : نبت عبق الزهر . والنشر : الشذا . والند: نبت طيب الرائحة.
(٤) البرد بضم الراء : جمع بريد ؛ وهى مسافة كل منزلة لخيل البريد ، وسكن الراء للشعر .
(٥) يصدا : يصدأ . وخفف الهمز لضرورة القافية .
(٦) أقسم أولا بحياة حبه لمشوقه ، ثم أقسم بتربة مواصلة المشوق له ، أى أنه لما لم يواصله ، صار حكم الوصل كالميت المدفون فى قبر ، فهو يحلف به إجلالا.
(٧) هو نجم الدين أبو محمد عمارة الحكمى ، من أهل اليمن ، دخل مصر مؤديا رسالة من أمير مكة إلى الخليفة الفائز الفاطمى ، فأعجبته مصر فأقام بها ، وأكرمه ملوكها ، فلما أباد صلاح الدين الأيوبى ملك الفاطميين فى مصر دبر عمارة مع شيعة الفاطميين المكايد لإعادة دولتهم ، وعلم بهم صلاح الدين فصلبهم وفيهم عمارة سنة ٥٦٩ ﻫ .

أنشأت فيها للعيون بدائعاً　　دقت فأذهل حسنها من أبصرا (١)

فن الرخام : مسيرا ومسهماً　　ومنمنما ومدرهما ومدنرا

وسقيت من ذوب النضار سقوفها　　حتى يكاد نضارها أن يقطرا (٢)

لم يبق نوع صامت أو ناطق　　إلا غدا فيها الجميع مصورا

فيها حدائق لم تجدها ديمة :　　كلا ولا نبتت على وجه الثرى (٣)

لم يبد فيها الروض إلا مزهرا　　والنخل والرمان إلا مثمرا

والطير مذ وقعت على أغصانها　　وثمارها لم تستطع أن تنفرا

وبها من الحيوان كل مشبه　　لبس الحرير العبقرى مصورا

لا تعدم الأبصار بين مروجها　　ليثا ولا ظبياً بوجرة أعفرا (٤)

أنست نوافر وحشها لسباعها　　فظباؤها لا تتقى أسد الشرى (٥)

وكأن صوائك الخيفة أمنت　　أسرابها ألا تخاف فتذعرا

وبها زرافات كأن رقابها　　فى الطول ألوية تؤم العسكرا

نوبية المنشا تريك من المها　　روقاً، ومن بزل المهارى مشفرا (٦)

جبلت على الإقعاء من أعجازها　　فتخالها فى التيه تمشى القهقرى

وقال عمارة اليمنى فى رثاء دولة الفواطم . وفيها إشارة لكثير من أيامهم وعاداتهم :

---

(١) المسير : المخطط . والمنمم : المزخرف : والمسهم والمدرهم والمدنر : ما فيه صور السهام والدراهم والدنانير .

(٢) النضارة : خالص الذهب .

(٣) الديمة : المطر يدوم .

(٤) وجرة اسم مكان ببلاد العرب كبير بين البصرة ومكة تسكنه الوحش من الظباء وغيرها .

(٥) الشرى : مأسدة بقرب الكوفة .

(٦) الروق : القرن . والمهارى : جمع مهرية وهى الناقة المنسوبة إلى بلاد مهرة شرق حضرموت . أى أنها أشبهت بقر الوحش فى القرون ، وأشبهت الإبل فى المشافر .

رميت يادهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... سقيت مهلا(١) أما تمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن ... كمالها أنها جادت ولم أسل
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على صفين والجمل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما ... يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض من وشى ومن شية ... مثل العرائس فى حلى وفى حلل(٢)
وللجوامع من أحباسكم نعم ... لمن تصدر فى علم وفى عمل(٣)
وربما عادت الدنيـــا لمعقلها ... منكم وأضحت بكم محلولة العقل

وقال فى كسر الخليج يمدح العاضد سنة ٥٩٩ :

جودا فهذا صاحب الركن والحجر ... ووارث علم النمل والنحل والحجر(٤)
تمـل أمـير المؤمنين مواسماً(٥) ... تزورك من صوم شريف ومن فطر
ركبت إلى كسر الخليج وإنمـا ... ركبت إلى جبر الرعايا من الـكسر
ولمـا رأيت البر بحراً من الظبا ... تعجبت من بحر يسير إلى نهر
غدوت بفتح السد فى زحف أرعن ... يسدهبوب الريح بالأسل السمر(٦)
يرد ظلام النقـع فجـراً كأنمـا ... أسنتـه مطبوعة بسنا الفجـر

ومنهـا :

وكم قـدرة يا آل رزيك منـكم ... تعبر بالإحسان عن شرف القدر

---

(١) المهل : القطران أو الزيت أو درديه أو ما ذاب من حديد .
(٢) الوشى : النقش والتحسين وخلط لون بلون .
(٣) الأحباس : ما يحبس من الثروة لتكون غلته لوجوه الخير .
(٤) الحجر : الخيل .
(٥) تمل مواسما : أى عش متمتعا بها .
(٦) الأسل السمر : الرماح .

ولو لم تكونوا آمرين على الورى ... لكنتم أحق الناس بالنهى والأمر
فكيف وقد أضحى امام زمانكم ... لكم جامعاً بين الكفالة والصهر
فدمتم له ما دام شعرى فإنه ... سيبقى إلى أن ينقضى عمر الدهر

وقال يمدح الإمام العاضد :

الشعر يعلم أن قدرك أكبر ... مما تقول وأن فضلك أكثر
لكن مدحك خدمة مفروضة ... أمر العقل بفعلها والمكثر
شرفت أمير المؤمنين مواسم ... أضحت تؤرخ باسمكم وتسطر
قسمت كما قسم الزمان فحاضر ... لم ينصرم ومقدم ومؤخر
وأجلها يوم الخليج فإنه ... من بينها يوم أغر مشهر
يوم خلعت عليه ليل عجاجة ... شهب الأسنة فى دجاها تزهر
وافاك فيه النيل وهو من الحيا ... خجل يقدم رجله ويؤخر
قد جاء معتذراً إليك وتائباً ... من ذنبه الماضى ومثلك يعذر
لولا تعثره بأذيال الثرى ... ما كان مذروراً عليه العثير (١)
لو لم تغبر بالندى فى وجهه ... ما لاح قط عليه لون أغبر
ولو انه لاقى ركابك أبيضاً ... صرفا لكدره العجاج الأكدر
ولقد عدمناه فنبت نيابة ... عز الغنى بها وأثرى المعسر
إن كان من نهر فكفك لجة ... أو كان من مطر فوبلك أغزر
شتان بينكما أبحر واحد ... كيد أناملها الكريمة أبحر

وقال من قصيدة يذكر حريق منظرة على الخليج لآل رزيك ويذكر دارهم الأخرى وما فيها من الستور والتصاوير :

لم تحترق دار الخليج وإنما ... شبت لمن يسرى بها نار القرى
طلبت بقاع الأرض دون وهادها ... فتوقدت فى رأس شامخة الذرى
أو هل تزور النار ساحة جنة ... أجريت فيها من نداك الكوثرا
أنشأت فيها للعيون بدائعاً ... دقت فأذهل حسنها من أبصرا

---

(١) العثير : التراب .

ومنها :

لا تعدم الأبصار بين مروجها ... ليثاً ولا ظبياً بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشها بسباعها ... فظباؤها لا تتق أسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها ... فى الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشا تريك من المها ... روقا ومن بزل المهارى مشفرا(١)
جبلت على الإقعاء من أعجازها ... فتخالها للتيه تمشى القهقرا
يأيها الملك الذى اعتصمت يدى ... منه بحبل غير منفصم العرا
اسمع جواهر خاطر لو لم يغص ... فى بحر جودك لم يقل ذا الجوهرا
روى منابت كرمها الكرم الذى ... أضحى بينبوع الندى متفجرا

وقال يمدح المظفر فارس المسلمين أخا الملك الصالح :

سرت نفحة كالمسك أزهى وأعطر ... وأردية الظلماء تطوى وتنشر
بعيشك هل فى الأرض غيرى عاشق ... وهل فارس الإسلام إلا المظفر
شهاب أمير المؤمنين الذى غدت ... بدولته الأيام تسمو وتفخر
أغر لوانا ماعرفنا حديثه ... لحدثنا عنه سرير ومنبر

ومنها :

تهلل بشرا واستهل أناملا ... فلله بدر مشمس الجو ممطر(٢)
أرى الناس جسما آل رزيك رأسه ... وبدر له تاج ورزيك جوهر
دعوا يابنى الأحياء يحيى وجعفرا ... فكل بنى رزيك يحيى وجعفر
ولا تذكروا كعبا وعمرا وعنترا ... فخادمهم كعب وعمرو وعنتر
وخلوا حديث البخترى فإننى ... له بخترى لم تناسبه بحتر(٣)

---

(١) الروق : القرن . والبزل : جمع بازل وهو البعير الذى انشق نابه بدخوله فى السنة التاسعة والمهارى : الابل المهرية المنسوبة إلى مهرة .

(٢) استهل المطر : انهل .

(٣) البخترى بن أبى صفرة ، كان من أكمل فتيان العرب جمالا وبيانا وشعرا ، وكان بنو المهلب يحسدونه لفضله (الأمالى ج ٢ ص ١٣٦) .

وكنت أظن الشعر بعد طلائع ... يضيع فيفنى أو يموت فيقبر
فأحييتم تلك السجايا بعثها ... حياة بها ميت المكارم ينشر

وقال يمدح الناصر بن الصالح :

دانت لأمرك طاعة الأقدار ... وتواضعت لك عزة الأقدار
وسما على الشعرى عملك فى الورى ... فسمت بذلك همة الأشعار

ومنها :

وامدد يديك أبا الشجاع مثوبة ... وعقوبة بالسيف والدينار

وقال محمد بن عاصم الموفق من قصيدة فى وصف دير القصير :

غردت بينها الطيور فطارت ... بفؤاد المتيم المستطار
كم خلعت العذار فيه ولم أر ... ع مشيبا بمفرق وعذارى
كم شربنا على التصاوير فيه ... بصغار محثوثة وكبار
فسق الله أرض حلوان فالنخـ ... ـل فدير القصير صوب العشار

وقال أبو عبد الله محمد بن النعمان وهو من قضاة الفاطميين فى صدر دولتهم :

رب خود عرفت فى عرفات ... سلبتنى من حسنها حسناتى
حرمت يوم أحرمت نوم عينى ... واستباحت حماى باللحظات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت ... من جفونى سواكب العبرات
ولقد أضرمت بقلبى جمراً ... حين راحت الرمى بالجمرات
لم أنل من منىً منى النفس حتى ... خفت بالخيف أن تكون وفاتى

وقال تميم بن المعز :

أما والذى لا يملك الأمر غيره ... ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً ... لإعلانه عندى أشد وآلم
وبى كل ما تشكو العيون أقله ... وإن كنت منه دائما أتبسم

وقال عمارة اليمنى يذكر أيامه بمصر فى عهد الفاطميين :

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر ... سقى عهدك الماضى عهاد من القطر
ليال هى العمر السعيد وكل ما ... مضى من سواها لا يعد من العمر

ومازالت ذكرى الفاطميين تعاوده ، والأسف عليهم يهاجه ، حتى نظم قصيدته المشهورة فى رثاء دولتهم ، وهى تشرح كثيراً من أحوال الفاطميين ومفاخرهم وأيامهم ، وتعد من أجود الشعر فى رثاء الدول .

قال المقريزى وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة (رحمه الله) وتمحلت له الذنوب ، وأول هذه القصيدة :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

ومنها :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل

وفيها يندد بالفظائع التى أوقعها بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على؟
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبى والنفل

ومنها فى ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ... ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم ... يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم ... فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما ... يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية ... مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ ... أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم ... حتى عممتم به الأقصى من الملل
وللجوامع من أحباسكم نعم ... لمن تصدر فى علم وفى عمل

ومن المدائح فى قائدين من قواد الدولة :

النائيان عن المنية والمنى ... فى قسمة الأرزاق والأعمار
والمصلحان فساد كل طوية ... مرتابة بالعرف والإنكار

القائمان إذا تطاول نائك ... بحراسة الأوطان والأوطار
والحاملان عن الممالك ثقل ما ... تحتاج من نقض ومن إمرار(١)
والرافعان غداة كل كريهة ... خطر الملوك على القنا الخطار
والموقدان لهم بكل ثنيـــة ... نار العلا فى رأس كل منار
ولقد جمعت أبا الشجاع إليهما ... خفض الجناح ورفعة المقدار

ومنها :

وغدت علاك صحيفة عنوانها ... أمنت رعية من يخاف البارى
وبنيت بعد أبيك شامخ رتبة ... يغنى العيان لها عن الأخبار
أعلمتنا لما طلعت ببرجها ... أن البروج مطالع الأقمار
يا خابط العشواء بعد طلائع ... هذا الشهاب ضرام تلك النار
يا ظامىء الآمال إنك نازل ... بغدير ذاك العارض المدرار
يا خائف الضارى نصحتك فاتئد ... واحـذر فهذا شبل ذاك الضارى
واسلم لأيام غـدا بك أهلها ... من جورها فى ذمة وذمار

وقال أبو حامد الأنطاكى يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير العزيز الفاطمى :

قـد سمعنـا مقـاله واعتـذاره ... وأقلنـاه ذنبـه وعثـاره
والمعانى لمن عنيت ولـكن ... بك عرضت فاسمعى يا جاره

ومنها :

سحرتنى ألحاظه وكذا كــل مليح ألحـاظه سحاره
ما على مؤثر التباعد والإعــراض لو آثر الرضا والزياره
وعلى أننى وإن كان قد عــذب بالهجر مؤثر إيثاره
لم أزل لا عدمته من حبيب أشتهى قربه وآبى نفاره

ومنها :

لم يدع للعزيز فى سائر الأر ... ض عدوا إلا وأخمد ناره

---

(١) نقض الحبل حله . والإمرار : الفتل الشديد. والمراد بالنقض والإمرار : الحل والعقد فى الأمور .

كل يوم له على نوب الدهـ ـر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخـ ـل وفى حومة الندى كراره
هى فلت عن العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تمـ ـسى وتضحى نفاعة ضراره

وقال :

ليلى بتنيس(١) ليل الخائف العانى تفنى الليالى وليلى ليس بالفانى
أقول إذ لج ليلى فى تطاوله ياليل أنت وطول الدهر سيان
لم يكف أنى فى تنيس مطرح مخيم بين أشجان وأحزان
حتى بليت بفقدان المنام فما للنوم إذ يصدوا عهد بأجفان

ومنها :

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك قد سلفت قطعتهن وعين الدهر ترعانى
كم بالجزيرة من يوم نعمت به على تصاحب نايات وعيدان
سقيا لليلتنا بالدير بين ربا باتت تجود عليها سحب نيسان(٢)

وصعد العزيز على المنبر يوما فرأى فيه رقعة كتب له فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيب فاذكر لنا كاتب البطاقه

وصعد فى بداية ولايته المنبر يوم جمعة فوجد فى أعلى درجاته رقعة فيها هذه الأبيات :

إنا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ماقلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أولا دع الأنساب مستورة وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم يقصر عنها طمع الطامع

---

(١) تنيس : مدينة قرب دمياط .

(٢) نيسان : شهر من شهور السنة المسيحية .

أبو علي تميم بن معد صاحب مصر

(٣٣٧ — ٣٧٤ هـ) (٩٤٧ — ٩٨٥ م)

نسب الشاعر وحياته :

أبو علي تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى ، يقول فيه ابن خلكان :
« كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب . وكان تميم فاضلا شاعرا ماهرا لطيفا ظريفا ، وأشعاره كلها حسنة . وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٣٧٤ هـ بمصر ، هكذا قال صاحب الدول المنقطعة ، وزاد العتيقى فى تاريخه انه توفى يوم الثلاثاء مع زوال الشمس لثلاث عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور وأن أخاه العزيز نزار بن المعز حضر الصلاة عليه فى بستانه وغسله القاضى محمد بن النعمان وكفنه فى ستين ثوبا ، وأخرجه من البستان مع المغرب وصلى عليه بالقرافة وحمله إلى القصر ، فدفنه بالحجرة التى فيها قبر أبيه المعز ، وقال محمد بن عبد الملك الهمدانى فى كتابه الذى سماه المعارف المتأخرة ، إنه توفى سنة ٣٧٥ هـ[1] ، وقال غيرهما إنه ولد سنة ٣٣٧ هـ[2] » .

حضر الشاعر مع والده من بلاد المغرب إلى مصر عام ٣٦٢ هـ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن ثقف ثقافة واسعة ، واكتسب نضوجا فكريا وأدبيا كبيراً ، وذاعت شهرته الأدبية ، وقد فقدنا شعره فى هذه الفترة .

ولما قدم مصر تفتحت عينه على نهضة أدبية شعرية فى قصر والده ، فأخذ يشارك الأدباء والشعراء فى ميدان البلاغة ، تساعده فطرة موهوبة وملكة مواتية وخيال شاعر ، ولكنه فوجىء بموت أبيه سنة ٣٦٥ هـ وحرم هو الخلافة وتولاها أخوه نزار ، وأخذت الوشايات تكثر . ولكن تميما سلك مسلكا ينئ عنه كل هذه

---

(١) ويروى صاحب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة أنه توفى فى عام ٣٦٨ هـ (١٣٣ جـ ٤) فحزن عليه نزار أخوه ، وكان له ثلاث إخوة : نزار وعبد الله وعقيل ، وقد مات عبد الله وعقيل قبل وفاته ورثاهما فى شعره ، كما كان له سبع أخوات (٧٧ جـ ٤ النجوم الزاهرة) .

(٢) ص ٣٧٢ و ٣٧٣ جـ ١ ابن خلكان .

الوشايات ، وجعل مثله فى الشعر والحياة ابن المعتز ، فتشبه به ، وتشبث بذيله ، وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره كما يقول ابن فضل الله العمرى ، وحياة تميم ونشأته وثقافته وشخصيته تشبه إلى حد كبير حياة ابن المعتز ، وأخذ تميم يبعد عن نفسه الشبهات فى المطامع السياسية ففعل ما فعله ابن المعتز بميله إلى اللهو والمجون ومجالس الشرب والطرب ، وقد أجاد تميم فى الوصف والتصوير والمدح والغزل والتشبيه والزهد والفخر والشكوى كما كان ابن المعتز ، بل عارض تميم ابن المعتز فى قصائده ، وناقضه فى هجائه للعلويين ، فدافع عنهم تميم ورد على خصومهم ردا مفحما

ومن حياة اللهو التى وردت عن تميم ما حكاه المقريزى فى الخطط ص ١٥٤ و ١٥٥ ج ٢ من أن الناس كانوا يخرجون فى أيام النيروز وغير ذلك من أيام اللهو إلى بركة الحبش ، فاذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا ، فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان فى بيته ولا يضيع لأحد منهم ماقيمته حبة واحدة ، ويركب الأمير تميم فى عشارى ويتبعه أربعة زوارق مملوءة فاكهة وطعاما وشرابا فإن كانت الليالى مقمرة وإلا كان معه من الشموع مايعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ويأمر لمن يغنى لهم ، وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التى على هذه البركة[1] ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ، ويتفرق الناس ، وكانت قصور تميم تزخر بالجوارى .

وأسلوب تميم سهل ممتنع دون عجز عن الجزالة ، وكان يستعمل الأساليب المصرية الفصيحة ، فاستعمل كلمة « بوس » بمعنى التقبيل فى شعره وهى معربة عن الفارسية ، وكلمة « كيس » لحافظة النقود ، وكلمة مفاليس ، وكلمة « قرص » ، واشتمل شعره على بعض المحسنات البديعية ، وخاصة الاستعارة والتشبيه والكناية.

وتمتاز معانيه بالوضوح والجلاء ، وأغلبها متداول مشهور ، وله معان مبتكرة جميلة قليلة ، من مثل قوله :

أجنى ثمار الخز من مضحك   شفاهه من ورق   الورد

---

(١) كانت فى ظاهر الفسطاط من قبلها فيا بين الجبل والنيل (١٥٢ ج ١ المقريزى)

وقد أثنى عليه وعلى شعره جميع الأدباء والنقاد ، وذكروا كثيراً من مختاراته كالحصرى[1] ، وابن خلكان[2] ، والثعالبي في اليتيمة والعمرى صاحب «مسالك الأبصار» .

وكان واسع المعرفة[3] ، وكان يحتذى مثال ابن المعتز ويقف في التشبيهات بجانبه[4] .

ولتميم مراسلات أدبية مع الرسى ، وهو من أسرة مشهورة ، فقد كانت في هذا العهد أسرة الرسى أصيلة في روض القريض ، عريقة في مضمار البلاغة ، والرسيون من ولد الحسين ، ونسبتهم إلى الرس جبل بين اليمن وعمان ، ونزلوا مصر وأقاموا بها مكرمين ، وركنوا إلى العلوم والآداب ، ومنهم أبو عبد الله الحسين بن الرسى الذى تروى له أخبار مع تميم ومراسلات شعرية [5] .

ولتميم ديوان شعر مخطوط بدار الكتب المصرية وهذا الديوان صورة من الأدب المصرى . فيه الخصائص المصرية بقدر ما فيه من الخصائص العربية ، فهو شاعر مصرى صميم ، وإن لم يكن مصرى المولد والنشأة والتربية .

ويرى المتتبع لهذا الديوان أسماء لمواطن وأوصافا لجهات معروفة بالقاهرة وضواحيها حتى اليوم ، كما يكشف هــذا الكتاب عن الحالة الأدبية في العصر الفاطمى ، وكذلك المذاهب الإسلامية والحوار المذهبي في ذلك العهد . والاحتفاظ بهذا الديوان ضرورى للتاريخ والأدب ، ولا سـيما إذا عرفنا أن العصر الفاطمى قد ذهبت آثاره وانطوى سجل التاريخ على مخلفاته . فلم يفتح إلا على القليل منها . فقد تقرأ في المصادر التاريخية أن مائة من الشعراء هنأوا أو رثوا أو مدحوا أحد الخلفاء الفاطميين . ثم لا تجد هؤلاء الشعراء ولا أشعارهم فقد أحرقت مكتبات وضاع بعضها بين تموج الحوادث وأعاصير الانقلاب السياسى . فكل ورقة نعثر عليها الآن تعد ذات قيمة غالية بالنسبة لموضوع الأدب المصرى بالذات .

وجاء في مقدمة هذا الديوان:

---

(١) ١٨٣ – ١٩٠ : ٣ زهر الآداب . (٢) ١٧٢ – ١٧٣ : ١ وفيات الأعيان .

(٣) راجع ص ٢١٧٠ – ٣٠٠٣ ج ١٢ مسالك الأبصار وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤) ٤٧٨ العدد ١٢ من المجلد الخامس من دائرة المعارف (٥) ١٨٣ : ٣ زهر

أما بعد فإن الأمير الكبير تميم بن المعز لدين الله العلوى ، كان قد ولى إمارة ممالك الشعر ، وألقى إليه زمام التصرف فى أقطار النظم والنثر . وذلك لركوب براعته كل صعب من فنون الإتقان ، وسهل لتسلق براعته كل حزن من ضروب سحر البيان ، قد خطب فى كل فن من شعبه على منبره ، وتحلى فى كل ندى من رتبه بحلى ردائه ومئزره ، وصاول فيها الفحول ، وقاوم بها كل بازل[1] صؤول ، ولم تذله ركة[2] الطمع فتستنزل مديحه ، ولم تخالجه مهانة السوقة فتغش خطابه الملوك صريحة ، بل كان مقصود الثناء ، مصمود الغناء ، ألسنة المدائح فى مكارمه مطلقة الأعنة ، وهو لم يبد فى غير أبيه وأخيه الإمامين بلفظة سنة . ومن أحسن ما قيل فيه قول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى　　من الخبر المأثور منـــذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا　　عن البحر عن كف الأمير تميم[3]

وقد جمع فى هذا السفر ما وجد من فنون نظمه ليكون دليلا على المفقود من أفانين حكمه ، وسبيلا إلى التنزه فى طرائق أدبه وعلمه[4] .

صور من حياة تميم :

قال يرثى أخاه عقيلا فى قصيدة منها :

قسمة المـــوت قسمة لا تجور　　كل حى بكأسها مخـــمور

وكان العزيز مبرزا بعين شمس فغاب تميم عنه بالقاهرة لمرض ألم به أربعة أيام ، فكتب إليه أبياتا رائية معتذرا :

أغيب ولى مهجة لا تزال　　إليك سراها وتبكيرها

وقال يفضل العلويين يرد على ابن المعتز فى قصيدته « أى ربع لآل هند ودار » :

جادك الغيث من محـــلة دارى　　وثوى فيك كل غاد وسارى

---

(١) البازل : البعير الذى فطر نابه ، أى انشق بدخوله فى السنة التاسعة .

(٢) الركة : المطر القليل ، ويعنى به هنا القلة والحرص .

(٣) أورد ابن خلكان البيتين فى مدح تميم بن المعز بن باديس الإفريقى (١/١٢٧ - طبع بولاق) .

(٤) ص ٤ و ٥ ديوان الشاعر المخطوط .

حكت بعد قاطنيك الليالى   فى مغانى رباك بالأقفار
ورمتك الخطوب منهم ببين   ورحيل القطين موت الديار

وهى قصيدة طويلة .

وقال وقت الخروج من الشام عام ٣٧٤ هجرية :

قالوا الرحيل لخمسة تأتى   سراعا من جمادى
فأجبتهم إنى اتخذت له   البكا والحزن زادا
سبحان من قسم الهوى   بين الأحبة والبعادا

ومن قصيدة له فى مدح المعز :

ومن كان ذا علم بالزمان وأهله   تيقن أن الناس كلهم وغد

ومن قصيدة له يهنىء فيها العزيز :

أتيت به أبا المنصور فرداً   تنير به الليالى وهى سود

وله يمدح المعز ويهنئه بيوم عيد وبشفائه من علة :

ألا كل يوم من زمانك عيد   وهل فوق إشراق الضحاء مزيد؟

ومدح العزيز بأرجوزته : دم المشتاق مطلول .

وكتب إلى العزيز :

مرض الجود والنوى والإكرام   وشكا ما شكوته الإسلام

ومن شعره يرثى جارية له :

كانت رضى النفس ونيل المنى   ولذة العيش وطيب المدام
خلائق كالشهد معسولة   وعشرة كالروض غب الغمام
أنغى إلى العود وأوتاره   ذا الغناء الحائز حد التمام

وله يفتخر بقصيدة مطلعها :

همى أناقت بى على الهمم   قبل الفطام ومبلغ الحلم
وسما بقدرى فى العلا أدبى   حتى وطئت كواكب الظلم

وله يمدح العزيز ويهنئه بالعيد بقصيدة طويلة :

تميط الأذى عن حامليها الصوارم   ويبنى المعالى الكرام المكارم

ومنها :

وأبيض يحكى البدر غرة وجهه   وتحكى يديه فى السماح الغمائم

وله أرجوزة نونية فى مدح العزيز مطلعها :

يا رب ليـــل عطر الأردان   من نسيم النرجس والسوسان
كأنما أنجمــه الدوانى   فى أفقه روضـة اقحوان

ومنهـا :

يا ابن معز الدين والإيمان   وابن الملوك الشم من عدنان
لولاك ما نلت مدى الأمان   ولا احتلبت درة الزمان

وله يمدح العزيز بقصيدة طويلة جداً أولها :

نعت بالبين غربان   فأحبابك أظعـان

ومنهـا :

عسى أن ترجـع الأيام   صـــحبي كما كانوا

ومنهـا :

إمام حبـــه فرض   من الله وإيمـان
أبا المنصور إن النـاس   طرا لك قد دانوا
وقـــد نادتك بالطاعة   والإخـــلاص بغدان

وكتب مستشفعا فى الحسن بن عبد الله بن طغج إلى العزيز :

تكرمت حتى جزت حد التكرم   وألبست أثواب الغنى كل معـدم

وله يمدح المعز من قصيدة مطلعها :

لولا معد أمـــير المؤمنين لما   عز الهدى وفشت فى عصرنا النعم

وله يمدح المعز :

يا سراج الظـــلام جنح الظلام   ومبيد العـــداة يوم اللطام

وله كذلك يمدح العزيز بقصيدة طويلة مطلعها :

دعانى فليس الرأى ما تريان   نهانى الحجى عن كل ما تصفان

وكذلك يمدح العزيز بقصيدة طويلة مطلعها :

أسرب مها عن أم سرب جنة   حكيتهن ولستن منـــه

وله قصيدة طويلة مطلعها فى رثاء أهل البيت :

من كنت مولاه فقد   أضحى أبو حسن وليه
جلت بسفك دم الحسين   وقتله عندى الرزية
ماذا أبيح بكر بلاء   من النفوس الهاشمية

وله فى العزيز من قصيدة طويلة جدا :

ليهن مصر العلى وما جمعت   به من المكرمات والدين

وله فى العزيز :

ليهنك يا ملء أعين الزمان   دوام السرور ونيل الأمانى
وإنك أنت الإمام الذى   أبان له الفضل نص القران

ألوان من شعر تميم

قال تميم (١) :

يا بنى هاشم ولسنا سواء   فى صغار من العلا وكبار
إن تكن تنتمى لجد فإنا   قد سبقناكم لكل فخار
ليس (عباسكم) كمثل (على)   هل تقاس النجوم بالأقمار ؟
يا بنى فاطم إلى كم أقيكم   بلسانى ومنصلى وانتصارى
فخذوها منى نتيجة فهم   بين حد الأقلال والإكثار
غير أن البيان يظهر فيها   ساطعا نوره بغير استتار
حجج كلما تأملها العـ   ـقل بانت له بيان النهار

وقال :

ألا يا أيها الطير الموافى   لقد أطلقت من فكرى سراحى
تذكرت الزمان وما دهانى   به من حادث القدر المتاح
ولو لاقيت ما ألقى لضاقت   عليك موارد البيد الفساح
لعل الله يفرج ما ألاقى   ويأخذ للمراض من الصحاح

---

(١) المرجع : ٢١٣ : ٣ ظهر الإسلام ، وفى ص ٢٣٢ كتاب المعز لدين الله الأبيات الثلاثة الأولى ، وفى ٢٣٠ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر لعبد الحميد عبده خليل الثلاثة الأبيات الأخيرة .

وكتب إلى منكوب :

إن الأمور إذا اشتدت معاقدها يفرج الله منها كل ما وردا
كذلك الدهر إن جاءت فوادحه فى اليوم فارج لها ألا تدوم غدا
كم من مهم قريب خيف سطوته لحل من صعبه المقدار ما عقدا
ما أحسن الصبر فالبسه وإن عظمت رزية فالزم الإقدام والجلدا
والله لو كان لى حكم على زمنى جعلته لك محضا صافيا أبداً

وقال مفتخراً من الكامل(١) :

ألق الكمى فلا أخاف لقاءه ويفل إقدامى شبا الحدثان
وأكر فى صدر الخميس معانقاً للموت حين يفر كل جبان
ويزيدنى كر(٢) الخطوب تعظما وتسلط الأيام عز مكان
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق ذرعا بأيامى وغدر زمانى
وكما يمل الدهر من إعطائه فكذا ملالته من الحرمان
وكما يكر لمعشر بسعادة فكذا يكر لمعشر بهوان
فاذا رماك بشدة فاصبر لها فلسوف يأتى بعدها بليان
وسل الليالى عن نفاذ عزيمتى وسل الحوادث عن ثبات جنانى
يخبرك عنى أننى لم ألقها بين العزائم واهن الأركان
أصبحت لا أشتاق إلا للندى إلفاً ولا أهوى سوى الإحسان
وإذا السيوف قطعن كل ضريبة قطع السيوف القاطعات لسانى

وقال تميم (من الكامل)(٣) :

يادهر ما أقساك من متلون فى حالتيك ، وما أقلك منصفاً

---

(١) المرجع : ٤٤٠ : ١ اليتيمة ؛ والبيت الخامس فى وفيات الأعيان صفحة ١٧٢ ج ١ ، ٤٠ : ٢ المفصل ، ٢٠ صفحات من الأدب المصرى .

(٢) رواية اليتيمة : كل

(٣) مراجع القصيدة :

ص ٤٢٦ ج ١ اليتيمة للثعالبى نشر محى الدين عبد الحميد ، ٢١٣ : ٣ ظهر الإسلام ٣٩ ج ٢ المفصل ، ٢٤٩ و ٢٥٠ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر للأستاذ عبد الحميد خليل وهى رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة ، ٢٣٠ المعز لدين الله ، ١٤٨ : ٢ زهر

أتروح للنكس الجهول عهداً   وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفا؟
فإذا صفوت كدرت شيمة باخل   وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضيك وإن صفوت لأنني   أدرى بأنك لا تدوم(١) على الصفا
زمن إذا أعطى استرد عطاءه   وإذا استقام بدا له فتحرفا
ماقام خيرك يازمان بشره   أولى بنا ما قل منك وما كفى

وقال :(٢)

وذى عجب من طول صبرى على الذى ألاق من الأرزاء وهو جليل
يقولون ماتشكو؟ فقلت متى شكا   شبا السيف عضب الشفرتين صقيل
وإن امرأ يشكو إلى غير نافع   ويسخو بما فى نفسه لجهول
عداك أن أشكو إلى الناس أننى   عليل ومن أشكو إليه عليل
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمه   بجملة ما ألقاه قبل أقول
سأسكت صبراً واحتسابا بأننى   أرى الصبر سيفا ليس فيه فلول

ويقول(٣) :

ليس من ساد عن وراثة جد   أو لحظ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشكـ   ـر ويحوى مدائح المداح
إنما السيد المعلى المفدى   من علا للعلا صدور الرماح
ورمى ليل كل خطب بهيم   بذكاء أضوا من المصباح
واقتنى العز بالظبا والعوالى   واشترى الحمد بالثنا والسماح
فكذا تنتمى المكارم والمـ   ـجد ويستعبد العدو الملاحى
لاكمن يجرى برجل سواه   وسما طائراً بغير جناح
لا ألفت العلا ولا ألفتنى   إن توشحت دونها بوشاح
أو ترفهت أو تشاغلت عنها   بأباطيل قينة أو براح
لا ولا ابيض لى سنى المجد إن لم   أستجد غسله بنزف الجراح
وألاق العداة عنه بعزم   علوى يفل حد الصفاح

---

(١) رواية ظهر الاسلام : تقوم : والرواية الأولى أبلغ .
(٢) المرجع : ١٤٧ : ٢ زهر
(٣) ١٧١ فى أدب مصر الفاطمية .

وبعطش يفرى الجماجم والـ أعناق فرى المدى لحوم الأضاحى
أنا فرد النهى ورب المعالى وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قفل كل نوال يوم يغدو الندى بلا مفتاح
أنا كالجد فى الأمور إذا ما كان عيش فهن مثل المزاح
لا كراض من العلا بادعاء وبمرض بجرح مستباح
فسل المجد عن صباحى وليلى ومقيلى وغدوتى ورواحى
هل يسر العلا مقالى وفعلى وارتياحى لكسبها واقتراحى
ها كها كالصهيل فى حلبة الفخر إذا كان غيرها كالنباح

وجاءت فى رواية أخرى :

لا ألفت العلا ولا ألفتنى إن توشحت دونها بوشاح
لا ولا ابيض لى سنا المجد إن لم أستجد غسله بنزف الجراح
أنا فرد النهى ورب المعالى وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قفل كل نوال يوم يغدو الندى بلا مفتاح
أنا كالجد فى الأمور إذا ما كان غيرى فهن مثل المزاح
فسل المجد عن صباحى وليلى ومقيلى وغدوتى ورواحى
هل يسر العلا مقالى وفعلى وارتياحى لكسبها واصطباحى

وقال فى الزهد (١) :

يا عجبا للناس كيف اغتدوا فى غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصى ثبات
من شك فى الله فذاك الذى أصيب فى تمييزه بالسبات
يحييهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدم للحياة

وقال :

يا دهر كم يشتد حربك ويكر بالنكبات خطبك
يا دهر ما ذنبى إليك وقد تعاظم فى ذنبك
بينى وبينك فى الذى أوليتنى ربى وربك

(١) ص ٢٥٠ و ٢٨٠ فى أدب مصر الفاطمية .

وقال تميم[١] :

إذا فزع الشوق حب القلوب — كواها بشدة تلهابها
أرقت لبرق أضاء الدجى — وأذهب حلكة أطنابها
تملل ما بين حوذانها[٢] — وطيب ثراها ولبلابها
بصفراء شابت ولم تحتلم — وأنحلها طول أحقابها
سلاف إذا انتسبت للنديم — غدا الكرم أوكد أنسابها
كأن السقاة لها يقسمون — شعاع الشموس لشرابها
تطوف علينا بها غادة — كأن الضحى بين أثوابها
إذا سلطت سحر أجفانها — دلالا أشارت بعنابها
دعاني فلست بمستحسن — لطرق المجون وآدابها
ألا قل لمن ضل من هاشم — وراق اللحوق بأربابها
أأوساطها مثل أطرافها — أأرؤسها مثل أذنابها ؟
أعباسها كأبي حربها — (علي) وقاتل نصابها ؟
وأول مؤمنها بالإله — وأول هادم أنصابها
بني هاشم قد تعاميتم — فخلوا المعالي لأصحابها
أعباسكم كان سيف النبي — إذا أبدت الحرب عن نابها ؟
أعباسكم كان في بدره — يذود الكتائب عن غابها ؟
أعباسكم قاتل المشركين — جهارا ومالك أسلابها
أعباسكم كوصي النبي — ومعطي الرغاب لطلابها
أعباسكم شرح المشكلات — وفتح مقفل أبوابها

---

(١) يعارض بها قصيدة ابن المعتز التي مطلعها :

ألا من لعين وتسكابها — تشكى القذى وبكاها بها
ألا من لنفس وأوصابها — ومن لدموعي وتسكابها

وقصيدة تميم موجودة في ٢٥٣ — ٢٥٦ الأدب في عهد الفاطميين بمصر .

(٢) نبات سهلي حلو طيب يرتفع طول الذراع له زهرة حمراء في أصلها صفرة وورقته مدورة .

عجبت لمرتكب بغيه   غوى المقالة كذابها
يقول فينظم زور الكلام   ويحكم تنميق أذنابها
لكم حرمة يا بنى بنته   ولكن بنو العم أولى بها
وكيف يحوز سهام البنين   بنو العم ؟ أف لغصابها
بذا أنزل الله آى القران   أتعمون عن نص إسهابها ؟
لقد جار فى القول عبد الإله (١)   وقاس المطى بركابها
ونحن لبسنا ثياب النبى   وأنتم جذبتم بهدابها
ونحن بنوه ووراثه   وأهل الوراثة أولى بها
وفينا الإمامة لا فيكم   ونحن أحق بجلبابها
ومن لكم يا بنى عمه   بمثل البتول وإنجابها ؟
ومن لكم كوصى النبى   أب فتراموا بنشابها
ألسنا لباب بنى هاشم   وساداتكم عند نسابها
بنا صلتم وبنا طلتم   وليس الولاة ككتابها
ولا تسفهوا آنفا بالكذاب   فذاك أشد لإتقابها
فأنتم كلحن قوافى الفخار   ونحن غدونا كأعرابها

وقال يفتخر على بنى العباس :

أقروا لنا يا آل عباس بالعلا   فلستم لها يا آل عباس أكسبا
سبقناكم للدين والهجرة التى   تأخر عنها جدكم وتحجبا
وكنتم بنى عم النبى محمد   وكنا بنيه وهو كان لنا أبا
وليس بنو أعمامه فى دنوهم   كمثل بنيه خلطة وتنسبا
نبا جدكم عن نصره يوم بعثه   وجد على جدنا عنه ما نبا

وقال يذم الدهر(٢) :

وبـ[illegible]ـهـــرك تتق   فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصى الرحمن   فيا أنت راكب

---

(١) يريد به عبدالله بن المعتز .
(٢) ص ٢٥٠ و٢٨٠ من أدب مصر الفاطمية .

لأمنت من نار الجحيم ... وفى الحياة من النوائب
إن لم تراقب من له ... حكم عليك فمن تراقب ؟

وله يمدح المعز :

شكا العود بالأوتار شكوا فأطربا ... وترجم عن معنى الضمير فأعربا
فلم يك شاك مثله بث شجوه ... فأفرح محزونا وفك معذبا
وإنى سبقت الدهر للمجد والعلا ... وسدت جميع الناس شرقا ومغربا
وما ذاك إلا أننى بسعادتى ... غدوت قـــريبا من معد مقربا

وله يرثى أهل البيت(٢) :

نأت بعد ما بان العزاء سعاد ... لحشو جفون المقلتين سهاد
نأت بعدما ألقت مكايدها النوى ... وقرت بهم دار وصح وداد
وقد تؤمن الأحداث من حيث تتقى ... ويبعد نجح الأمر حين يراد
أعاذل لى عن فسحة الصبر مذهب ... وللهو غيرى مألف ومصاد
ثوت لى أسلاف كرام بكربلا ... هم لثغور المسلمين سداد
فكيف يلذ العيش عفوا وقد سطا ... وجار على آل النبى زياد
تساق على الإرغام قسرى نساؤهم ... سبايا إلى أرض الشآم تقاد
يسقن إلى دار اللعين صواغرا ... كما سيق فى عصف الرياح جواد
فعز على (الزهراء) ذلة (زينب) ... وقتل (حسين) والقلوب شداد
وقرع يزيد بالقضيب لسنه ... لقد بخسوا أهل الشآم وهادوا

وقال(١) :

إذ الدهر أعطاك القياد مملكا ... ودارت بما ترجو عليك سعوده
فلا تمم فيه عين قلبك حيرة ... وخذ وأقد من كل ما تستفيده
يموت الفتى طفلا وكهلا وعبطة ... ويبقى على الأيام والدهر جوده
فكن بجميع الناس فيه مشاركا ... فما قليل سوف تصحو رعوده

---

(١) المرجع ٢٨١و٢٨٢ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

(٢) المرجع : ٢٨٤ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر

ولاتتكبر إن قدرك فوقا   ملكت وإن الكبر ما لا يريده
وزد لعطاء الله ذل تواضع   فإنك والأقوام طرا عبيده

وقال فى والده المعز[١] وقد عمل شمسية للبيت الحرام :

إليك مدت رقابها العرب   والملك ماء عليك منسكب
وأنت فى دوحة النبوة لا   تألف إلا عداتك الريب
ألست من يرهب الإله ولا   يصده عن حدوده سبب
فهكذا تصدع الملوك إذا   صالت وتنق الضلالة الشهب
ويزدهى الدين بالمعز لدين اللـ   ـه والمرهفات واليلب[٢]
وكل رحراحة عزائمه دلا   صها والرماح والقضب
وهذه الدولة التى زخرت   فلم يسعها الزمان والحقب
يا حبذا دهرك الزلال إذا   أمر دهر وعصرك الشنب
وحبذا الشمسة التى نصبت   يقصر عنها المديح والخطب
قايست العيد وهى حلته   وأخجلت اليوم وهى منتصب
يهب ياقوتها العيون فما   يكمل الأمر حيث يلتهب
دوائر أحدقت بدرتها   أهلة لا تجفها السحب
كأنما درها وجوهرها   نجوم ليل سماؤها ذهب
نظمتها للهدى وآيته   وإن سخطن الكواكب العرب
فى كبد المسجد الحرام بها   شوق وللبيت نحوها طرب
فلا تمشى بأهله زمن   إلا بما تشتهى وترتقب
عليك صلاة الإله ما طلعت   شمس ، وما انهل عارض لجب

وقال يمدح الخليفة المعز لدين الله ويهنئه فى يوم عيـــد ويذكر إفاقته من علته وهزيمة القرمطى :[٣]

---

(١) المرجع ١٦٨ فى أدب مصر الفاطمية .
(٢)الترس أو الدرع اليمانية .
(٣) المرجع : ٢٧٧ و ٢٧٨ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

ألا كل يوم من زمانك عيد ... وهل فوق إشراق الضحاء مزيد
زمان كريمان الشبيبة ناعم ... وعصر قديم بالمعز جديد
ولكن يوم العيد خص بموقف ... له كل أيام الحياة سعود
يلوح عليه من تجليك رونق ... ويظهر فيه من سناك وقود
فلا تحسبوا اللفظ الذي سار خطبة ... ولكنه حلى لهم وعقود
تبلج هذا الملك عنك وأشرقت ... ترائب من أفعاله وخدود
ليهنك أن الله فوقك مالك ... ودونك كل المالكين عبيد
وأنك غرس الله فينا وإننا ... عروسك ينمى فضلها ويزيد
وقد شرد الله الأعادي والضنى ... وأعقب نار الحادثات خمود
بعز يسود الخافقين ودولة ... لها فوق أعنان السماء صعود
فرحت وحسن البرء مثلك زاهر ... وشخص الضنى كالمارقين طريد
فأي أيادى الله تبدا بشكرها ... لديك وأي المكرمات نعيد
وللناس آمال ضروب وأنفس ... تسوق إلى أوطارهم وتقود
وليس لنا إلا عليك معول ... وليس لنا إلا إليك محيد
فلا زالت الدنيا ونورك لبسها ... ولبسك فيها صحة وخلود

وقال يرثى والده الخليفة المعز لدين الله الفاطمى :

كيف لا تعدم الجسوم القلوبا ... وترى نضرة الوجوه شحوبا
فقدوا بعدك القلوب اللواتى ... شقها واجب فشقوا الجيوبا
وامعزاه وامعزاه حتى ... يغتدى الدمع بالدماء خضيبا
فليذق غيرى الحياة فإنى ... لا أرى للحياة بعدك طيبا
من يعزى الجياد أم من يسلى ... مجلس الملك والسرير الكئيبا

وقال يمدح العزيز[1] :

رأيت معداً كالحسين وإنما ... تطول على المولود إن أنجب الجد
تعرب فهماً مثلاً ذاب رقة ... وظرفاً فما فى وصف مثل له حد
به يشتق السمع الأصم بلفظه ... وتشفى برؤيا وجهه الأعين الرمد
كأن ضياء الشمس رداه نوره ... وأهدى إليه قلبه الأسد الورد
وليس يبالى أن يروح ويغتدى ... من المال صفراً حين يصبو له المجد

---

(١) المرجع ١٦٤ فى أدب مصر الفاطمية

كأنك لا ترضى لنفسك خلة   إذا لم يكن فى كل كف لها رفد
ولست تبالى أن تروح بعيشة   تضيق إذا كانت علاك هى الرغد
ولولا احتمال النفس كل مشقة   إذن لتساوى فى العلا الحر والعبد
حبيت بسنى شعرى زمانا ولم يزل   لدى مصونا لا يبين ولا يبدو
ونزهته دهراً فلما هززتنى   هززت حساما ليس ينبو له حد
كهذا السيف لا تستخبر العين عتقه   إذا لم تفارقه الخمائل والغمد
فسار بمدحى فيك كل مهجر   وغنى به فى السهل والوعر من يحدو
وصاغت له علياك حسنا وزينة   وصيغ لها من حلى ألفاظه برد
وليس لكل الناس يستحسن الثنا   كما فى كل العطل يحسن العقد
وكم لك عندى من يد وصنيعة   أقر بها منى لك اللحم والجلد
فلا يعجب الحساد لى أن وددتنى   لحق لمثلى من مثالك ذا الود
رأيتك يغنى العذر حقدك كله   فترضى ولا يغنى مواهبك القصد
ولا توعد الجانى إذا زل بل له   إذا اعتذر المعروف عندك والوعد
وتجحد ما تولى يداك من الندى   وإن كان عند المجتدى للندى جحد
ولو كفر العافون نعماك لم يكن   لطبعك منك الآن عن كرم رد
وتهتز للمــــدح اهتزاز مهند   تناوله يوم الوغى بطـــل نجد
عليك صلاة الله ما لاح بارق   وماحن مشتاق تداوله الفقد

ويقول لأخيه العزيز ولعل هذه الأبيات مكملة لما سبق : (١)

ومالى لا أحوى بك العز والمنى   وأنت على كل الأمور قدير
وكيف أخاف الحاسدين وبغيهم   وأنت عليهم لى يد وأمير
كلانا لأصل واحد ولوالد   إذا ما دعانا الانتساب نصير
فلا تنس منى ناصحا وابن والد   ووالدة ما فيه عنك نفور
يود بأن تبقى عزيزاً مسلماً   ويفديك من صرف الردى ويجير

ويقول للعزيز (٢):

فيا ابن الذى استنبط الوحى عنهم   وأضحى بهم وجه الزمان ينير

---

(١) المرجع ٢٢٨ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .
(٢) المرجع ٢٨٠ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

ويا ابن الملوك الشم من آل هاشم ... ومن طاب منهم ظاهر وضمير
لك الأول العالي الزكي الذي انتهى ... به المجد يوما والأوائل زور
إذا عد قوم للفخار عشيرة ... غدا لك من آل النبي عشير

وقال للعزيز[1]

جئت الخلافة لما أن دعتك كما ... وافى لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منهملا ... فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره ... تناهيا جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت ... خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل ... وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت آية من نسل مرسله ... وأنت خيرته الغراء من مضر
لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها ... مثوى وكنت مليك الأنجم الزهر
ولو تقاطنت الألباب فيك درت ... بأنها عنك في عجز وفي حصر

وقال تميم يخاطب أخاه الإمام العزيز :[2]

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها ... وفي أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب ... ومن مكثر فيها الجدال ولا يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس ... وتعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله ... بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا ... وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن ... بما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وأن جميع الكافرين مصيرهم ... إلى النار في يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية ... وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن ... يجلى ظلام الشك عن كل ذي فكر
فعدنا إلى أن الكواكب زينة ... وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة في بروجها ... تسير بتدبير الإله على قدر

---

(١) المرجع : ١٤٦ في أدب مصر الفاطمية .

(٢) المرجع : ٧٤ و ٧٥ في أدب مصر الفاطمية .

وأن جميع الغيب لله وحده ... تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما ... رووه عن المختار جدهم الطهر

وقال تميم يمدح العزيز وهى أول قصيدة له فيه عام ٣٦٥ هـ :

وجارية مرهفة القد ... ظالمة مظلومة الخد
كالقمر الطالع لكنها ... فى حسنها كالرشأ الفرد
فى ليلها البدر وفى دعصها ... غصن به رمانتا نهد
تبسم عن برق وعن لؤلؤ ... منتظم أحلى من الشهد
بتنا معا تحت ظلال الدجى ... من مفرش الورد على مهد
أجنى ثمار الخمر من مضحك ... شفاهه من ورق الورد
كأننى ليث وظبى غادر ... مع شادن أحور فى برد
تكتمنى ما عندها من جوى ... منى كما أكتم ما عندى
تخفى وتبدى لى وجدا كما ... أخفى من الحب وما أبدى
أصد عنها ظالما كلما ... زادت من الوصل على الصد
لا ند فى الحسن لها مثلما ... أنى فى الحب بلا ند
لا زالت الجيزة معمورة ... بكل عطبول الحشا نهد
إنى ألذ العيش فيها بما ... أولى عزيز الدين من رفد
المجد بسام إلى ما جد ... أروع بسام إلى المجد
كأنما راحته مزنة ... تبدى بلا برق ولا رعد
كأنما فى الجزم آراؤه ... مشتقة من قضب الهند
الملك ذو عقد ولكنه ... فى عصره واسطة العقد
ما السيف أمضى منه فى عزمه ... فى غمده قد سل من غمد
يا أيها البدر الذى جده ... محمد أكرم من جد
ويا عزيزا هو عز الهدى ... والدين والدنيا بلا جحد
ومن ألان الدهر حتى لقد ... ألان صلب الحجر الصلد
أين معز الدين أكرم به ... من والد بل منك من ولد
قل لنزار تمم الله ما ... نرجوه من حل ومن عقد
أصبحت لى مولى أرى حبه ... وسيلة للصمد الفرد
من يرج ردءا خلفه عدة ... فأنت من بين الورى ردى

يا ليت خدى لك أرض فما   آنف أن تمشى على خدى
تفديه بالأنفس من ماجد   بر جواد واسع الرفد
واسلم لعز الملك والدين ما   ناح حمام الأيك للفقد
قصرت فى مدحك لكننى   أواصل المدح كما أبدى
فإن تسامحنى فيا نعمة   يقصر عن حمدى لها جهدى(١)

وأرسل الخليفة العزيز إليه يطلب منه توجيه المراكب التى تسير يوم فتح الخليج ، فأنفذها وكتب معها :

بعثت بساكنات طائرات   تفوت اللحظ وهى بلا جناح
ولو أنى استطعت بعثت روحى   يقيك حماية القدر المتاح
لأنك إن نبا سيفى حسامى   وأنت إذا دجا ليلى صباحى

ومد العزيز يده إليه ببنفسج وورد فقال تميم :

مد العزيز يمينه ببنفسج   وبوردة مقطوعة لم تنهج
حيا فأحيا مهجتى بتحية   كالوصل وافق منية من مرتجى
وأشار مبتسما إلى بوجهه   فحسبته وجه الصباح الأبلج
أنا من نداه ومن فواضل كفه   فى روضة أنف وعز متتج

وكتب إلى العزيز فى علة عرضت له :

يجيرك الله من سقم ومن وصب   وحسبك الله من داء ومن نصب
سيعلم الدهر إن لم يثن عنك يدا   بأنه فاقىء عينيه عن كثب
لأنه بك أضحى فى تصرفه   يعطى ويأخذ فى الأحداث والنوب
يا دهر أسرفت عدوانا منيت به   يا دهر حسبك فارجع عن ذوى الحسب

وله يهنئ العزيز بعيد :

قواضب الرأى أمضى من شبا القضب   والحزم فى الجد ليس الحزم فى اللعب
والعز ليس براض عن علا ملك   ما لم تعنه سيوف الهند بالقضب
وليس يستطعم الراحات طيبة   من لا يخوض إليها شدة التعب
وتركك الشىء مما تستريب به   عجز وداعية تفضى إلى العطب
إذا استربت بشىء فامح ظلمته   فذاك أنفى لليل الشك والريب

---

(١) ٢٤٥ — ٢٤٨ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

أعلى المراتب ما تبنيه مجتهداً ... وأفضل المجد ما تحويه بالنصب
بت ساهراً عند رأس الأمر ترقبه ... ولا تبت نائماً عنه لدى الذنب
وأفضل الحلم حلم عند مقدرة ... وأعذب الجود ما وافى بلا طلب
يهنا العزيز من العلياء منزلة ... لم يحوها ملك فى سالف الحقب
خلافة علوى أصل مورثها ... ومولد نبوى الجنس والحسب
لقد حويت أبا المنصور مرتبة ... من المكارم طالت أرؤس الرتب
أنت المسمى المرجى قبل مولده ... والخامس القائم المذكور فى الكتب
هناك عيد أعدت السعد فيه لنا ... عوناً على نكد الأيام والشغب
برزت فيه بروز الشمس كاسفة ... بضوئها لضياء البدر والشهب
تأملوا منك بالأبصار إذ نظروا ... تقوى إمام ولاذوا منك بابن نبي

وقال يهنئ العزيز بالنيروز[1] :

ليهنك نوروز تباشرت العلا ... بسعدك فيه واضمحلت بك النوب
وعادت بك الأيام فيه أوانسا ... وأصبح فيه مبعد الخير مقترب
وزادت مدود النيل حتى كأنها ... أتتك ارتغابا تقذف الموج أرهب
كأن بنان الماء فاضت على الثرى ... بمسك وبحت فيه عنبرها الترب
فقد غصت الخلجان حتى كأنها ... مدائن تدعو من جيوشك بالحرب
قدام لأهل المصر عمرك إنهم ... غدوا بك فى ظل من العيش منتصب
سعود وإقبال وخصب ونعمة ... ولولاك ما آبوا إلى خير منقلب
عليك صلاة الله ياخير خلقه ... فإنك ميمون النقيبة منتخب

وله يمدح العزيز حين ظفر بأبى تغلب بن حمدان (بعد أبيات) :

يامن تشق بعذابى به ... إنى لأستعذب منك العذاب
لو فتشوا جسمى ما أبصروا ... غير الأسى يسرح بين الثياب
لما تشكيت إليه الهوى ... بألسن الدمع رثى واستجاب
وزارنى تحت رواق الدجى ... والليل فى صبغ جناح الغراب
فبات يعطينى من وصله ... أضعاف ما أعطى من الاجتناب

---

(١) ٢٧٨ و ٢٧٩ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

قل لأبي منصور ياخير من ... أقام أو حث لمجد ركاب
ويا إماما قابلت ملكه ... لوائح الإقبال من كل باب
وهبك القدرة والنصر من ... حباك بالحكم وفصل الخطاب
إن ابن حمدان عدا رشده ... ورام أن يظفر جهلا تخاب
يا ابن معز الدين أبشر فقد ... مدت لك الأملاك طوع الرقاب
لأنك الغرة من هاشم ... والصفو من ساداتها واللباب
وابن الصفا والحجر وابن الهدى ... وابن نبي الهدى وابن الكتاب
كم من يد أو لينتى جمة ... أبت بنعماها لخير المآب[1]

وقال[2] (من الطويل) يمدح العزيز وقت نزوله بفلسطين قبل الظفر بالأتراك :

إذا حان من شمس النهار غروب ... تذكر مشتاق وحن حبيب
وعندهم علم وإن شطت النوى ... بأن لهم قلبي علي رقيب
لهم كبدي دوني وقلبي ومهجتي ... ونفسي التي أدعى بها وأجيب
فآية حزني لوعة وصبابة ... وعنوان شوقي زفرة ونحيب
وما بلد الإنسان إلا الذي له ... به سكن يشتاقه وحبيب
إلى الله أشكو وشك بين وفرقة ... لها بين أحشاء المحب دبيب
وأن ظنون الناس إفك وباطل ... وظن أمير المؤمنين مصيب
يسير به قلب على الخلق قلب ... وصدر بما تعيا الصدور رحيب
وحل ديار المارقين فأصبحوا ... وكلهم خوفا إليه منيب
بدا لهم منه إمام مؤيد ... وكلهم عما أتاه هيوب
فلم يجدوا غير الإنابة حيلة ... ولو قدروا ما أذعنوا ليتوبوا
وما كان فيها جيشه غير نفسه ... وعزم أكول للخطوب شروب
وما حاربتك الترك إلا وبينها ... وبين الهدى والمكرمات حروب
وما جحدوا الحق الذي لك فضله ... ولكن بهم عنه عمى وهروب

---

(١) المرجع ١٤٧ أدب مصر الفاطمية .

(٢) مرجع الأبيات : ١٣٧ : ١ اليتيمة ، وفي ٢٩٣ : ١ من المرجع نفسه : روى البيت الرابع والخامس ثم أعقبهما بالبيت الثاني ، وهي في ٢٧٣ الأدب في عهد الفاطميين بمصر ، و٢٣١ المعز لدين الله .

رعاك الذى استرعاك أمر عباده   فمالك فى هـذا الأنام ضريب

وله يمدح العزيز يوم نوروز :

أرانى إذا هذبت فيك قصيدة   من المدح وأتانى الكلام المهذب
وإن رمت تقريظا لبرك عاقنى   لسانى وراح القول فيه يكذب
لأنك مجبول على الفضل والعلا   وأن العطايا فيك طبع مركب
بك اتصلحت أيامنا بعد جورها   وذل الزمان الجامح المتغلب
فإن طاب نوروز وعيد فإنما   من اجلك أضحى ذا وذا وهو طيب

وقال [1] من قصيدة من الطويل أولها :

سرى البرق فارتاع الفؤاد المعذب   وحار الكرى فى العين وهو مذبذب

ويقول فيها :

وبات ضجيعى منه أهيف ناعم   وأدعج نشوان ، وألعس أشنب
كأن الدجى فى لون صدغيه طالع   وشمس الضحى فى صحن خديه تغرب
وإنى لألقى كل خطب بمهجة   يهون عليها منه ما يتصعب
وأستصحب الأهوال فى كل موطن   ويمزج لى السم الزعاف فأشرب
وأغضى على مثل الأسنة صابرا   ولو شئت لم أصبر وللسيف مضرب
ولست بإقبال وإن سر فارحا   ولا من عجيب يعجب الناس أعجب
فإنى بلوت الدهر ثم علته   وجربت ما لم يلق قبلى مجرب

إلى أن يقول :

أأسأل حظاً من لئيم ومقرف   وأخضع للنكس البخيل وأطلب ؟
وأترك بيض الهند وهى شوافع   إذا جردت فى حاجة لا تخيب
إذا لم أرد ورد المنايا مخاطراً   بنفسى فـلا جنبت ما أتجنب
فما الحر إلا من تدرع عزمة   ولم يك إلا بالقـنا يتنكب
ومالى أخاف الحادثات كأننى   جهول بأن الموت ما منه مهرب

---

(١) راجع القصيدة فى ٤٣٧ : ١ اليتيمة ، وهى فى ٤٠ : ٢ المفصل مع نقص ، وفى ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٤٩ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر تأليف الأستاذ عبد الحميد عبده خليل ـ والكتاب رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية ـ مع نقص وزيادة .

خليلى ماقى أكؤس الراح راحتى ... ولاقى المثانى لذتى حين تضرب
ولكننى للمجد أرتاح والعلا ... وللجود والإعطاء أصبو وأطرب
وللحلم يوم البطش منى حمية ... وللحفظ يوم الغدر منى تغضب
ومن بين جنبيه كنفسى وهمتى ... يروح له فوق الكواكب موكب(١)
ولى من نزار لحة شد نسجها ... معد ويحوينى وإياه منصب
وقربى تراضعنا جميعاً لبانها ... وصنو إذا عد الإخاء ومنسب
فلا يتهمنى(٢) الحاسدون بغيهم ... فعزى من عز العزيز مركب
إمام له من كل نفس مراقب ... وفى كل أرض عقد عز ومقنب
محبته حتم على كل مسلم ... وطاعته فرض من الله موجب
ألذ من الشهد المصفى مذاقه ... وأطيب من نيل الأمانى وأعذب
وأمضى من المقدار عزما وبطشة ... وأوسع للايام صدوا وأرحب
هنيئا لك الأعياد ياعيدها الذى ... به يمنح العز المنيع ويوهب
ليهنك أن الفضل أجمع كله ... إليك أبا المنصور وحدك ينسب
وأنك أنت المصطفى الملك الذى ... بطاعته من ربنا تتقرب
ولولاك كان الملك فى غير أهله ... وكان على أفق الشريعة غيهب
عليك صلاة الله ما طلع الضحى ... وماحن للأوطان من يتغرب(٣)

وقال (من المنسرح)(٤) :

وليلة بتها على طرب ... أولها مشبه لأخراها
أقبل البرق من ترائبها ... وأثم الشمس من محياها
سقتنى الراح وهى خداها ... بأكؤس اللحظ وهى عيناها
إذا أرادت مزاجها جعلت ... بآخر اللحظ فى فمى فاها
فيالها قهوة معتقة ... وليس إلا الخدود مأواها
حبابها الثغر حين يمزج لى ... ونقلها اللثم حين أسقاها

---

(١) ويروى: مركب .
(٢) ٢٢٨ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .
(٣) ١٤٨ فى أدب مصر الفاطمية .
(٤) ٤٣٨ و ٤٣٩ : ١ اليتيمة .

تخالها الشمس فى تلألئها   لا بل تخال الشموس : إياها
لله أيامنا التى سلفت   بدار حزوى ما كان أحلاها
فالقصر من جيرة الملوك إلى   أعلى رباها إلى مصلاها
إذ نجتنى اللهو من أصائلها   والعز من لجرها ومغداها
إن عرضت لذة ملكناها   أو صعبت خطة جوبناها
سل الصبا والأنام عن سمتى   والمجد عن راحتى وجدواها
ألست أعطى العلا حقائقها   منى وأجرى اللذات مجراها
ولست أرضى من الأمور بما   لا أجد المكرمات ترضاها
لا أدعى الفضل قبل يشهد لى   به أدانى الدنا وأقصاها
وإن رمتنا الخطوب عن عرض   قاض نزار بها لجلاها
المطفىء الحرب كلما اضطرمت   وفارس الخيل حين يلقاها
كأنما الدهر من مخافته   يقتل بالخسر أو حياها
لكل ملك من الورى شبه   وما أرى للعزيز أشباها
أقول يا مالك الملوك ولا   أقول فى مدحه شهنشاها
نفس كأن السماء مسكنها   وهمة كالزمان أدناها
فهو لسان التقى ومقلته   وهو يمين العلا ويسراها
صور من جوهر النبوة إذ   كان الورى طينة وأمواها
فمن يطعه يفز بطاعته   ومن عصاه فقد عصى الله

ومن هذه القصيدة :

إن يحجبوا وصلها فما حجبوا   عنى سرى طيفها وذكراها
بعيدة الدار وهى دانية   منى على بعدها ومنآها
فى ناظر القلب شخص مرآها   وفى صميم الفؤاد مثواها
أعارت الراح لون وجنتها   وطيب ألفاظها ومعناها

وقال ليكتب على خمار :

أنا من رقة الهوى والهواء   ومن النور ألفت أجزائى

وقال للعزيز :

رضيت بحكم هاتفة القضاء   وإن أضحت تكدر صفو مائى
إلى كم تهدم الأحداث ركنى   وترميني بجور واعتداء ؟

يعاقبنى الزمان بغير ذنب ... وتخذلنى يدى وذوو اصطفائى
ويسعى بى لمن لو جاء ساع ... به عندى لخضب بالدماء
حياتى بين واش أو حسود ... وساع بى يسر بطول دائى
وما أنا يا أبا المنصور إلا ... كما تدرى على محض الوفاء
أحين ملكتنى والناس طرا ... ورحت خليفة فى ذا القضاء
يحيئك مبغض لى ساعيا بى ... يروم لديك نقصى فى خفاء
فيثلبنى ويرجع سالما لم ... تهجك عليه أسباب الإخاء
وقد بلغتنى أملى فتمم ... تتم لك السلامة فى البقاء
وعيشى زائد طيباً إذا لم ... يكدره لديك بنو الزناء

وقال يمدح العزيز وقد تناول دواء:

لست أدرى من المعلى المهنا ... منكما بالشفاء والنعماء ؟
أأهنيك يا شقيق المعالى ... أم أهنى بك اتخاذ الدواء
يشرتك السعود والنصر والعز ... وجاءتك بالعلا والبقاء
إنما أنت حجة الله لاحت ... فى البرايا ووارث الأنبياء
لك عند الزمان عهد جميل ... ولدى المكرمات حسن بلاء

وقال[1] فى العيد يهنىء أخاه العزيز :

للعيد فى كل عام ... يوم يعيد سناه
وأنت فى كل يوم ... عيد يلوح علاه
ونعمة وسعود ... للمعتفين وجاه
يا من تصلى المعالى ... إليه حين تراه
ومن يبر اليتامى ... من كل خلق سواه
لوكان للفضل يوماً ... منى لكنت مناه
لأن منك استمار ... ر الزمان حسن حلاه
فأنت شمس ضحاه ... وأنت بدر دجاه
كفاك فى كل سلم ... سحاب صوب نداه

---

(١) ١٦٣ فى أدب مصر الفاطمية .

وحسن رأيك فى الحر ب سيفه وقناه
فاسلم لسعدك يا من يديم نحس عداه

وقال يمدح الخليفة العزيز :

ومهمه مشتبه الأرجاء جهم الفيافى موحش البهماء
عارى الربا إلا من النكباء صلد عزاز شاسع الفضاء
أجرد مثل الصخرة الصماء مشتبه الإصباح بالإمساء
يستر فيه رونق الضحاء ما ترفع الريح من الهباء
تعزف فيه الجن بالعشاء عزف قيان الشرب بالغناء

ثم يصف ناقته التى عبر عليها هذه البيداء ويقول :

قطعته مشبع الحوباء بعزمة صارمة صماء
قطع نجوم الليل للظلماء حتى إذا قلت دنا التنائى
أصبح قدامى ما ورائى والشمس قد حلت ذرا الجوزاء
والصبح قد ذاب على الهواء كالثلج أو كالفضة البيضاء

ومنها :

ماذا على مقلتك النجلاء والشفة الوردية اللعساء
وقلبك المقلوب للجفاء لو قلب الداء إلى الدواء
وروضة باكرة الأنداء مونقة البيضاء والكحلاء
ظاهرة الحمراء والصفراء كأنها الموشى من صنعاء
باكرتها فى فتية وضاء بأكؤس مترعة ملاء

ويصف الساقى ثم يقول :

نشربها كريمة الآباء صفراء لا نقهرها بماء
كأنها فى البطش والصفاء عزم العزيز الملك والآباء
القائل الفاعل للعلياء ووارث الحكمة والأنباء
يا ابن الهدى والعترة الغراء فل بك الملك شبا الأعداء
وطال فى عزته القعساء حتى لقد جاز مدى السماء
إمامة مهدية اللواء ودولة دائمة البقاء

محفوفة بالعز والبهاء ... عممت بالعدل بني حواء
وسستهم بمحكم الآراء ... سياسة الوالد للأبناء
كأنك المقدار في الإمضاء ... وكل من عاداك في ضراء
وكل من والاك في سراء ... أنت عمادي وبك اعتلائي
وجنتي في السلم والقضاء ... وأنت في كل دجى ضيائي
لا والدم الجاري بكربلاء ... ومن بها من دائم الثواء
بني علي وبني الزهراء ... ذوي التنادي وذوي العلاء
ماحلت عن مستحسن الصفاء ... فيك ولا عن خالص الوفاء
في ظاهر مني ولا خفاء ... فكيف أنسى منن الآلاء
عاد عليك العيد باستعلاء ... والعز في ملك والنماء
ونيل ماترجو بلا إرجاء ... ما أرق الصب بكا ورقاء

وقال يمدح العزيز عند ظفره بالترك وأصحابه :

أعذلا وما عذلتني النهي ... ولا طرد الحلم عني الصبا
وكيف تلومين صعب المرام ... وتلحين مثلي كهل الحجا
بلوت الزمان وأحداثه ... على السلم منهن لي والوغى
إذا قلت لم أعد فصل الخطاب ... وإن صلت أيقظت عين الردى
أرتني التجارب ما قد بدا ... فقست به كل ما قد خفا(١)
ولم يبلغ العمر بي من سنيه ... ثلاثين حتى بلغت المدى
إذا الجد لم يسم بالمرء لم ... ينل بالنباهة أقصى المنى
تهون على صعاب الأمور ... ويصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلا ... وصنو العزيز إمام الهدى
سمابي معد إلى غاية ... من المجد ما فوقها مرتقى
فرحت بها فاطمي النجار ... حسينيه علوي الجنى
وما احتجت قط إلى ناصر ... ولا رحت يوما ضعيف القوى

ومن هذه القصيدة في رواية أخرى :(٢)

تهون على صغار الأمور ... ويصغر عني جميع الورى

---

(١) خفا : ظهر . والمناسب هنا : خفي : استتر .

(٢) ١٧١ في أدب مصر الفاطمية .

أنا ابن المعز سليل العلى … وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قط إلى ناصر … ولا رحت يوما ضعيف القوى
ولم أستشر فى مسلم ينوب … مشيراً أرى منه مالا أرى
ولست بوان إذا ما أمر … زمان ، ولا فرح إن حلا

وقال يمدح العزيز(١) بهزيمة هفتكين التركى فى دمشق وطلبه العفو من العزيز :

وإنا لقوم نروع الزمان … ولسنا نراع إذا ما سطا
ومنا الإمام العزيز الذى … به عاد سيف الهدى منتضى
سعى للشام وقد أصبحت … بها الحرب نزاعة للشوى
فكشف من ليلها ما سجا … وقوم من زيغها ما التوى
ولما تقابلت الجحفلان … وعاد كجنح الظلام الضحى
ولم يبق فى الصف من قائل … هسلم ، ولا من مجيب : أنا
وقد دلفت فى الصدور الرماح … وصلت لبيض السيوف الطلى
وغنت على البيض بيض الذكور … غناء يعيد الفرادى ثنا
كأن الرماح سكارى تجول … بها الخيل فى النقع قب العلا
فلولا الإمام العزيز الذى … تداركها وهى لا تصطلى
فسكن عارض شؤبوبها … وأمسك من سجله ما انهمى
بدا لهم دارعا فى الفجاج … كصبح بدا طالعا فى الدجى
يكر ويسم فى موقف … عبوس الكماة به قد بدا
ولم يخذل السيف منه يداً … ولم يسكن الروع منه حشا
يقود إلى الحرب من جنده … أسود رجال كأسد الشرى
فلوقدت الحرب قوما إذن … لفدتك صارخة بالعدا
فلم تصدر الرمح حتى انثنى … ولم تغمد السيف حتى انفرى
ولم يحمل الموت حتى حملت … ولولاك ما خاب ذاك اللظى
فما انفرجت عنك إلا وأنت … بها الفارس الملك المتقى
فجاءك منهم ملوك الرجال … وقدتك منهم ذوات اللحى
ولاذوا بعفوك مستأمنين … ولم يجدوا غيره ملتجا

---

(١) ٢٢٧ فى أدب مصر الفاطمية .

ولما رأى فتحها هفتكين   عليه وأخلفه ما رجا
تولى لينجو فخفت به   جيوشك واستوقفته الربا
ولو طلب العفو قبل الهروب   لكنت له غافرا ما مضى
ولكنه اعتاد فيها الإباق   وليس الفتى كل يوم فتى
ورام الخلاص وكيف الخلاص   وقد بلغ الماء أعلى الزبى
ولم يك كفؤك فى حربه   وإن كان فى بأسه المنتهى
وقد هزم الأسدحق انتهاك(١)   فلما رآك غدا لا يرى
فراح وحشو حشاه أسى   وقد ملئت مقلتاه عمى
أريتهم وقعات تزيد   على وقعات الدهور الألى
ببغداد من ذكرها جولة   تذود عن المارقين الكرى
فأنفس ديلمها تقتدى   وتمسى على مثل جمر الغضا
إذا سمعوا بالإمام العزيز   أساءوا الظنون وحلوا الحبا
يخافون من بأسه وقعة   تدور عليهم بقطب الرحا
ينادى « بويه » بنيه بها   ويندبهم وهو رهن البلى

ومنها فى مدح العزيز :

فمن حد سيفك تسطو المنون   ومن بطش كفك يبغى الندى
ولو فاخرتك جميع الملوك   لكانوا الظلام وكنت السنا
منحتك من فطنتى مدحة   تخبر عن باطن قد صفا
فدونكها فيك شيعية   تميمية صعبة المرتقى
سأصفيك شكراً ومدحاً إذا   تنوشد أعمال أهل العلا

ومن مدائحه للعزيز :

يا صفوة الله من بريته   وسر عليائه الذى ظهرا

ويقول

أنت المسمى المرجى قبل مولده   والخامس القائم المذكور فى الكتب

---

(١) أى حتى انتهى إليك .

ويقول :

إنــك من معشر هم جمعوا   شمل المعالى ودوّخوا البشرا
لم يألف الــدين غيرهم نفراً   له ولم يرض غــيرهم زمــرا

وفى هذه الأبيات تظهر عقيدة الشيعية واضحة .

وقال فى العزيز (١) :

يا حجة الرحمن عنــــد عباده   وشهابه فى كل أمــر مشــكل
من لم يكن فى صــومه متقرباً   بك يا إمام فصـــومه لم يقبــل

وقال يمدح العزيز (١) :

فيابن الوصى ويابن البتول   ويابن نبى الهــدى المصــطفى
ويابن المشــاعر والمــروتين   ويابن الحطيم ويابن الصــفا

وأرسل إلى الرسى الشاعر (٢) :

أبا عبد الإله ووجــه ودى   مـــزال عن أسرته القنــاع
عــلام وأنت فيما صــح عندى   صديق ما لخلته انصداع ؟
تأخرت الرسائل منك عنى   وأبطت عن تعاهدى الرقاع
أسهو يا ابن إبراهــيم عنى   فأسهـــو أم أعاتب أم أراع ؟
ومثلك لا يبيــع أخاً ببخس   على حال ومثـــلى لا يباع
ولــدنا نلتق لقيـــا اجتماع   فيغنينا عن الكتب اجتماع
ولــكن تعرب الأقــلام عنا   إذا اقترنت بشخصينا البقاع
وأكثر حظنا فى البعد أنا   أمنا أن يروعنا الوداع

وقد أجابه الرسى بقصيدة (٣) ، وقال للحسين بن إبراهيم الرسى (٤)

وليس الإخاء الذى بيننا   يبدع إذا ما استوى وانعقد

---

(١) ص ١٤٧ فى أدب مصر الفاطمية .

(٢) المرجع : ٢٥١ فى أدب مصر الفاطمية .

(٣) راجع بعضها فى ص ٢٥٢ فى أدب مصر الفاطمية .

(٤) ٢٥١ فى أدب مصر الفاطمية .

لأنا إلى والد واحـد ... تفرعنا حين ندعى وجد

وقال يرثى أخاه عبد الله(١) :

كل حى إلى الفناء يسير ... والليالى تعـلة وغرور
وإلى الله يرجع الملك والخلق ... ويقضى الأمير والمأمور
كيف لم تسقط السماء على الأر ... ض ولم تهو شمسها والبدور
يوم مات الأمير، بل يوم مات الصبـ ... ـر فيه، بل يوم مات السرور
يوم بل الثرى عليه من الدمـ ... ـع وقدت على القلوب الصدور
كيف لا تأثر المصائب فى النفـ ... ـس على من هو النفيس الأثير
وكذا الرزء بالعظيم عظيم ... وكذا الرزء بالحقير حقير
وسمعت الزفير وهو صراخ ... ورأيت الدموع وهى بحور
فى أوان هو الشتاء فأمسى ... بلهيب الأنفاس وهو هجير
شيعت نعشه ملائكة اللـ ... ـه وروته رحمة وطهور

ويقول(٢):

زمن منقض وعمر قصـير ... وحياة الإنسان فيها غرور
فاتق الله إن أردت نجاة ... إن تقوى الإله فوز كبير
أى خلق يكون أنقص ممن ... ليس يدرى لأى حال يصير

ويقول يودع رجلا مسافراً إلى بغداد(٣) :

أيها المـزجى مطيته ... إذ حداه الشوق والذكر
نحو بغـداد يؤرقه ... دلج الرحال والبكر
عج على ماء الفرات وقف ... كوقوف الصب يعتذر
من مشوق نحـوه قلق ... ماله عن ذكره صدر
فهناك الدهـر مقتبل ... والصبا ريان يعتصر
يا ربا القاطول لابعدت ... عنك فى الأيام والقدر

---

(١) ٢٨٢و٢٨٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .
(٢) ٢٨٤ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .
(٣) ٢٨١ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

كل ما فى الناس من أمل   لك أطويه وأدخــر
وقريب أن يزورك فى   ظفـر ما مثله ظفـر
ثم يصفو فى ذراك لنا   طيب عيش ما به كدر

وكتب من الرملة الى بعض الأهل بالقاهرة عند سيره إلى الطواحين (موضع قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام) :

الجسم ينقص مذ فارقتكم سقما   والشوق يكثر فى قلبى ويزداد
لا تحسبوا أننى للهو بعدكم   أحن أو للذيذ العيش أقتاد
قد عزنى فيكم صبرى وفارقنى   تجلدى فالأسى إلى بعدكم زاد
كأننى والله قد شردت فتأت   كرها وأمسى لها فى الحى أولاد

وأنفذ إليــه ابن الرسى رجزا أوله : برق بدا تحت الغسق ؛ فكتب تميم يجيبه :

وسحـــة قبل الطلب   لكل من دب وهب
باكية بلا وصب   كأنما الجـو انتقب
منها بمسك واختضب   حتى إذا الرعـــد خطب
وناح شجوا وانتحب   وجاء فيها وذهب
ومزق البرق الحجب   كأنه لمـــا اضطرب
سلاسـل من ذهب   أو مارج من اللهب
حتى إذا القطر انسكب   واحتفل السيل وعب
فقم إلى الراح فشب   بالماء منها ما صلب
وسقنى بنت العنب   أقض من اللهو أرب
إنا لأم ولأب   يجمعنا خير نسب
إلى النبى المنتخب   فارضع بنا ثدى الأدب
فإنه أعـــلى الرتب   وخير موهوب وهب

وكتب إلى الحسين بن إبراهيم الرسى يستعير منه كتاب القيان والمغنين :

عند أهل العـلوم والألباب   تدنى كتب جوهر الآداب

فتفضل يامن حوى قصبات السـ ـبق فى كل جيئة وذهاب
بكتاب القيان إنى إليه ذو غليل ولوعة واكتئاب
مستعيرا له لأنسخ ما فيـ ـه فيغدو مستودعا فى كتابى
ثم يأتيك بعد ذاك سريعا ولك الشكر وهو خير ثواب

واستهدى منه أخوه عقيل نيلوفرا فبعث به إليه وكتب معه :

بعثت بصفرة لون المحب وحمرة توريد خد الحبيب
ويحكى ودادك فى حسنه وعض وفائك طيبا بطيب

وكتب إلى بعض أصحابه :

شهد الظرف والأدب لك بالمجـد والحسب
ياشقيق الندى الذى عنـده المال ينتهب
والذى سلمت له فضلها العجم والعرب
إنما الجود خيره ما أتى يسبق الطلب

وقال من الطويل (١) :

إذا هب سلطان المريس (٢) نالنا سعيراً وحل القر كل نقاب
ومد على الأفق الغمام ثيابه فقم فالقه فى عدة وحراب
بكن وكانون وكأس مدامة وكيس وك؟ وافر وكباب (٣)
جمعت لك الكافات ستا ولم تكن بمجموعة قبلى لرب كتاب

وقال : (٤)

ولى صاحب لا يعرض العقل جهله ولا تتأذى النفس منه ولا القلب

---

(١) المرجع : ١٤١ : ١ اليتيمة — ولابن سكرة :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجا تنا حبسا
كن وكيس وكانون وكأس طلا بعد الكباب وك؟ ناعم وكسا

(١٤٥ - ١ الإيضاح فى علوم البلاغة ، شرح محمد خفاجى)

(٢) ريح جنوبية مصرية غير محبوبة بل هى من الزوابع والأعاصير .

(٣) الكن : البيت ، المدامة : الخمر . الكيس صرة الدراهم .

(٤) المرجع : ٢٦٨ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر ، ٢٤٨ فى أدب مصر الفاطمية

إذا قلت «لا» فى قصة لم يقل «بلى»   وإن قلت أصبو قال لا بد أن أصبو
وإن قلت هاك الكأس قال مبادرا   ألا هاتها طال التنادم والشرب
سريع إذا لبى ، صبور إذا دعى   يهون عليه فى رضا خله الصعب
غدوت به يوما إلى بيت حانق   والغيم دمع لا يكف له سكب
وقد نفخا ريح الصبا بمنافس   عبهرية الأنفاس طاب لها الترب
فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف   إلى زولة شمطاء منزلها رحب[1]
مدثرة أما أبوها فقيصر   وحسبك ملك جده قيصر ، حسب
قصيرية ديرية هرقلية[2]   تقاصر منها الخطو ، واحدودب الصلب
فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا   وفى يدها نجم محيط به قعب
وقالت لنا أهلا وسهلا ومرحبا   وقل لكم منى البشاشة والرحب
من انتم فقلنا عصبة من بنى الصبا   دعاهم إليك القصف والعزف واللعب
فقالت : على اسم الله حطوا رحالكم   فعندى الفتاة الرود[3] والأمرد الرطب
وراح نفى أقذارها طول عمرها   فجاءت كما يذرى مدامعه الصب
أرق إذا روقتها فى زجاجة   وألطف من نفس تداولها الحب
كأن سراجا فى ترائب دنها   إذا أقبلت من كيلة الدن تنصب
فقلت لها هاتى بها[4] وتعجلى   ولا يك فيما قلت خلف ولا كذب
فجاءت تجر الزق خلق[5] كأنه   على الأرض زنجى بلا هامة يحبو
فلما مزجناها بدا فوق رأسها   حباب كما ينساب من سلكه الحب
وطافت بها هيفاء مخطفة[6] الحشا   معاطفها سلم وألحاظها حرب
تمايل ردفاها وأدرج خصرها   ليانا ولطفا مثل ما تدرج الكتب

---

(١) الزولة : المرأة الخفيفة الظريفة .

(٢) منسوبة إلى هرقلة مدينة بالروم .

(٣) الشابة الحسنة .

(٤) ويروى كيل لنا ، ١٤٩ فى أدب مصر الفاطمية .

(٥) فى المصدر نفسه : تحبوى

(٦) رواية المصدر نفسه : مهضومة

شكا كشحها الزنار مما يجيعه ... وضاق بها الخلخال وامتلأ القلب[١]
أغار على أعطافها كلما انثنت ... مع الكأس أو فدى ملاحتها الشرب
أحلت لى الصهباء تقبيل وجهها ... وما كان قبل السكر فى لثمه عتب
كأنى وقد أضجعتها وعلوتها ... من الشكل رفع تحت ضمته نصب
وما فض لامى صادها بجناية ... سوى قولها إن المسيح لها رب
فلما أغاظتنى بإظهار كفرها ... ذببت عن الإسلام إذ أمكن الذب
وضرجت فخذيها دما بصمصم ... تقر له البيض المهندة القضب
وقلت لها أرماحنا صلوية ... تقد تراس الروس إن طعنت عرب
فما برحت حتى أنابت وأسلمت ... فهل لى فى فتكى بها بعد ذا ذنب
أبا حسن هات المدامة واسقنى ... فقد شاب رأس الشرق واحلولك الغرب
كأن الثريا فى ملاءة فجرها ... مصابيح إلا أنها قد بدت تخبو
سلام على دير القصير[٢] ومرحبا ... به فله منى التخصص والقرب
فكم لذة فيه قضيت وغلة ... شفيت ولا واش علينا ولا شغب[٣]
منازل يستن[٤] الصبا فى عراصها ... ويعذب فيها ماء ديمتها العذب

وشكره أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسى على هدية منه :

وصلت هديتك التى أرسلتها ... يا سيد الكبراء والأمراء
فحكت لنا طيبا خلائقك التى ... أورثتها من رابع الخلفاء
فاسلم وعش فيما تحب فإنه ... وقف عليك الدهر در ثنائى

فأجابه تميم :

إنى بعثت بها إليك وإنها ... لذوات إطراق وذات حياء
كالشىء يستهديه منى ربه ... أنت الأحق بها وبالإهداء
منك استعار الحسن كل محسن ... فلك انتساب محاسن الأشياء
وظرفت حتى فقت كل مظرف ... ولطفت حتى فقت لطف الماء
ديباج لفظك فوق كل منور ... لكن خيرا منه حسن صفاء

---

(١) القلب : السوار .
(٢) موضع قرب حلوان على النيل على رأس جبل .
(٣) الشغب ويحرك : تهييج الشر . (٤) يستن أى ينشط ويمرح .

وكتب إلى إبراهيم الرسى الشاعر(١):

يا شاعرا جل عن أن ... يقاس بالشعراء
ويا ظريفا بليغا ... أربى على البلغاء
قد جاء شعرك يشفى ... قاريه من كل داء
كالقرب بعد بعاد ... والوصل بعد جفاء
وأنت للنفس أشهى ... من الغنى والبقاء

وقال من الطويل(٢):

شربنا على نوح المطوقة الورق ... فأردية الروض المفوفة البلق
معتقة أفنى الزمان وجودها ... لجاءت كفوت اللحظ أودقة العشق
كأن السحاب الغر أصبحن أكؤسا ... لنا ، وكأن الراح فيها سنا البرق
فبتنا نحت الكأس فينا ، وإننا ... لنشربها بالحث صرفا ونستنشق
إلى أن رأيت النجم وهو مغرب ... وأقبلن(٣) رايات الصباح من الشرق
كأن سواد الليل والفجر طالع ... بقية لطخ الكحل فى الأعين الزرق

قال الثعالبى : أحسن فى هذا البيت ما شاء .

وقال تميم فى الطرد :

قد أغتدى والليل فى دجاه ... والصبح لم ينهض به سناه
على حصان شنج(٣) نساه(٤) ... ذى غرة أوطا أذناه
جاز بها سيلها صداه ... حتى لقد كادت تغطى فاه
تسبق أقصى لحظة خطاه ... لا يطأ الترب ولا يلقاه
كأنه يطير فى مجراه ... إذا دعا ليث الفلا لباه
أسرع للشىء إذا ابتغاه ... من مبلغ السهم لمنتهاه
تحسد منه يده رجلاه ... حتى يكاد وهو فى معداه
تسبق أولاه به أولاه ... أشوس فى مشيته تياه

---

(١) ٢٥١ فى أدب مصر الفاطمية .

(٢) المرجع ١/٢٩٣ اليتيمة ، ٣/١٨٤ زهر الآداب .

(٣) رواية زهر الآداب : وأقبل . (٤) منقبض . (٤) عرق .

ثم يصف البازى فيقول :

وأشهب مخلبـــه شـبـاه   كأن فصى ذهب عيناه
فى هامة قد برزت وراه   لو طلب الـكوكب لانتهاه

ثم يصف الطيور التى صادها البازى إلى أن يقول :

وكل خــير عندنا نراه   فبعض ما عاد به مسعاه
أعطى البزاة الله من معناه   ما لم يحز صـقر ولا رآه
أبا ابن من زينت به عـلاه   وابن الذى عم الورى نداه
وشيد الملك الذى حـواه   ذاك المعز الماجد الأواه

صلى عليه الله واصطفاه

وقال فى سمك الرأى من الوافر(١) :

كأن الرأى حين أتى طريا   بأذناب كحمر العقيق
بلسقيـات بلور لطـاف   بأسفاهـا بقايا من رحيق

وقال من الخفيف(٢) :

اسقيانى فلست أصغى لعذل   ليس إلا تعلة النفس شغلى
أأطيع العذول فى ضد ما أهـــ   ـوى كأنى اتهمت رأيى وعقلى
عللانى بها فقد أقبل الليـــل   كلون الصدود من بعد وصـل
وانجلى الغيم بعد ما أضحك الرو   ض بكاء السحاب فيه بوبل
عن هـلال كصولجان نضار   فى سماء كأنها جام ذبل

وقال (من الطويل)(٣) :

---

(١) المرجع : ٤٤٤ : ١ اليتيمة ، ٢٦٤ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .
(٢) المرجع : ٤٤١ : ١ اليتيمة .
(٣) المراجع : ٤٤٠ : ١ اليتيمة ، ١٧٢ : ١ وفيات الأعيان ، ٤٢ : ٢ المفصل ، ٢٧٥ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

وما أم خشف ظل يوما وليلة ... ببلقعة بيداء ظمآن صاديا(١)
تهيم فلا تدرى إلى أين تهتدى(٢) ... مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضر بها حر الهجير فلم تجد ... لغلتها من بارد الماء شافيا
إذا بعدت عن خشفها انعطفت له ... فألفته ملهوفا إلى الجوع ظاميا(٣)
بأوجع منى يوم شدوا رحالهم(٤) ... ونادى منادى الحى : أن لا تلاقيا

وقال (من الطويل)(٥) :

وصفراء لم تطبخ بنار شربتها ... على وجه معشوق السجايا مقرطق
كأن حباب الكأس من نظم ثغره ... وإشراقها من خده المتألق

وقال (من السريع)(٦) :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى ... والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجا ... أضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لماء النيل فى مده ... كأنه صندل أو مسكا

وقال(٧) :

انظر إلى النيل قد عبا عساكره ... من المياه فجاءت وهى تستبق
كأن خلجانه والماء يأخذها ... مدائن فتحت فاختارها الغرق
كأن تياره ملك رأى ظفرا ... فكر إثر الأعادى عنق ، نزق

---

(١) الخشف : ولد الظبي ، وهى مثلثة . البلقعة : الأرض المقفرة .

(٢) رواية ابن خلكان : تنتهى :

(٣) رواية ابن خلكان البيت هى :

فلما دنت خشفها انعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح طاويا

(٤) رواية ابن خلكان : يوم شدت حمولهم .

(٥) المرجع : ٤٣٩ : ١ اليتيمة .

(٦) المراجع : ٤٣٨ / ١ اليتيمة ، ٤١ / ٢ المفصل ، ٢٩١ فى أدب مصر الفاطمية :

(٧) ٢٩١ فى أدب الفاطمية .

كأن ماء سواقيه لناظرهـــا ... شهب الخيول إذا ماحثها العنق
فاشرب بمهق فان اللهو منبسط ... وأطرب ولذ فهذا منظر أنق

وقال تميم :

استيائى فلست أصغى لعذل ... ليس إلا تعلة النفس شغلى
أأطيع العذول فى ترك ما أهـ ... ـوى كأنى اتهمت رأيى وعقلى
علاقى بها فقد أقبل الليـ ... ـل كلون الصدود من بعدوصل
وانجلى الغيم بعد ما أضحك الرو ... ض بكاء السحاب جاد بوبل
عن هـلال كصولجان نضار ... فى سماء كأنها جام ذبل

وقال(١) :

ألا يا نسيم الريح عرج مسلماً ... على ذلك الشخص البعيد المودع
وهب على من شف جسمى بعاده ... سموما بما استمليت من نار أضلعى
فإن قال ما هذا الحرور ؟ فقل له ... تنفس مشتاق بحبك موجع

وقال(٢) :

انظر إلى النيل فى مـــده ... بمـوج يزيد ولا ينقص
كأن معـاطف أمواجـه ... معـــاطف جارية ترقص

وقال (من البسيط)(٣)

ناولتها شــــبه خدها مشعشعة ... صرفا كأن سناها ضوء مقياس
فقبلتها وقالت وهى ضاحكة ... وكيف تسق خدود الناس للناس
أليس خــــداى ذابا إذ لمستهما ... فاستنبطا قهوة حمراء فى الكاس
قلت : اشربى إنها دمعى وحمرتها ... دمى وطابخها فى الكاس أنفاسى
قالت : إذا كنت من حى بكيت دما ... فسقنيها على العينين والراس
ياليلة بات فيـها البدر معتنق ... وبات الشمس فيها بعض جلاسى
وبت مستغنياً بالثغر عن قدحى ... وبالخدود عن التفاح والآس

---

(١) المرجع ١٩٠ / ٣ زهر

(٢) المرجع ١٩١ / ٢ حسن المحاضرة للسيوطى

(٣) المرجع : ٤٣٩ و ٤٤٠ : ١ اليتيمة ، ٢٨٧ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر

وقال يصف ناعورة(١) :

ناعورة أنت أنين الهوى ... لما شكت حر وساويسها
أنينها صرة تدويرها ... ودمعها ماء قواديسها
كأنما الكيزان فى بئرها ... هام ملوك فى نواويسها
تقذف بالماء إلى روضة ... كأنها ريش طواويسها
كأنما السرو بها نسوة ... قامت إلى قرع نواقيسها
وبحسب الخشخاش من حولها ... أيد أشارت بدبابيسها
وانفتح النرجس عن أعين ... مصفرة الأحداق من بوسها
وأقحوان كثغور المها ... مفترة من بعد تعبيسها
وسوسن كالقرص لما بدت ... آثاره فى لين ملبوسها
نبهه القطر بأنداثه ... إذ نثرته السحب من كيسها
تلعب بالأبصار أنوارها ... لعب الأمانى بمفاليسها

وقال من الطويل (٢) :

أيادير مرحنا سقتك رعود ... من الغيم تهمى مزنها وتجود
فكم واصلتنا من رباك أوانس ... يطفن علينا بالمدامة غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ... وناب عن الورد الجنى خدود
وماست على الكثبان قضبان فتنة ... فأثقلها من حملهن نهود
ليالى أغدو بين ثوبى صبابة ... ولهو ، وأيام الزمان هجود
وإذ لمتى لم يوقظ الشيب ليلها ... وإذ أثرى فى الغانيات حميد

وقال (٣)

يوم لنا بالنيل مختصر ... ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجرى كالخيول بنا ... صعدا وجيش الماء منحدر

---

(١) المرجع : ٢٨٩ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر

(٢) مراجع القصيدة :

٤٣٦ : ١ يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ١٨٥ : ٣ زهر الآداب

(٣) ٢٩٠ فى أدب مصر الفاطمية

وكأنما أمواجــــه عكن   وكأنمـــا داراته سرر

وقال :

وبيض السوالف حور العيون   خدال مهاوى الخلاخيل غيد
رياض من الحسن طافت على   رياض من النبت حمر البنود
سباين شقائقها بالخدود   وأخجلن أغصانها بالقدود
وأعددن للأقحوان الغضيض   بياض ثغور كنظم العقود
وأبكين أعـــين عشاقهن   دموعا كخلجانها فى المدود

وأنشد فى عين شمس (١)

أما كفى الحب شوق موجع وأسى   مبرح يقطع الأحشاء والكبدا
حتى رمى البين بالتفريق ألفتنا   وحل من وصلنا ما كان قد عقده
فآه من لوعة مشبوبة وجوى   فى الصدر لم يبق لى صبرا ولا جسدا
قالت وعبرتها مخلوطة بدم   تجرى وأنفاسها مرفوعة صعدا
لا تطلب النطق منى بالسلام فما   أبقى فراقك لى روحا ولا جسدا
فظلت ملثما من صحن وجنتها   وردا ومرتشفاً من ثغرها بردا
وطاويا فى الحشا منها رسيس هوى   لا أحسب الدهر يبلى عهده أبدا

وقال فى وصف روضة(٢) :

انظر لتفويف الرياض وحسنها   قد نمقته يد السحاب الممطر
بسط تخالف صبغها ونسيجها   ما بين أصفر كالعقيق وأخضر
يجمعن حسن المنظر الزاهى الذى   راق العيون إلى كريم المخبر
فكأن نرجسها عيون أبرزت   أجفانها لكنها لم تنظر
وشقائق كست الرياض نسيجها   حللا كتضريج الخدود الأحمر
متبرجات ناعمات أكملت   خفر الذليل ونخوة المتكبر
وغلائل زرق نشرن كأنها   آثار تجميش الصدور النضر

---

(١) ١٧٢ فى أدب مصر الفاطمية
(٢) المرجع ٢٩٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر

مابين موز قد بدا كراود ... من عسجد مملوءة من سكر
فاشرب على تلك الرياض ونشرها ... راحا تريح فؤاد كل مفكر

وقال فى وصف شمعة :

إذا ما توجت فى دار قوم ... رأيت الليل منها فى النهار
فتاة عمرها عمر قصير ... ولكن نفعها نفع الكبار

ويقول :

أمطن دمقس الملاعن روادف ... رواء ولكن الخصور صوادى

وقال فى شمعة(١):

ومشرقة وجنح الليــل قار ... لها من كل ناحية منار
تضر بنفعها فلها دمــوع ... على الخدين مسبلة غزار
أعار الغصن قامتها استواء ... ووكلها على الليل النهار
إذا ما رأسها قطف استفاقت ... وجانبها التخوف والحذار
أقول ونارها تسطو عليها ... كما بالليل يسطو الانفجار
بنفسى كل مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتصار

وقال عن لسان قصر من قصور الخلافة(٢) :

إن يحسد الصبح إشراق فمعذور ... فى تشرق الشمس والأفلاك والنور
أطاعنى الحسن واعطى الجمال على ... سمكى وأسعد بنيانى المقادير
فباهى بابن هادى الخلق مشرقة ... ومنزلى بالعلا والمجد معمور
كأنى برج ســعد ما يفارقه ... قصف وعرف وتقديس وتطهير
يضاحك النيـل أركانى مغازلة ... إذا بدت للضـيا فيه قوارير
ولا تزال تــلاقينى بنفحتها ... من كل وجه رياض أو أزاهير
ولست بالقفر والبيداء محدقة ... ولا على غبار الترب منثور

---

(٢) المرجع ٢٦٤ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر.

(١) المرجع: ٢٦٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر.

من حلى فهو صافى العيش مبتهج ومن رآنى قرير العين مسرور

وقال (١)

وضعيفة الألحاظ ساحرة زادت لواحظها على السحر
صفراء يحسبها محدثها ذهبا يكاد بضاضة يجرى
فكأنما خفر الحياء بها سقم غدت منه على سكر
وكأن رقة لفظها جمعت طيب الوصال ولذة البشر
لحديثها كالبرد أو كرضا المحبوب بعد السخط والهجر
إن قل أدته بلا لبس أو طال نصته بلا هذر
ترتج من ثقل روادفها حتى تنوء بدقة الخصر
فكأنما قمر على غصن قد لاح فى ليل من الشعر
فى صفرة كالتبر شاهدة أن الجمال المحض للصفر
وإذا مشت من لينها اضطربت مثل اضطراب الموج فى البحر
وكأنها تخطو إذا نهضت فوق المناصل أو على الجمر
لا تعذلوا فيها المحب فقد قامت له بجوامع العذر

وقال (٢) :

وتمت الأرض على الأمطار بما اكتست من بدع النوار
من أحمر قان على اخضرار وأبيض قد لاح فى اصفرار
كدرهم ركب فى دينـــار وقد بدا السوسن فى البهار
كلازورد ذر فى جلنار كأن غدران الحباب الجارى
لاعبة بالبرد فى الأنهار فانظر لحسن الروض فى آذار
وما أتى فيه من الأنوار وداو بالخمر أذى الخمار (٣)

---

(١) المرجع : ٢٧١ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر.
(٢) المرجع : ٢٦٥ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر.
(٣) الخمار بالضم : صداع الخمر وأذاها.

قال تميم(١)

رب صفراء عللتنى بصفرا ... وجنح الظلام مرخى الإزار
بين ماء وروضة وكروم ... ورواب منيفة وصحارى
تتثنى به الغصون عليها ... وتجيب القيان فيها القمارى(٢)
وكأن الدجى غدائر شعر ... وكأن النجوم فيها مدارى
وانجلى الغيم عن هلال تبدى ... فى يد الأفق مثل نصف السوار(٣)

وقال تميم(٤)

وكأس يعيد العسر يسراً ويجتنى ... ثمار الغنى للشرب من شجر الفقر
يولد فيها المزج دراً منضدا ... كما فتتت فوق الثرى نقطة القطر
صغار وكبرى فى الكؤوس كأنها ... على الراح واوات تجمعن فى سطر
إذا حثها الساقى الأغر حسبتها ... نجوم الثريا لحن فى راحة البدر
صبحت بها صحبى وقد رندج الدجى ... بفضة لألاء الصباح من الفجر
وقد أزهرت بيض النجوم كأنها ... على الأفق الأعلى قلائد من در

---

(١) وهو معارضة لقول ابن المعتز :

اسقنى الراح فى شباب النهار ... وانف همى بالخندريس العقار
قد تولت زهر النجوم وقد بشـ ... ـر بالصبح طائر الأسحار
ما ترى نعمة السماء على الأر ... ض وشكر الرياض للأمطار
وغناء الطيور كل صباح ... وانفتاق الأشجار بالأنوار
فكأن الربيـــع يجلو عروسا ... وكأنا من قطره فى نثار

(٢) جمع قمرية وهى ضرب من الحمام

(٣) من قول ابن المعتز :

وكأن الهلال نصف سوار ... والثريا كف يشير إليه

(٤) المرجع : ٢٤٢ و ٢٤٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر ١٨٥ : ٣ زهر ،

وقال :

لا شيء أحسن منظراً أبداً ... من غادة فى كفها قدح
تسعى بمحمر على عنم ... أطرافه العناب والبلح

وقال فى النيلوفر :

رأى الشمس فانفتحت عينه ... ولولا سنا الشمس لم تفتح
إذا ركد الليل لم يستبن ... وإن طلع الصبح لم يبرح

وقال تميم :

تقوى فقد شاب رأس الدجى ... بنور سنا فجره المصبح(١)
فتيل الحوادث من عاقها ... فلا تخش حادثة تنجح
مع العسر يسر يجلى الدجا ... ألم تتذكر : (ألم نشرح)

وقال وينسب الأولان لابن المعتز(٢) :

كأن البركة الغناء لما ... غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الضحى مرآة قين ... قد انصقلت ومقبضها الخليج
يرى قمر الدجى قمراً حذاء ... طلوعا ماله فيها بروج
فلا تعص الصبا فى لبس لهو ... فإن الدهر ذو شعب لجوج

وقال يصف فوارة(٣) :

خليلى قد ولى الظلام وهملجا(٤) ... وقد كاد وجه الصبح أن يتبلجا

---

(١) يوازن صاحب « الأدب فى عهد الفاطميين بمصر » بينه وبين قول ابن المعتز :

والصبح من تحت الظلام كأنه ... شيب بدا فى لمـة سوداء

ويرى أن تميما أخذ المعنى من ابن المعتز ، إلا أن ابن المعتز عرض وصف الفجر فى مبدأ ظهوره ، وتميم عرض له حين عظمت مخالفته للظلام (٢٣٤ المرجع)

(٢) المرجع : ٢٨٧ فى أدب مصر الفاطمية .

(٣) ٢٦١ الأدب فى عهد الفا طميين بمصر .

(٤) هملج : مشى مشية سهلة فى سرعة .

فقوما إلى ساقيكما واهتفا به ... ولا تفتحا باباً من الهم مرتجا
ودونكما ها قهوة بابليــــة ... إذا ما قصيح عب فيها تلجلجا
على نرجس غض يضاحك سوسنا ... وآس ربيعي يناجى بنفسجا
وقاذفة بالماء فى وسط بركة ... قد التحفت وحفا من الشعر سجسجا(١)
إذا قذفت بالماء سلته متصلا ... وعاد عليها ذلك التصل هودجا
كأن عيون العاشقين تعيرها ... من الدمع سجلا(٢) صافيا لامدرجا
تخال بروز الماء من جفن عينها ... قضيب لجين سل منه مدملجا
تحاول إدراك النجوم بقذفة ... كأن لها قلبا على الأفق عرجا
لدى روضة جاد السحاب ربوعها ... وزخرفها دون الرياض ودبجا
كأن غصون الأقحوان زمرد ... تعمم بالكافور ثم تتوجا
ونور لنسرين كأن نسيمه ... من المسك فى أفق السماء تأرجا
فياساقي استعجلا لى وصرفا ... عقاركما إن شئتما أو امزجا
ولا تحملا هم الزمان فإنه ... إذا اشتد ضيق الحادثات تفرجا
سأطلب حقى إن قضى الله لى به ... وأفتح منه كل ما كان مرتجا
فلست وإن عاقرت كأسى بسالك ... من الأمر فيها كل ما كان أعوجا
ولا مشتر بالجد مستحسن الصبا ... ولا مشتر طرق المهالك بالنجا
ولكننى موف لنفسى حقوقها ... وراتضها فيما استوى وتعوجا

وقال(٣) :

نقبت وجهها بخز وجاءت ... بمـــدام منقب بزجاج
فتأملت فى النقابين منهـا ... قرآ طالعـاً وضوء سراج
فاسقيـانى بلا مزاج فإنى ... فى المعـالى صرف بغير مزاج
وانظر إلى الأفق كيف بدله الإصـ ... ـباح من بعد آبنوس بعاج

---

(١) وحف الشعر : كثف واسود ، وفى روايةورد الشطر الأخير هكذا :
« قد التحفت ظلا من الأيك سجسجا » — ويعنى المـاء المتدفق من البركة .

(٢) سجل الماء فانسجل : صبه فانصب ، وعين سجول : غزيرة .

(٣) ٢٩٨ الادب فى عهد الفاطميين بمصر ، ٣/١٨٧ زهر الآداب .

وقال :

ألا سقيانى قهوة ذهبية   فقد ألبس الآفاق جنح الدجى دعج
كأن الثريا والظلام يحفها   فصوص لجين قد أحاط بها سبج(١)
كأن نجوم الليل تحت سواده   إذا جن زنجى تبسم عن فلج
كأن رقيق الغيم والبدر تحته   زجاج على كف من الصبح منتسج
فقم وأدر أقـــداح خمر كأنها   إذا برزت ترّكى أوائلها سرج
كأن عليها من صفاء أديمها   خلال العزيز الفرد أو نشرها الأرج

وقال تميم من هذه القصيدة :

كأن عمود الصبح فى غرر الدجى   صحيفة سيف قد تصدى من المهج(٢)

وقال(٣) :

دع مقال العـاذلات   واله عن سعى السعاة
واشرب الراح وشبها   بالثنايا العطـــرات
وانتقل إن شئت تفا   ح رياض الوجنات
أنا مابين ندامـا   ى وراحى وسقاتى
ثمل لا أعرف الصحو   ولا وقت الصلاة
فاذا قومنى السكر   على تلك الهنات
لم ينهنهنى سوى حسـ   ن مثانى الغانيات
وغناهن سحـــيرا   « أسقنيها بحياتى »

---

(١) أى سواد (خرز أسود) .

(٢) يرى صاحب « الأدب فى عهد الفاطميين بمصر » أن تميما أخذ المشبه به بعينه وخواصه وهو السيف الصدى ، ولكنه تصرف فى التشبيه بعض التصرف فجعل لكل جزء من أجزاء وجه الشبه فى المشبه لفظاً دالا عليه ، فقال « عمود الصبح » ، وهذا فيه مايقابل الاستقامة التى فى صحيفة السيف ، ولكن فى كلمة « رق قميصه » رقة ولطافة أتى بها ابن المعتز (٢٣٤ المرجع) .

(٣) ٢٤٩ فى أدب مصر الفاطمية .

وقال يصف عوداً :

قشبهت ميل معاصيره   إذا ملن بعد استواء رطيب
بوجه حبيب بدا ضاحكا   فمن له لحظ عين الرقيب
فلما استوى نطق أوتاره   حكى نقرها حسن لفظ الحبيب
تجس الأنامل وسنانة   كما جس عرق العليل الطبيب

وقال(١) :

إذا حــذرت زماناً لا تسر به   وكم أتى سهل دهر بعــد أصعبه
فاقبل من الدهر ما أعطاك مختلطاً   لعل مرك يحـــلو فى تقلبه
خذها اليك ودع لومى مشعشعة   من كف ظبى أثيل الخد منعبه
فى كل معقد حسن منه معترض   عليه يحميه من أن يستبد به
فكحل عينيه ممنوع بخنجره   وورد خــديه محمى بعقربه
لا تترك القدح الملآن فى يده   إنى أخاف عليـــه من تلهيه
فصنه عن سقينا إنى أغار به   واسقه واسقنى من فضل مشربه

قال تميم :

وانظر إلى الليل كالزنجى منهزماً   والصبح فى إثره يعدو بأشهبه(٢)

---

(١) المرجع ١٨٧/٣ زهر .

(٢) يعقد صاحب « الادب فى عهد الفاطميين بمصر » موازنة بينه وبين قول ابن المعتز :

حتى إذا هزم الإصباح ليلهم   بعسكر من جنود النور مبثوث

ويقول . إن الشاعرين اتفقا فى تصوير المعنى بهيئة معركة ، وهزم النهار الليل ، ونظر ابن المعتز إلى كثرة انتشار الليل وتحوله فى كل مكان ، أما تميم فقد كان مقصده سرعة انتشار النهار ومحو الليل عند ظهور النهار (٢٣٢ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر) .

وقال تميم :

والبـــدر منتصف مابين أنجمه   كأنه ملك فى وسط موكبه(١)

وقال :

عتبت فانثنى عليها العتاب   ودعا دمع مقلتيها انسكاب
وسعت نحو خــدها بيديها   فالتقى اليـاسمين والعناب
رب مبدى تعتب جعل العتـ   ـب رياء وهمـــه الإعتاب
فاسقنيها مدامة تصبغ الـكا   س كما يصبغ الخدود الشباب
ماترى الليل كيف رق دجاه   وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح فى الأفق باز   والدجى بين مخلبيه غراب
وكأن السماء لجـــة بحر   وكأن النجوم فيها حباب
وكأن الجوزاء سيف صقيل   وكأن الدجى عليها قراب

وقال :

وزنجية الآباء كرخية الجلب   عبيرية الأنفاس كرمية النسب
كميت بزلنا دنها فتفجرت   بأحمر قان مثل ما قطر الذهب
فلما شربناها صبوتا كأننا   شربنا السرور المحض واللهو والطرب
ولم نأت شيئاً يسخط المجد فعله   سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
كأن كؤوس الشرب وهى دوائر   قطائع ماء جامد تحمل اللهب

---

(١) يوازن بينه صاحب «الأدب فى عهد الفاطميين بمصر» وبين قول ابن المعتز :

وكأن الصبح لمـا   لاح من تحت الثريا
ملك أقبـــل فى تا   ج يفدى ويحيـــا

ويقول : إن المشبه واحد وإن اختلف فى التركيب فهو متحد فى الهيئة ولاشك فى أن تميما تأثر بقول ابن المعتز ، ولكنه سلك طريقا لاينم على أخذ لمقـــدرته الخيالية ، فاستطاع أن يستر ما أخذ ، ففرق بين الصورتين ، وجعل النجوم حول البدر كالملك بين موكبه ، وابن المعتز جعل الثريا تاجاً على رأس الملك ونص على التحيات والحفاوات (ص ٢٣٣ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر) .

يمد بها كفا خضيباً مديرها ... وليس بشيء غيرها هو مختضب
فبتنا نسق الشمس والليل راكد ... ونقرب من بدر السماء وما قرب
وقد حجب الغيم الهلال كأنه ... ستارة درب خلفها وجه من أحب
كأن الثريا تحت حلكة لونها ... مداهن بلور على الأرض تضطرب[1]

وهي من قصيدة يمدح العزيز ، وتروى برواية أخرى وهي :

وزنجية الآباء كرخية الجلب ... عبيرية الأنفاس كرمية النسب
فلما شربناها صبوناً كأننا ... شربنا السرور المحض والهو والطرب
ولم نأت شيئاً يسخط المجد فعله ... سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
فبت أناجي البدر وهو منادمي ... وأشرب بالثم العقار من الشنب
إلى أن رأيت الصبح يفتك بالدجى ... كفتك أبي المنصور بالروم والعرب
إمام كأن الله وصاه بالعلا ... فليس له في غير معلومها أرب

وله يصف القرافة متضرعا إلى الله :

إذا كنت مصطفياً مربعا ... فخص القرافة بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفاف ... ومخصوصة بالتقى والبهاء
فمن ذاكر ربه خشية ... ومن مبتهل بطول الدعاء
رجوتك يارب لا أنني ... أطعتك طوع أولى الانتهاء
ولكنني مؤمن موقن ... بأنك رب الورى والسماء
وأنك أهل لحسن الظنون ... وأنك أهل لحسن الرجاء
ومالي يارب من شافع ... إليك سوى خاتم الأنبياء

---

(١) قال صاحب الأدب في عهد الفاطميين بمصر، أخذه من ابن المعتز في قوله :

كأن الثريا هودج فوق ناقة ... يحث بها حاد إلى الغرب مزعج
وقد لمست حتى كأن بريقها ... قوارير فيها زئبق يترجرج

المشبه به مختلف في ألفاظ التركيب متحد في الهيئة . . انظر إلى « قوارير فيها زئبق يترجرج » و « مداهن بلور تضطرب » (راجع ٢٣٥ المرجع)

وقال فى وصف روضة على شاطىء النيل[1] :

ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل ... أعلل نفسى فيه بالراح مع صحبى
لدى روضة عالت رباها كرومها ... وجاد عليها النيل من مائه العذب
كأن سحيق المسك خالط أرضها ... فجالت به فيها الرياح مع الترب
كأن نبات النيل والريح ترتمى ... بهن طلى خيل مؤثلة شهب
وطوراً تخال الماء فى رونق الضحى ... متون سيوف لحن مصقولة القضب
وتحسبه إن عمصته يد الصبا ... قوارير ما يفترن من قلق اللعب

وقال :

لا ومن صير الأئمة من نسـ ... ـل وصى النبى لى آباء
ما تحملت ذلة بل تجملـ ... ـت إلى أن يتم ربى القضاء
فاصرفا الحرب عن لثام الأعادى ... ودعانى أنازل الصهباء
قهوة تهزم الهموم إذا ما ... نازلتها وتطرب الندماء

وقال :

نحن من البستان فى نزهة ... ولفظنا مثل حلاه سوا

وكتب إلى بعض البستانيين بالمنصورية ، فأرسل المعز فى طلبه للخدمة التى كان يتولاها بين يديه ، وجاء مبادراً ، وتعذر لقاؤه فكتب إليه :

مالى عجلت إلى دعائك ... وحرمت حظى من لقائك
وتركتنى مستوحشا ... لما عزمت على اصطفائك
حتى لقد أوهمتنى ... أنى أخونك فى وفائك
صلى عليك الله من ... ملك وزادك فى حيائك

وقال تميم[2] :

وشادن شرط الصبا مرهف ... قرة عينى من تمناه
كأنما الحسن رأى وجهه ... إليـه محتاجا فأغناه

---

(١) ٢٨٧ فى أدب مصر الفاطمية
(٢) ٢٤٧ فى أدب مصر الفاطمية

فانتثرت بالغنج ألفاظه ... وانكسرت باللحظ جفناه

ولاح برق الثغر من مبسم ... المسك والقهوة مجناه

وبزّ الأرداف فاستثقلت ... وأرهف الخصر وأضناه

زرنا به منزل خمارة ... والليل فى صبغ برياه

وقد علا الأفق هلال بدا ... كمعطفة الحاجب مخناه

حتى إذا الخمار أصغت إلى ... صخب الغنا بالضرب أذناه

قام إلينا عجلا شاغلا ... بالراح يمناه ويسراه

ما سل من إبريقه قهوة ... أشرق منها ليل مغناه

حتى إذا سمناه فى بيعها ... قطب غيظاً حين سمناه

وقال ما استام بها ماجد ... قبلكم فيا علمناه

دونكموها وزنوا مثلها ... درا وتبرا ، ووزناه

فغاب عن ألحاظنا ساعة ... ثمت وافانا ودناه

فقام بالكأس هضيم الحشا ... لولا قناه لشربناه

كأنها فى كفه خده ... لكنها فى السكر عيناه

إذا سقى ندمانه كأسه ... ألثمه فاه وعيناه

ولم تنكه غير ألحاظنا ... يا كاشحاً قد زاد معناه

فإن تداخلك بنا ظنة ... فقد على رغمك نكناه

ولم نزل فى بيت خمارها ... نشربها شهرا ومثناه

إذا أشاب الصبح رأس الدجى ... وهزنا الساق أجبناه

نحيو إذا نادى إليه كما ... يحبو إلى الوالد أبناه

وإن بدا من صاحب بعض ما ... يأتى به السكر عذرناه

سقيا ورعيا لزمان مضى ... به معد(١) فعدمناه

ما كان أبهى حسن أيامه ... فينا وأحلاه وأهناه

إذ لم يكن فى عين شمس لنا ... مخيم نكره سكناه

ولم نكن نزل فيه على ... حكم من الأيام نشناه(٢)

لكننا نغدو على ماجد ... تمطرنا بالجود يمناه

---

(١) هو والده المعز لدين الله (٢) أى نبغضه

وقال(١) تميم بن معد(٢) من السريع ويروى للوأواء :

لا تظلموا الناس ولا تطلبوا ⠀⠀ بثأري اليوم أذى مسلم
وبالقوى دونكم شادنا ⠀⠀ معتدل القامة والمبسم
وإن أبى إلا جحوداً له ⠀⠀ وا كتتم الأمر فلم يعلم
قولوا له يكشف عن وجهه ⠀⠀ فإن فيه نقطة من دمي

مخمسة تميم المشهورة(٣) وهي من الهزج:(٤)

دم العشاق مطلول ⠀⠀ ودين الحب مطول
وسيف اللحظ مسلول ⠀⠀ ومبدى(٥) الحب معزول
وإن لم يصغ للائم

إذا لم يظهر الحب ⠀⠀ ولم ينهتك الصب
ويفشى سره القلب ⠀⠀ بجملة ما ادعى كذب
فبح يا أيها الكاتم

وأحور ساحر الطرف(٦) ⠀⠀ يفوق جوامع الوصف
مليح الدل والظرف ⠀⠀ جنت ألحاظه حتفى
فمن يعدى على الظالم

أطاع جفونه السحر ⠀⠀ وذل لوجهه البدر
وماد بردفه الخصر ⠀⠀ وأشبه ثغره الدر
فقلب محبه هائم

---

(١) المرجع : ٢٩٢ اليتيمة (٢) فى اليتيمة : لمعد بن تميم — وهو تحريف
(٣) المراجع : ١٤١ — ١٤٤ : ١ اليتيمة ، وفى ٢٧٦ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر بعضها .
(٤) هكذا يقول صاحب اليتيمة ، والصحيح أن الخمسة من الوافر
(٥) رواية اليتيمة : ومبدا
(٦) فى اليتيمة ساهر

يعنفنى عـــلى حبى ويهجرنى بلا ذنب
كأنى لست بالصب لقهوة ريقه العذب
أما فى الحب من راحم

غزال : لحظه شركه وبدر : ثوبه فلكه
لو انى كنت أملكه فأنهب ما حوت تكه
نهـــاب الظافر الغانم

خذوا بدمى قنا القد وحسن تورد الخـــد
وليل الشعر الجعـــد وثقل الكفل النهد
وســـقم الأعين الدائم

متى يظفر بالوصـــل ويثنى الجور بالعدل
محب دائم الخبـــل سليب الصبر والعقل
كئيب مدنف هائم

بحسن الأعـــين النجل وعض الوقف والحجل
وذاك القصب الجدل وريق كجنا النحل
وثغر يطمع النائم

سلوا الشمس التى طلعت علينـــا ثم ما أفلت
عسى ترثى لمن قتلت بعينيهـا وما علمت
فقد يستعطف العالم

أما والخرد الصفر شبيهات سنا البدر
وألوان صـــفا الخمر لقد أضرمن فى صدرى
غراما ليس بالنائم

وراح تبعث الطـــربا وتحيى الظرف والأدبا
يثير مزاجهـــا حببا تخال به عيون ربى
ودرا صفه الناظم

أما والجمرة الـــكبرى وزمزم والصـــفا ومنى
ومن لبى بهـا ودعا وطاف البيت ثم سعى
خميصا مخبتا صائم

لقد أضحى لنا خلفا   نزار وابتنى شرفا
وأصبح عامس الخلفا   وأحيا سعيه السلفا
وأضحى بالهدى قائم
نمى فى المجد عنصره   وطال النجم مفخره
وفاق البدر منظره   فصرف الدهر يحذره
أبى لين صارم

وقال من المنسرح (١):

وجنة من شغفى هواه ومن   أفنيت فيه دموع آماق
كأنما الصيرفى دثر ما   يحمر منها ودرهم الباق

وقال من الكامل(٢) :

ورد الخدود أرق من   ورد الرياض وأنعم
هذا تنشقه الأنو   ف وذا يقبله الفم
فإذا عدلت فأفضل   الوردين ورد يلثم
هـذا يشم ولا يعض   وذا يعض ويشم
لا ورد إلا ما تولى   صبغ حمرته الدم
سبحان من خلق الخدو   د شقائقا تتنسم
وأعارها الأصداغ فيـ   ـى به شقيق يعلم
واستنطق الأجفان فيـ   ـى بلحظها تتكلم
وتبين للمحبوب عن   سر الحبيب فيفهم
وتشير إن رأت الرقيـ   ـب بلحظها فتسلم
وأعارها مرضا تصح   به القلوب وتسقم
فتن العيون أجل من   فتن الخدود وأعظم

---

(١) المرجع : ٤٤١ : ١ اليتيمة ، وفى ص ٢٩٢ : ١ اليتيمة البيتان أيضا مع إبدال « يحمر » بكلمة « نجم » .
(٢) المراجع : ٤٤١ : ١ اليتيمة ، ١٨٨ : ٣ زهر .

وقال وهو مما يتغنى به (من البسيط) (١) :

قالت وقد نالها للبين أوجعه والبين صعب على الأحباب موقعه
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل مافيه وأضلعه
واعطف على المطايا ساعة فعسى من شت شمل الهوى بالبين يجمعه

وقال (من الطويل)(٢):

أما والذى لايملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما لأعلانها عندى أشد وآلم
وبى كل ماتشكو العيون أقله وإن كنت منه دائماً أتبسم

وقال :

ترى عذاريه قد قاما بمعذرتى عند العذول فيغدو وهو يعذرنى
ريم كأن له فى كل جارحة عقداً من الحسن أو نوعاً من الفتن
كأن جوهره من لفظه عرض فليس تحويه إلا أعين الفطن
أخفى من السر لكن حسن صورته إذا تأملته أبدى من العلن
والله ما فتنت عينى محاسنه إلا وقد سحرت ألفاظه أذنى
ما تصدر العين عنه لحظها مللا لأنه كل شخص مرتضى حسن
يامنتهى أملى لاتدن لى أجلى ولا تعذب ظنونى فيك بالظن
إن كان وجهك وجهاً صيغ من قمر فان قدك قد قد من غصن (٣)

---

(١) المراجع: ٤٣٨ : ١ اليتيمة ، وفى ص٢١٢ : ٣ ظهر الإسلام هذه الأبيات ماعدا الثالث منها . . وهى فى ٢٩٦ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

(٢) المراجع : ٤٣٨ : ١ اليتيمة ، وفى ص ٢١٣ : ٣ ظهر الإسلام لأحمد أمين الأبيات مع تغيير كلمة « تشكو » فى البيت الثالث بكلمة « يبكى » ، وهذه الرواية هى رواية ابن خلكان ، راجع ص ١٧٢ ج ١ وفيات الأعيان) فى ترجمة تميم ، ٤٠ : ٢ المقصل ، ٢٣٠ المعز لدين الله .

(٣) راجع الأبيات : ٤٣٧ ج ١ اليتيمة ، ١٩٠ : ٣ زهر .

وقال (١) :

سألته قبلة منـــه على عجل ... فاحمر من خجل واصفر من وجل
واعتل مابين إسعاف يرقه ... وبين منع تمادى فيه بالعلل
وقال وجهى بدر لا خفاء به ... ومبصر البـــدر لا يدعوه للقبل

وقال (٢):

مستقبل بالذى يهوى وإن كثرت ... منـــه الذنوب ومقبول بما صنعا
فى وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب وجيه أينما شفعا
كأنما الشمس من أثوابه برزت ... حسناً أو البدر من أزراره طلعا

وقال(٣) :

أرى الليل فى دير القصير كأنما ... يطالعنـا من ساحتين شموس
يلذ التصابى فى ذراه كأنما ... تجـــدد للزوار فيـــه نفوس
فمن كان محبوساً على حب لذة ... فإنى على دير القصير حبيس

---

(١) المرجع : ١٨٦ : ٣ زهر .

(٢) المرجع ٢٩٥ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر ، ١٨٧ : ٣ زهر

قال الحصرى : فى البيت الثالث : استعارة من قول ابن زريق :

أستودع الله فى بغـــداد لى قمرا ... بالـــكرخ من فلك الأزرار مطلعه

أو من قول أحمد بن يحيى الفران :

بدا فكأنما قمر ... على أزراره طلعا

(٣)المرجع : ٢٦٧ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

وقال «من المنسرح»[١]:

لو صورت خلقها إرادتها ... ما قدرته كمثل ما قدرا
كالمسك نشرا والبرق مبتسما ... والغصن قدا والحقف مؤتزرا

وقال «من السريع»[٢]:

شبهتها بالبدر فاستضحكت ... وقابلت قولي بالنكر[٣]
وسفهت قولي وقالت متى ... سمجت حتى صرت كالبدر
والبدر لا يرنو بعين كما ... أرنو، ولا يبسم عن ثغر
ولا يميط المرط عن ناهد ... ولا يشد العقد في نحر
من قاس بالبدر صفاتي فلا ... زال أسيراً في يدي هجري

وقال من الكامل وهي مشهورة[٤]:

ما بان عذري فيه حتى عذرا ... ومشى الدجى في خده فتحيرا
همت تقبله عقارب صدغه ... فاستل ناظره عليها خنجرا
والله لولا أن يقال تغيرا ... وصبا وإن كان التصابي أجدرا
لأعدت تفاح الخدود بنفسجا ... لثما، وكافور الترائب عنبرا

وقال «من الطويل»[٥]:

وغضي من الإدلال والتيه والهوى ... بلا غضب، سكرى الجفون بلا سكر

---

(١) المرجع: ٤٣٩ : ١ اليتيمة.
(٢) المرجع ٤٢٩ - ١ اليتيمة، وتنسب الأبيات لعلي بن عبد الرحمن بن المنجم، ٢٤٣ - الأدب العباسي لمحمود مصطفى، . . والأبيات منسوبة لتميم في ص ٢٧٣ و ٢٧٤ الأدب في عهد الفاطميين بمصر.
(٣) النكر: استفظاع الأمر.
(٤) المرجع: ٢٩٢ : ١ اليتيمة، و ١٧٢ : ١ وفيات الأعيان.
(٥) ٤٣٨ : ١ اليتيمة.

كأن على لباتها رونق الضحى   وفى حيث يهوى القرط منها سنا الفجر
ترى البسر مثل البدر فى صحن خدها   وتفـــتر عن مثل الجان من الثغر

وقال أبو على تميم بن المعز فى الغزل (١) :

فديت من ألفاظه جـــذوة   تذكى ، ومن ملثمـــه بارد
لما شكوت إليـه الهوى   والشوق نام والجوى زائد
أرسل فى تفـاحة خـــده   إلى كيلا يفطن الحاسـد
فلونه فى لونهـــا ظـاهر   وريقـــه فى طعمها جامد

وقال على لسان جارية له (٢) :

طمع الورد أن ينـافس خـدى   طمع الغصن أن يقـاس بقدى
أنا إنســية ولـكن حسنى   حسن حـورية بجنة خـلد
لو تأملتنى العيون لأجرى   لحظها رقة مع المـاء جلدى
صاغنى الله واصطفانى لمـا   صاغنى فردة الجمـــال لفرد

وأنشد وهو فى الرملة (٣) :

أنتم فى المنام حلمى وأنتم   فى انتباهى سولى وانتم مرادى
كل عضو منى إليكم مشوق   زائد شوقه على الأبعـــاد
لم أفارقكم ولـكن جسمى   بان عنكم وحل فيكم فؤادى
فهنيئاً لـكم وفائى عليكم   وهنيئاً للعين طول السهـاد
كلما حثنى اشتياق إليـكم   قلت لبيك أنت نعم المنـادى

---

(١) ١٨٥ و ١٨٦ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر ـ الأستاذ عبد الحميد عبده خليل .
(٢) المرجع ٢٦٧ . الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .
(٣) ١٧٣ فى أدب مصر الفاطمية .

وقال أيضاً :

دعا دمعهن فراق لجادا ... وأعجلهن التنائى فزاد
فلم أر دمعاً كأدماعهن ... يميض الحشا ويذيب الفؤادا
ولما تيقن أن الفراق ... يزود عشاقهن البعادا
تأوان أن لباس الحداد ... أحق بمن صير الحسن زادا
فنشرن ما قد طوت خمرهن ... ليلبسن شعر النواصى حدادا
ولولا مراعاة عين الرقيب ... لبسن الثياب جهاراً سوادا

وقال (١) :

قالوا الرحيل لخمسة ... تأتى سريعاً من جمادى
فأجبتهم إنى اتخذ ... ت له الأسى والزادا
سبحان من قسم الأسى ... بين الأحبـــة والبعادا
وأعاد للأجفان حسنا ... تسترق به العبادا

وقال(٢) :

أباح لمقلتى السهرا ... وجار على واقتدرا
غزال لو جرى نفسى ... عليه لذاب وانفطرا
ولكن عينه حشدت ... على الغنج والحورا
ومن أدرى به قمر ... فكيف يعاتب القمر(٣)

وقال(٤) :

عقرب الصدر فوق تفاحة ... الخد نعيم مطرز بعذاب
وسيوف اللحاظ فى كل حين ... ما نعات جنى الثنايا العذاب

---

(١) المرجع ١٨٩ : ٣ زهر .
(٢) المرجع ٢٩٦ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر ، ١٨٦ : ٣ زهر
(٣) قال الحصرى : كأنه ذهب إلى قول أبى نواس :
كأن ثيابه أطلعـ ... ـن من أزراره قمرا
يزيدك وجهه حسناً ... إذا مازدته نظرا
(٤) المرجع ١٩٠ ـ ٣ زهر .

وعيون الوشاة يفسدن بالرة ... بة والمنع رؤية الأحباب
فمتى يشتفى المحب وتطفى ... بالتدانى حرارة الإكتئاب ؟

وقال :

ظلموا البين والنوى والرقيبا ... والنوى لا تبعد المحبوبا
لا أذم الفراق فى بعد من قد ... سكن العين والحشا والقلوبا
لا ولا أظلم الوشاة ولا ... أشكو رقيباً ولا أذم شحوبا
ماوشى بى سوى الدموع ولا ... أضحى سوى مهجتى عليه رقيبا
ولو أنى رعيت حق الهوى لم ... أمنع الجسم بعدهم أن يذوبا
قد رنت ظبية ولاحت صباحا ... وبدت دمية وماست قضيبا
حبذا لفظها وأنملها الخ ... س وقد أقبلت تعد الذنوبا
ليت شعرى أعارها البدر نوراً ... أم كساها الغمام تلك الشروبا ؟
أم رآها العزيز للحسن أهلا ... لحباها بماله الموهوبا
ملك لم يدع من العز والمج ... د لملك من الأنام نصيبا

وقال(١) :

إن كانت الألحاظ رسل القلوب ... فينا فما أهون كيد الرقيب
قبلت من أهوى بعينى ولم ... يعلم بتقبيلى خد الحبيب
لكنه قد فطنت عينه ... بلحظ عينى فطنة المستريب
ان كان علم الغيب مستخفياً ... عنا فعند اللحظ علم الغيوب

وقال(٢) :

لا والمضرج ثوبه ... فى كر بلاء من الدماء
لا والوصى وزوجه ... وبنيه أصحاب الكساء
أو لا فإنى للعصا ... ة الغاصبين الأدعياء
ماحلت يا ذات اللمى ... عما عهدت من الوفاء

---

(١) المرجع : ١٨٩ : ٣ زهر
(٢) ٢٧٤ و ٢٧٥ الأدب فى عهد الفاطميين بمصر .

هيا انظرينى ســـابحاً   فى الدمع من طول البكاء
وضعى يديك على فؤا   د قد تهيـــأ للفناء
قالت تلطف شـــاعر   لسن وخدعة ذى ذكاء
أمسك عليك فقد تفتـ   ـح منك وجهى بالحياء
واعبث بما فى العقد مـــ   ـنى لا بما تحت الرداء
إن الرجال إذا شكوا   لعبوا بأخلاق النساء

تميم فى جده ولهوه

وإنما أثبتنا كثيراً من شعر تميم لأن ديوانه لايزال مخطوطا حتى اليوم ، ولم يتسن للكثير الاطلاع عليه ، مما جعل الدراسات الأدبية عن تميم شبه معدومة .

وقد شهر تميم بالحذق والذكاء وخرج باقة فى البلاغة والنظم ، على أن هذا الجد منه لم يمنعه فى عنفوان شبابه أن يقبل على اللهو والقصف وينقادلداعى الشهوات وكان يرخص فى ذلك لمن حوله من الرعية وينظر إلى مسراتهـــم بعين الرضى والاستحسان ويشاركهم بما لديه من مقدرة وثراء وما امتاز به من بشاشة وسخاء . وقد وصفه لنا ابن الأبار القضاعى الأندلسى ومن بعده المقريزى فى أيام النيروز والمهرجان وأعياد النصارى كالغطاس والميلاد والشعانين وغيرها من أيام الفرح واللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف والعزف ويخرجون إلى بركة الجيش متنزهين فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب ، ومنهم من يخرج بالقيان والمسمعات والمخدرات وخيل تميم فى مثنى فارس من عبيده تحرسهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا . فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان فى بيته ولا يضيع لأحد منهم ماقيمته حبة واحدة ، ويركب تميم فى عشارى تتبعه أربعة زوارق وأكثر مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً فإن كانت الليالى مقمرة وإلا كان معه من الشموع مايعيد الليل نهاراً فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته وسألهم عما نقصهم فيعطيهم ، وربما رغبوا إليه أن يسمعهم من غنائه فيقف عليهم ويأمر من يغنى لهم وينتقل عنهم

إلى غيرهم ، يفعل هذا عامة ليلته ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضي هذه الأيام ويفترق الناس(١) . ومن هذا الوصف يتضح كم كانت أيام العزيز بالله وابنه تميم في القاهرة أيام غبطة وهناء وأفراح شاملة ولا نعلم أن أحداً روى عن أبناء الملوك ماروى عن الأمير تميم من التسامح وخفض الجانب والجود والظرف ، وشتان بينه مثلا وبين أبي على ابن الرشيد العباسي حين كان في بغداد يحمل جواريه وقيانه إلى حانات الديارات ويقيم معهن الأيام والليالي عزفا وقصفا حتى ينغص على جيرانه نومهم وراحتهم بكثرة ما يقلقهم به من الصياح والضوضاء المتواصل دون أن يشركهم مرة في شيء من مسراته وأطرابه ، حتى ألجأهم إلى الشكوى إلى الأمير اسحق بن ابراهيم الطاهري وهو خليفة السلطان ببغداد ، فأمر بإنزاله ليلة من الدير وهو سكران وبطحه على باب الدير وضربه عشرين درة(٢) . واتفق أن الخليفة العزيز بالله زار مرة بركة الجيش ، فلما قرب من قصور أخيه تميم سأل عنه فأسرع إليه من غرفه فخرج راجلا حافياً حتى لقيه فسلم عليه بالخلافة وقال : يا أمير المؤمنين قد وجبت على عبدك الضيافة . قال نعم ، ودخل معه إلى بستانه وقدم أمر بجنيبة من الجنائب التي كانت بين يديه وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره . فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهب عليه فتعجب منه واستظرفه ودنا على شجرة وأخذ منها ليمونة واحدة فقرأها وإذا مكتوب عليها بالذهب :

أنا الليمون قد غذيت عروق ... ببرد الماء في حرز حريز
حسنت فليس يحسن أن يحيا ... بأمثالي سوى الملك العزيز

فجعلها في كمه وقال هذه ضيافتي عندك وانصرف إلى قصره فبعث إلى جعفر ابن مقرب صاحب بيت المال فقال له : ماعندك من الدنانير ضرب هذه السنة ؟ — وكان ذلك في أولها — فقال له : مئة ألف وستون ألف . فأمره بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزي وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك استعن بهذه على مروءتك . فقبل الأرض وبعث إليه من الغد قصيدة حسنة يمدحه فيها ويشكره(٣) .

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار خزانة مدريد رقم ٤٨٩٧ ص ٢٥٢ – ٢٥٥ والخطط للمقريزي مطبعة النيل ٣ : ٢٥١   (٢) ديارات الشابشتي الورقة ١٢ – ١٣ نسخة برلين
(٣) الحلة السيراء ص ٢٥٢ – ٢٥٥ .

وفى هذا دليل على طيب أخلاق الأمير تميم وصفاء طويته ، وكان حقيقاً بالحقد على أخيه العزيز ، لأن والده المعز كان ولاه عهده لتقدمه بالسن على العزيز ورشحه للخلافة وبه كان يكنى . وقد أغفل المؤرخون السبب الذى بدا للمعز حتى حول الخلافة عن تميم إلى نزار وأحله محله . ويظهر أن القائد جوهر الصقلى بانى القاهرة هو الذى أشار بخلع تميم ، لأنه كان عقيما لا يولد له (١) ، وكان العزيز يوالى إكرامه علماً بصدق وده وإخلاصه فى مدحه (٢) :

ومن ديوان تميم نسخة فى دار الكتب المصرية وأخرى فى ليدن بهولاندة وفيها نقص ، وجاء فى مقدمة هذه النسخة :

« الحمد لله الذى نضر لعيون الأعيان رياض البيان ، وفتن القلوب بأفنان فنونه . أما بعد فإن الأمير الكبير تميم بن المعز لدين الله العبيدى تغمده الله بالعفو والغفران وسقى ضريحه بديم الفضل والامتنان كان قد ولى إمارة ممالك الشعر وألقى إليه زمام التصرف فى أقطار النظم والنثر . . . وقد جمع فى هذا السفر ما وجد من فنون نظمه ليكون دليلا على المفقود من أفانين حكمه ، وسبيلا إلى التنزه فى طرائف أدبه وعلمه . . . . »

قصائد أخرى لتميم

كتب تميم لبعض إخوانه :

إذا هب سلطان المريسى ناشحاً	سحيراً وحل القسر كل نقاب
وذر على الأفق الغمام بنانه	فقم فالقه فى عدة وجراب
بكن وكانون وكأس مدامة	وكيس و « كف » ناعم وكباب
وكل نساء أدكن أو مضرج	كما ضرج الخدين ماء شباب
كتبت لك الكافات سبعاً ولم تكن	بمجموعة قبلى لرب كتاب

---

(١) محاسن الشام للبدرى ٣٢٣ .

(٢) الحلة السيراء لابن الأبار — خزانة مدريد ص ٢٥٢ — ٢٥٥ .

وتميم هو السابق إلى هذه الكافات الجونية التي كثر من بعده المقلد لها . وأما ابن سكرة الذي استشهد به الحريري فلم يكن إلا مغيراً أومستعيراً ، وإنما أحسن فقط بنسقها في بيت واحد . والأمير توفي بين سنتي ٣٧٤و٣٧٥ هـ (٩٨٤ – ٩٨٥) أما ابن سكرة فمات من بعده بعشر سنوات أي سنة ٣٨٥ ، ومن مدائحه التي اشتط فيها ونفث ببعض ما في صدره وصدور قومه من حب تأليه أهل بيتهم قبل ادعاء الحاكم منهم للربوبية – قوله من قصيدة:

جئت الخلافة لما أن دعتك كما وافى لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منهملا فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره تناهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل وأنت لله فيهم غير مؤتمر
لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها مثوى وكنت مليك الأنجم الزهر
ولو تفاطنت الألباب منك درت بأنها عنك في عجز وفي حصر
إن جل شخصك عن حد العيان فقد جلت مساعيك عن مثل وعن خطر

وقال تميم :

أنا المرقى بالأفها م ، والمعروف بالجم
أنا المسموع بالأفضا ل والمنعوت في الشعر
أنا المستحمد الأمر أنا المستحسن الإثر
أنا المفتخر البالـ ـغ بالفخر مدى الفخر
أنا السيف الذي يفري أنا الغيث الذي يقري
أنا الصبح ، أنا الشمس أنا البدر الذي يسري
أنا المرجو في العسر أنا المرجو في اليسر
أنا ابن الأنف الشم أنا ابن الأنجم الزهر
أنا ابن الوحي والحكـ ـمة والفرقان والذكر

أنا ابن الشرف الأعلى   أنا ابن النائل الغمر
أنا المسبل للنعمى   أنا الكاشف للضر
أنا الراتق للفتق   أنا القاصم للظهر
أنا الهائض للعظم   أنا الجابر للكسر
أنا المبصر بالرأى   أنا المسمع ذا الوقر
أنا الضارب بالبيض   أنا الطاعن بالسمر
أنا الرائى جبال الأر   ض والعالم بالذر
أنا المتصل الحلم   أنا المجتمع المكر
أنا المرهب للجن   أنا القاطع للفقر
أنا المجتمع الجأش   أنا الرحب مدى الصدر
فسل عن شرفى فخرى   وسل عن كرمى بشرى

وللأمير تميم من قصيدة رثاء أهل البيت ومفاخرة الأمويين ، منها :

أليس هم الهادون والعترة التى   بها انجاب شرك واضمحل فساد
تساق على الإرغام قسراً نساؤهم   صبايا إلى أرض الشآم تقاد
تساق إلى دار اللعين صواغراً   كما سيق فى عصف الرياح جراد
كأنهم فيء النصارى وإنهم   لأكرم من قد عز عنه قياد
تعز على الزهراء ذلة زينب   ويتم حسين والقلوب شداد
وقرع يزيد بالقضيب لسنه   لقد بحسوا أهل الشآم وعادوا
قتلتم بنى الإيمان والوحى والهدى   متى صح منكم فى الإله مراد
ولم تقتلوهم بل قتلتم هداكم   وتقصتموهم عند ذاك وزادوا
أمية مازلتم لأبناء هاشم   عدى فاملئوا طرق النفاق وعادوا
إليكم وقد لاحت براهين فضلهم   عليكم نفار منكم وعناد
متى قط أضحى عبد شمس كهاشم   لقد قل إنصاف وطال شراد
متى وزنت صم الحجار بجوهر   متى شارفت شم الجبال وهاد
متى بعث الرحمن منكم كجدهم   نبيا علت للحق منه زناد

متى كان يوما صخركم كعليهم ... إذا عد إيمان وعد جهاد
متى أصبحت هند كفاطمة الرضى ... متى قيس بالصبح المنير سواد
أآل رسول الله كدتم وسؤتم ... ستحيا عليكم ذلة وكساد
أليس رسول الله فيهم خصيمكم ... إذا اشتد إبعاد وأرمل زاد
بكم أم بهم جاء القرآن مبشراً ... بكم أم بهم دين الإله يشاد
سأبكيكم يا سادتى بمدامع ... غزار وحزن ليس عنه رقاد
وإن لم أعاد عبد شمس عليكم ... فلا أتسعت لى ماحييت بلاد
وأطلبهم حتى يروحوا وما لهم ... على الأرض من طول القرار مهاد
سق حفراً وارتكم وحوتكم ... من المستهلات العذاب عهاد

وله من أبيات يصف فيها ناعورة وأدبح فيها هجاء الأمويين :

دع عبد شمس وأباطيلها ... فقد بدا الله بتنكيسها
قبيلة ماطهر الله من ... شايبها من إثم تنجيسها
طافت بحرب وهو فرعونها ... خوف النصارى حول قسيسها
دم النبي المصطفى ظاهر ... يلوح فى بنيان تأسيسها ..

ومن نظره قوله يفاضل العباسيين :

أقروا لنا يا آل عباس بالعلى ... فلستم لها يا آل عباس أكسبا
سبقنا كم للدين والهجرة التى ... تأخر عنها جدكم وتحجبا
وكنتم بنى عم النبى محمد ... وكنا بنيه وهو كان لنا أبا
وليس بنو أعمامهم فى دنوهم ... كمثل أخيه خطة وتنسبا
ولو لم يكن إلا بنوا العم مثلكم ... لكنتم لنا وهدا وكنا لكم ربا
ولا يستوى المهان هذا مقرب ... عجيب وهذا بعد بعد تقربا
نبا جدكم عن نصره يوم بمثه ... وجد على جدنا عنه ما نبا

وكان عبد الله بن المعتز قد نظم قصيدة فضل فيها العباسيين على العلويين ، أولها « أى ربع لآل هند ودار » فرد عليه الأمير تميم بقصيدة من الروى نفسه بلغت ٩٥ بيتاً وافتتحها بقوله :

جادك الغيث يا محلة دارى ... وثوى فيك كل غاد وسار

وللأمير تميم قصائد غزلية أحسن فيها إحسانه المشهور، وله لهو كثير وأوصاف لأديرة مصر ، ومنها دير القصير ودير ماريوحنا من أنزه ديار الملكيين في مصر ، وكانت الأديار في عهده مألفاً للمتنزهين والمتطربين ومقصداً لعشاق اللهو واللذة وطلاب العبث والقصف ، وكان دير مرحنا يشرف على بركة الجيش التي تغنى في وصفها وإطرائها الشعراء ... وللأمير في حانة هذا الدير :

أيا دير مرحنا سقتك رعود ... من الغيم يهمى مزنها ويجود
فكم واصلتنا في رباك أوانس ... يطفن علينا بالمباخر غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ... وناب عن الورد الجنى خدود
وماست على الكثبان قضبان فضة ... وأثقلها من حملهن نهود
ليالى أغدو بين ثوبى صبابة ... ولهو وأيام الزمان هجود
وإذ لمتى لم يوقظ الشيب ليلها ... وإذ أثرى في الغانيات حميد

وكان دير القصير في ظاهر القاهرة قريباً من حلوان ، على رأس جبل مشرف على النيل في غاية النزاهة والحسن . وفيه صورة مريم وفي حجرها المسيح في غاية إتقان الصنعة . وكان خمارويه بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه وتعجبه تلك الصورة ويشرب عليها ، وبنى لنفسه في أعلاه قبة ذات أربع طاقات هي مشهورة به . وأهل مصر يتنابونه ويتنزهون فيه لقربه من الفسطاط (١) .. وللأمير تميم يصف حانته وإدمانه الشرب فيها :

أرى الليل من دير القصير كأنما ... تطالعنا من ساحتيه شموس
يلذ التصابى في ذراه كأنما ... تجدد للزوار فيه نفوس
فمن كان محبوساً على حب لذة ... فإنى على دير القصير حبيس

وله في وصف بعض الغانيات الحسان الخارجات من الدير بعد تناولهن القربان :

ومظهرة عقد هميانها ... تدين بطاعة رهبانها
تراءت لنا يوم دير القصير ... وقد فوقت سهم أجفانها

---

(١) معجم البلدان لياقوت طبعة أوربا ٢ : ٦٨٥ .

فلما قضت حق قربانها   وأدت فريضة صلبانها
رمتنا بلحظ يقد القلوب   ويجرحها قبل أبدانهـــا
فلم أر ذلا كذلى لها   ولم أر عزاً كسلطانها
محببة أبداً للنفـــوس   وإن قطعتها بهجرانها
ألا بأبي جور إدلالها   على ، وإفراط عدوانهـــا

وقال أرجوزة فى وصف ساقية غلامية فى هيئة المرد :

طاهرة المنديل والخفتان[1]   فى هيئة المرد من الغلمان
شاطرة ساحرة اللسان   ترفعت عن شبه النسوان

وله فى مثلها من أبيات يصف فيها الخمر :

وشاطرة الزى محفوظة   إذا برزت بزنانيرها . .
ومودعة بطن مقبرة   تحدث عن عهد سابورها
حججنا إلى بيت خمارها   لنشربها فى مقاصيرها

ومن مدائحه لأخيه العزيز التى وصف فيها دير القصير ونزاهة موقعه ، وإشرافه على الرياض والأزهار :

سقى السفح من دير القصير إلى النهر   إلى الجيزة الغراء فالشط فالنهر
من الغاديات الغر كل مخيم
ضعيف الصبا عذب الحيا مسبل القطر
إذا جادها صوباً أجاد رياضها   وألبسها وشياً من النور والزهر
فمن بسط مسكية ونمارق   خلوقية حفت بأقبية خضر
كأن الذى فوق الشقائق جائلا
دموع أريقت فى الخدود على النحر
إذا الريح جالت بينهن تضوعت   بريح فتيت المسك أو عنبر الشحر
خليلى لا عيش سوى اللهو والصبا   ولا لهو إلا فى سماع وفى خمر

---

(١) الخفتان : ضرب من الثياب هو المعروف بالقفطان .

خذا كؤوس الراح صرفاً فإنني أرى الدهر صعباً لا يدوم على أمر
إذا الدهر أعطاك القياد فلا تثق به فقصاراه التنقل للغدر
فأعط من العيش الشباب نصيبه ولا تنتظر كر البياض على الشعر

وله قصيدة وصف فيها اجتماعه فى ما زعم بإحدى الحسان الروميات ولكنه شان بلاغتها بالتصريح بلذته بألفاظ نابية .

قال ناهجاً منهج أبى نواس فى خمرياته :

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله ولا يتأذى النفس منه ولا القلب
إذا قلت لا فى قصة لم يقل بلى وإن قلت أصبو قال لا بد أن أصبو
وإن قلت هاك الكأس قال مبادرا ألا هاتها طاب التنادم والشرب
سريع إذا لبى صبور إذا دعا يهون عليه فى رضى خله الصعب
غدوت به يوما إلى بيت حانة وللغيم دمع ما يكف له سكب
وقد نفحت ريح الصبا بمتانس عبيرية الأنفاس طاب لها الترب
فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف إلى زولة شمطاء منزلها رحب
مزنرة أما أبوها فقيصر وحسبك ملك جره قيصر حسب
قصيرية ديرية هرقلية تقاصر منها الخط واحدودب الصلب
فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا وفى يدها نجم يحيط به قعب
وقالت لنا أهلا وسهلا ومرحباً وقل لكم منى البشاشة والرحب
من انتم فقلنا عصبة من بنى الصبا دعاهم زليلك القصف والعزف واللعب
فقالت على اسم الله حطوا رحالكم فعندى الفتاة الرود والأمرد الرطب
وراح نفى أقذاءها طول عمرها فجاءت كما يذرى مدامعه الصب
أرق إذا رقرقتها من زجاجة وألطف من نفس تداولها الحب

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة .

مشاهد البيئة فى الشـــعر المصرى

تبدو فى الشعر المصرى القديم صور البيئة ومشاهد الطبيعة المصرية بوضوح وجلاء . ففيه أوصاف للنيل والجو والفصـــول والرياض والثمار والأشجار والزروع والأديرة والقصور وسوى ذلك ، ولا يخلو ديوان شاعر مصرى قديم من أوصاف النيل .

والنيل — كما يقول عبد الوهاب عزام — : مذكور فى الشعر ، موصوف فى كل العصور ، ولا يخلو ديوان شاعر مصرى من قطع فى النيل وفيضانه . والخليج وفتحه . وقلما ورد مصر شاعر عربى إلا ذكر النيل فى شعره . وحسبي أمثلة قليلة تدل على ما وراءها .

قال الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى :

ياحبذا حلوان فالنيـــل	ربع بحسن اللهو مأهول .
وحت ومركوبى به أدهم	على جناح الريح محمول(١)
كأنها فى المـــاء زنجية	لها من الموج أكاليـل
والنيل فى رونق شمس الضحى	سيف صقيل المتن مسلول
حتى إذا ما درجته الصبا	وماج منه العرض والطول
فهو لمن أبصره جوشن	على مهاد الأرض مسدول
أو حبك ترصيعها جوهر	مبدد فيهن محلول

وله فى فيضان النيل :

أنظر إلى النيل قد عبي عساكره	من المياه فجاءت وهى تستبق
كأن خلجانه والماء يأخذها	مدائن فتحت فاحتازها الغرق
كأن تياره ملك رأى ظفراً	فكر إثر الأعادى محتق نزق

---

(١) يعنى سفينة.

ويقول ابن نباتة المصرى :

ياسارى البرق فى آفاق مصر لقد … أذكرتنى من زمان النيل ماعذبا
حدث عن البحر أو دمعى ولا حرج … وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمراً … لحبذا هرم فارقته وصبا

وإنى لمشتاق إلى ظل روضة
على النيل أروى العيش منها عن النضر
إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى … فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر

ويقول علم الدين أيدمر وهو من شعراء مصر :

كيمياء النيل خالصة … قد أتتنا منه بالعجب
كان من ذوب اللجين فقد … عاد بالتدبير من ذهب
راقص بالحسن مبتهج … فهو فى عجب وفى طرب
ومغانى مصر تسمعه … نغمة الشادى بلا صخب
ونسيم الريح لاعبة … فى خلال الروض بالقضب

ولابراهيم بن عبدون الكاتب :

والنيل بين الجانبين كأنما … صبت بصفحته صفيحة صيقل
يأتيك من كدر الزواخر مده … بممسك من مائه ومصندل
فكأن ضوء البدر فى تمويجه … برق يموج فى سحاب مسبل
وكأن نور السرج فى جنباته … زهر الكواكب تحت ليل أليل
مثل الرياض مصنفاً نوارها … يبد لعين مشبه وممثل

وللقاضى الفاضل رسائل عدة فى وصف النيل .

وكذلك أكثر الشعراء فى وصف جزيرة الروضة والخليج وبركة الجيش، كقول ابن عاتى :

جزيرة مصر لاعدتك مسرة ... ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بانة ... يميت ويحيي هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا
ومختلفات الموج فيها جمالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة ... ترف على أهل الضلال ظلالها

ويقول ابن الساعاتى فى يوم كسر الخليج :

إن يوم الخليج يوم من الحسـ ... ـن بديع المرئى والمسموع
كم لديه من ليث غاب صئول ... ومهاة مثـل الغزال المروع
وعلى السـد عزة قبل أن ... تملكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك لحاكى ... كسر قلب يتلوه فيض الدموع

لأمية بن عبد العزيز الأندلسى فى البركة :

لله يوم ببركة الحبش ... والأفق بين الضياء والغبش
والنيل بين الضياء مضطرب ... كصارم فى يمين مرتعش
ونحن فى روضة مؤنقة ... دبج بالنور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا ... فنحن من نسجها على فرش

وأولع الشعراء بوصف نواعير مصر (السواقى) كقول الأمير تميم :

ناعورة أنت أنين الهوى ... لما شكت حر وساويسها
أنينها صرة تدويرها ... ودمعها ماء قواديسها
كأنما الكيزان فى بئرها ... هام ملوك فى نواويسها
تقذف بالماء إلى روضة ... كأنها ريش طواويسها

وكذلك أكثر شعراء مصر من وصف المروج والرياض والحدائق ، ونظموا كثيراً من الطرديات التى توصف فيها البرية ونباتها وأنواع الطير والوحش وتصور فناً من المعيشة ممتعاً .

وأما الأبنية فما قصر الشعراء فى وصفها . فالأهرام كانت حيرة الشعراء ، ومبعث كثير من أشعارهم .

يقول عمارة اليمنى شاعر الفاطميين :

خليلى ما تحت السماء بنية   تماثل فى إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما   على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها   ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

وقال ابن الساعاتى :

ومن العجائب . والعجائب جمة   دقت عن الإكثار والإسهاب
هرمان قد هرم الزمان وأدبرت   أيامه ويزيد حسن شباب
لله أى بنية أزليـــة   تبغى السماء بأطول الأسباب
وكأنما وقفت وقوف تبلد   أسفاً على الأيام والأحقاب
كتمت عن الأسماع فصل خطابها   وغدت تشير به إلى الألباب

ومثل هذا كثير يضيق المجال عن إثباته .

ووصف الشعراء كثيراً من أبنية مصر . وحسبك ما قالوا فى أديار مصر ، فقلما حرم دير من ذكرهم إياه وحنينهم إليه .

يقول ابن عاصم فى دير طمويه (طموه) :

واشرب بطمويه من صهباء صافية   تزرى بخمر قرى هيت وعانات
على رياض من النوار زاهرة   تجرى الجـــداول منها بين جنات
كأن نبت الشقيق العصفرى بها   كاسات خمر بدت فى إثر كاسات
كأن نرجسها من حسنه حدق   فى خفية تتناجى بالإشارات
كأنما النيـــل فى مر النسيم به   مستلئم فى دروع سابريات

ولابن الزنبق المصرى فى دير القصير ، وكثيراً ما نظم فيه الشعراء :

ياحسرة فى القلب ما أقتلها   كأنها فى القلب أطراف الأسل
كم وكم من ليلة أحييتها   ياصاحبى بالدير فى خير محل
دير القصير الفرد فى صفاته   يامن رأى الجنة فى رأس جبل

ولعمارة اليمني قصيدة يصف فيها دار بدر بن رزيك ، منها :

وسقيت من ذوب النضار سقوفها ... حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مزهراً ... والنخل والرمان إلا مثمراً
وبها من الحيوان كل مشهر ... لبس الوشيج العبقري مشهراً
وكأن صولتك المخوفة أمنت ... أسرابها ألا تراع وتذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعا ... رفت فأذهل حسنها من أبصرا
فن الرخام مسيراً ومسهما ... ومثمنا ومدرهما ومدثرا
والعاج بين الآبنوس كأنه ... أرض من الكافور تنبت عنبرا

وهي قصيدة طويلة جيدة . وكذلك افتن شعراء مصر في وصف رياضها ورياحينها وثمارها وتفكهوا بذكر أطعمتها ، ولا سيما الكنافة والقطائف . أهدى ابن نباتة المصري كنافة مختنقة (محشوة !) وكتب :

ياسيدي جاءتك في صدرها ... كأنها روحي في صدري
كنافة بالحلو موعودة ... كما تقول : العسل المصري
قد خنقتني عبرتي كاسمها ... وبادرت من خلفها تجري
ما خرج الفستق من قشره ... فيها وقد أخرجت من قشري
ونشرها من طيها لم يفح ... فاعجب لسوء الطي والنشر

وأما الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كانت كما هي اليوم ، مستبق الشعراء ، حتى ضمنت كتب التاريخ فضلا عن كتب الأدب كثيراً منها ، فأحداث الدول الطولونية والإخشيدية والفاطمية ودولة المماليك والحروب الصليبية ، قد سجل الشعراء كثيراً منها ، حتى الشعراء الطارئون على مصر كأبي نواس وأبي الطيب . ذكر أبو نواس ثورة أهل الحوف وما فعله الخصيب لإخضاعهم ، وذكر أبو الطيب ثورة شبيب الخارجي وأبدع في وصفها ، ونظم قصيدة رائعة حينما اصطلح كافور وأنوجور بن الأخشيد بعد تنافر . ومن يتصفح دواوين شعراء مصر ، وهي لم تنل حظها من العناية حتى اليوم ، ويطلع على كتب التاريخ المصري ، يعرف كيف تغلغل الشعر في معايش الناس . مسراتها وأحزانها وجدها وهزلها .

مؤرخو مصر الإسلامية...؟

وهم كثيرون منهم :

١ — تقى الدين أحمد المقريزى ١٣٦٠ — ١٤٤١م وكان فيها محتسباً وله مصنفات عديدة . أشهرها كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يختص بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها وتاريخها وديانة أهلها وأدبهم وتجارتهم . ثم كتاب « اتعاظ الحكماء بأخبار الخلفاء » يحتوى على تاريخ مصر من أيام فتحها إلى آخر أيام الدولة الفاطمية . وله أيضاً « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » وهو ذيل لكتاب اتعاظ الحنفـــاء ، يأتى به على تاريخ مصر من سنة ١١٨١ إلى سنة ١٤٤٠ م فى أيام الدولة الأيوبية والمماليك . وكان فى قصد المقريزى أن يؤلف كتابا يجمع فيه سير كل الملوك وأعاظم الرجال الذين نبغوا فى مصر وسير الرجال العظام الذين زاروها ويجعله ثمانين مجلداً ، فابتدأ بتصنيفه وسماه كتاب « المقفى » ولكنه مات قبل أن يتممه . ونذكر من تصانيف المقريزى أيضاً كتاب « الإلمام فى أخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام » وكتاب الأوزان والأكيال الشرعية ثم كتاب « البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب » .

٢ — جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ١٥٠٥ م ولد فى أسيوط من أعمال الصعيد ، كان من أشهر علماء زمانه وله عدة مصنفات فى كل العلوم العربية والدينية والتاريخ . قيل إنه صنف نحو خمسمائة مجلد ، منها كتاب « حسن المحاضرة وأخبار مصر والقاهرة » وتاريخ الخلفاء من أبى بكر الصديق إلى سنة ٩٠٠ هجرية وكتاب الأوائل .

٣ — ابن مرعى المتوفى سنة ١٦٢٣م ، وله كتاب « نزهة الناظرين فى من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين » .

٤ — أبو المحاسن بن تغرى بردى .

ولد جمال الدين أبو المحاسن يوسف بالقاهرة عام ٨١٢ هـ — ١٤٠٨ م فى عهد الملك الظاهر برقوق ، كان أبوه مملوكا رومى الجنس ، اشتراه الظاهر وأعتقه ورفعه لذكائه حتى صار أميراً للسلاح (أتابكا) ، واختاره مع من اختاره للوصاية على العرش بعد وفاته . وفى أول عهد الملك الناصر بن الظاهر ثار نائب الشام ،

وحالفه على الثورة جماعة من قواد الجيش منهم تغرى بردى فهزمهم الناصر ، وفر تغرى بردى ، وفى أثناء غيبته تزوج الناصر من ابنته أخت المؤرخ وعفا عنه واستقدمه عام ٨٠٨هـ ، وعينه قائداً للميسرة حتى توفى عام ٨١٥هـ ، وربى ابنه أبا المحاسن زوج أخته الثانية قاضى القضاة ناصر الدين ، فلما توفى رباه زوج أخته الأخرى قاضى القضاة جلال الدين ، فحفظ القرآن ، ودرس الفقه والكلام والنحو والبيان على عدة من العلماء ، وكان له فى الأدب جولات لا سيما الغزل ، كما كان بارعا فى الفروسية ، وموسيقياً بارعا ، وابن تغرى بردى مؤرخ مصر والنيل بكتابه الضخم « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » .

ومن الآثار التاريخية النفيسة لابن تغرى بردى « كتاب « المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى » ، تأليف أبى المحاسن بن تغرى بردى المؤرخ المصرى الكبير المتوفى سنة ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م وهو معجم ضخم للتراجم يقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية ، وفيه يترجم المؤلف أعلام الإسلام منذ أوائل الدولة التركية ويبدأ بالمعز أيبك التركمانى زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ — ٦٥٠ هـ) أى منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ويفيض بوجه خاص فى سير أعلام مصر والشام من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء ، ويترجم أيضاً بعض ملوك النصرانية وأمرائها فى هذه العصور ، مرتباً ذلك كله على حروف المعجم ، وقد جعل أبو المحاسن مؤلفه تكملة أو ذيلا لمعجم الصفدى الشهير « الوافى » ، ولهذا الكتاب قيمة تاريخية خاصة ، لأن مؤلفه وهو من أمراء البلاط القاهرى فى القرن التاسع الهجرى لم يتأثر فى وضعه بمؤثرات أو أهواء خاصة ، ولا سيما فيما يتعلق بترجمة معاصريه ، حسبما يشير إليه هو فى مقدمته ، إذ يقول إنه وضع كتابه « غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب به من الأصدقاء والإخوان . ولا لتأليفه وترصيعه من أمير ولا سلطان » . والمعنى الذى يقصده المؤلف بهذه الإشارة ظاهر ، فقد كانت معظم التراجم فى عصره توضع بوحى معين أو تحقيقاً لشهوات الخصومات السياسية والأدبية ، التى جعلت من كتاب القرن التاسع ومؤرخيه أحزاباً أدبية متنافرة متخاصمة . ولكن أبا المحاسن يقدم لقارئه سير معاصريه والقريبين من عصره فى صور أكثر استقلالا وحرية فى التقدير والحكم كما يقول عبد الله عنان.

وقد لخص هذا الكتاب الذى لا يزال مخطوطاً حتى اليوم المستشرق (فييت) مدير دار الآثار العربية سابقا فأخرج بالفرنسية مجلداً ضخما عن محتوياته «المنهل الصافى»، وسماه بنفس الإسم، ونشر ضمن مجموعة المجمع العلمى المصرى، ويقع فى ٤٨٠ صفحة كبيرة، ويمهد له مسيو فييت بمقدمة ضمنها تراجم الكتاب (وعددها ٢٨٢٢ ترجمة) حسب صفات أصحابها من أمراء وقادة وساسة وتجار وأدباء وعلماء ... الخ، ثم يكتفى فى كل ترجمة بذكر اسم صاحبها وتاريخ مولده ووفاته ورقم الورقة التى يشغلها من المخطوط الأصلى، ويذكر المراجع الأخرى التى تشير إلى هذه الترجمة، وأخصها كتاب النجوم الزاهرة لنفس المؤلف (أبى المحاسن) وخطط المقريزى، وابن حجر، والسخاوى ... الخ، ثم يذيل ذلك بفهرس أبجدى عام.

٥ – ومن مؤرخى مصر الجبرتى، وقد دون الجبرتى حوادث مصر منذ سنة ١٦٨٩ وكان شاهد عيان لها من سنة ١٧٥٧ إلى سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٢١، وقد احتوى كتابه على تراجم شخصيات مصر فى ذلك العهد. وليس هناك مؤرخ استقرى الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه، ولا بذل ما بذله من الجهد والجلد والصبر والمعاناة فى البحث والاستقراء. ولم يبلغ أحد من مؤرخى المائة سنة الأخيرة ما بلغ الجبرتى فى التخصص للتاريخ.

٦ – ومن المؤرخين: «رفاعة رافع الطهطاوى»، و«على باشا مبارك»، و«اللواء محمد مختار باشا المصرى».

فرفاعه رافع الكبير هو بلا مراء زعيم نهضة العلم والأدب فى عصر محمد على، والتاريخ متفرع عن العلم والأدب – وتجد ميوله التاريخية فى كتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» الذى تضمن مشاهداته وتأملاته فى رحلته وإقامته بفرنسا، و«مناهج الألباب المصرية»، و«أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل»، وفى بحوثه بمجلة «روضة المدارس»، وبخاصة رسائله التى نشرها فيهـــا تباعاً «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» فى تاريخ الرسول عليـه الصلاة والسلام.

وعلى باشا مبارك قد أسدى إلى تاريخ مصر أعظم خدمة بكتابه الخالد الذى أخرجه فى عشرين مجلداً وأسماه «الخطط التوفيقية»، وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وتاريخها وجغرافيتها فى عصورها القديمة والحديثة، ويعد تكملة

وتجديداً لخطط المقريزى ولكتاب تخطيط مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية، وفيه وصف شامل لمصر ومدنها وقراها فى أطوارها التاريخية ونيلها وترعها وسواحلها . وتخطيط كامل لأحياء القاهرة والاسكندرية ومعالمها القديمة والحديثة وقد تضمن فيما تضمن تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وأمرائها وأعيانها. وهو من هذه الناحية يعد مكملا لكتاب الجبرتى . فهو غرة فى تاريخ مصر العلمى، وحسبك أنه مرجع كل باحث فى شئون مصر التاريخية والعلمية والهندسية .

وثالث الثلاثة هو اللواء محمد مختار باشا المصرى صاحب «التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية» من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هجرية . وهو كتاب ضخم يمتاز بالدقة والتمحيص فى رصد التواريخ على صحتها وتدوين أهم الحوادث المصرية مرتبة بتسلسل السنين والشهور والأيام التى أرخها لغاية سنة ١٣١٠ هجرية (١٨٩٢ ميلادية) وهو من أعظم المراجع فى تاريخ مصر طول العصور .

تم الجزء الأول
ويليـــه
الجزء الثانى

بحمد الله ورعايته

فهرس

الجزء الأول من الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	تمهيد
٥	الفتح العربي لمصر
١٦	الفكر المصري بين عهدين
٢٩	اللغة العربية وآدابها في مصر بعد الفتح الإسلامي
٣٤	النثر الأدبي في ظل الولاة المسلمين
٣٥	صور أدبية
٣٩	الشعر في عصر الولاة
٥٢	الأدب في عصر الطولونيين والأخشيديين
٦٥	الشعر في عهد الدولتين
٦٦	المتنبي وكافور
٧٣	ابن طباطبا المصري
٧٣	ابراهيم الجيزي
٧٣	ابن جدار المصري
٧٤	منصور الفقيه
٧٤	شعراء وفدوا على مصر
٧٦	الأدب في ظلال الدولة الفاطمية
٨١	تشييد الأزهر
٨٧	إنشاء المكتبات
٨٨	إنشاء دار الحكمة
٨٩	أعلام الثقافة في هذا العصر
٩٢	جوانب من الحياة الفكرية في هذا العصر

الصفحة	الموضوع
٩٣	ابن الهيثم
٩٥	علماء وأدباء
٩٧	النثر الأدبي في العصر الفاطمي
١١٨	الشعر في عهد الدولة الفاطمية
١٢٧	نماذج من الشعر الفاطمي
١٤٠	تميم بن المعز الفاطمي
١٤٦	صور من شعر تميم
٢٠١	تميم في جده ولهوه
٢٠٣	قصائد أخرى لتميم